سي. أس. لويس

ثقل المجد

وموضوعات أخرى

www.christianlib.com

www.christianlib.com

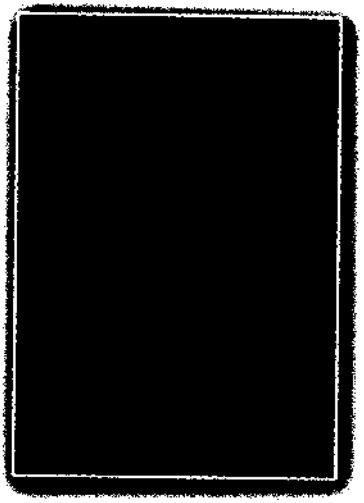

سي. أس. لويس كاتب وباحث إيرلنديّ وُلد في ٢٩ نوفمبر ١٨٩٨م وتوفي في ٢٢ نوفمبر ١٩٦٣م. تنوعت اهتماماته بين أدب القرون الوسطى وعلم العقائد في المسيحيّة والنقد الأدبيّ والبث الإذاعيّ والعلاقة الافتراضيّة بين الخير والشرّ، بالإضافة إلى سلسلة الأطفال الشهيرة التي كتبها، سجلات نارنيا، وكتب خياليّة أخرى مثل رسائل سكروتيب وثلاثيّة الفضاء.

www.christianlib.com

سي أس لويس

ثِقَلُ المَجدِ

ومقالات أُخرى

ترجمة: هاني ميلاد

www.christianlib.com

هذه ترجمة كتاب:
The Weight of Glory: And Other Addresses, HarperCollins 1980, By: C.S. Lewis.
Arabic Translation © 2019, Resaletna Publishing
All Rights Reserved

الكتاب: ثِقَلُ المَجدِ، ومقالات أخرى
الكاتب: سي أس لويس
ترجمة: هاني ميلاد
مراجعة على اللغة الإنجليزيَّة وتدقيق لُغوي: ماريان شاكر
تصميم الغلاف، وتنسيق داخلي: موريس وهيب
الإشراف الفني والإداري: رامز يسري
الناشر: دار رسالتنا للنشر والتوزيع
٠١٢٨٥٤٧٠٢٤٥ - ٠١٠٠٩٧٠٦٩١٦
Email: resaltnasalampublshing@gmail.com
الطبعة: الأولى، ٢٠٢٠
رقم الإيداع بدار الكتب المصريّة: ٢٠٢٠/١٦٥٥٧
مطبعة: سان مارك للطباعة ت / ٠١٢٢١٨٢٤٢١٤
[جميع الحقوق محفوظة للناشر، ويحظر طبعه أو إعادة نشره أو الاقتباس منه إلا بإذن كتابي من الناشر]

www.christianlib.com

الفهرس

مقدّمة المُترجم ٥
مقدمة والتر هوبر ٧
مقدمة الطبعة الأصليَّة للمؤلف سي إس لويس ٢١
الفصل الأوَّل: ثِقَلُ المَجدِ ٢٣
الفصل الثاني: التعلّم في زمن الحرب ٣٩
الفصل الثالث: لماذا لا أكون مسالمًا؟ ٥١
الفصل الرابع: التحوُّل ٧١
الفصل الخامس: هل اللاهوت شِعرٌ؟ ٨٩
الفصل السادس: الحلقة الداخليَّة ١٠٧
الفصل السابع: العضويَّة ١١٩
الفصل الثامن: الغفران ١٣٣
الفصل التاسع: زلَّة لسان ١٣٧
إصدارات سلسلة سي إس لويس ١٤٣

www.christianlib.com

www.christianlib.com

مقدّمة المُترجم

استطاع لويس في فترة الحرب العالميَّة الثانية والسنوات التي تاليه مباشرة أنْ يعبِّر بقلمه عن عدة موضوعات هامة جدًّا كان لها تأثيرًا كبيرًا في نفوس المجتمع الإنجليزي. ففي هذا الكتاب تكلم لويس عن خلود النفس البشريَّة في عنوان ثِقَل المَجد وكيف يمكن لضيقتنا الوقتيَّة أنْ تُنشئ لنا أكثر فأكثر ثقل مجدًا أبديًا، ويقول لويس لقد تم ابتكار كل فلسفاتنا الحديثة لإقناعنا بأنَّ الإنسان الصالح موجودٌ على هذه الأرض، ومع ذلك، فإنَّ الأمر المذهل هو أنَّ مثل هذه الفلسفات للتقدم أو التطور الإبداعي بحد ذاتها تشهد على تردد أنَّ هدفنا الحقيقي هو في مكان آخر.

كما تحدث أيضًا عن أهميَّة التعلم في زمن الحرب وهي خطبة موجهة إلى الطلاب الذين كانوا يتساءلون عن أهميَّة الاستمرار في التعلم بينما هناك حرب عالميَّة، ويقول لويس إذا كان الرجال قد أجَّلوا البحث عن المعرفة والجمال إلا أنْ يصبحوا آمنين، فلن يبدأ البحث أبدًا، نحن مخطئون عندما نقارن الحرب بـ «الحياة الطبيعيَّة». فالحياة لم تكن أبدًا طبيعيَّة.

وفي عنوان لماذا لا أكون مسالمًا يوضح لويس إنَّه في حين أنَّ «الحرب مرفوضة للغاية»، هناك أسباب للحروب (على سبيل المثال، ما كان يمكن أنْ يحدث لو لم يقف أحد لهتلر؟) ويوضح لويس أنَّ التاريخ مليء بالحروب النافعة، وكذلك بالحروب عديمة الفائدة. وفي هذا العنوان يطرح لويس سؤالًا هامًا وهو (هل الحرب هي أعظم شر في العالم؟) ويعلق في هذا العنوان بأن المسالمة ليست عمليَّة لأنه سيتم التغلب على المسالمين من قِبَل أولئك الذين ليسوا كذلك.

وفي عنوان التحوُّل يشرح لويس كيف من الصعب اتخاذ شيء معقد للغاية ووضعه في أشكال بسيطة : على سبيل المثال، قد يكون رسم قلم رصاص أو حتى رسم منظر طبيعي جميلًا يعطينا فكرة عن المشهد الفعلي، لكنه ليس نفس الشيء بالفعل، حيث يحتوي المشهد الفعلي على عناصر لا يمكن التعبير عنها في موارد محدودة، نحن نواجه نفس المشكلة مع محاولة شرح الأشياء الروحيَّة عندما يكون

www.christianlib.com

هناك الكثير لهم، لدرجة أنّنا لن نفهمها حتى نتحوّل إلى السماء.

هل اللاهوت شِعرٌ؟ في هذا العنوان يعالج لويس مسألة عما إذا كانت معتقداتنا عن الله (وحتى في وجود الله) هي مجرد أفكار خياليَّة وغريبة نتمسك بها بشكل عاطفي دون أي حقيقة حقيقيَّة وراءها.

وفي عنوان الحلقة الداخليَّة يتحدث لويس عن الرغبة في «القبول» وتصارعها مع الخوف من الاستبعاد والرفض، إنَّه يحذرنا من خطر ارتكاب خطأ من أجل التوفيق مع الطبيعة السريعة للعاطفة «لتكون داخل مجموعة».

أما في عنوان العضويَّة يدحض لويس فكرة المسيحيَّة باعتبارها مسألة شخصيَّة وفرديَّة فقط، كما يشرح التمييز بين المجموعات التي يكون أعضاؤها مختلفين ولكنهم متكاملون، كما يجادل لويس بشكل أساسي ضد الفرديَّة المنعزلة من جهة والجماعيَّة المتجانسة من ناحية أخرى.

أما عن عنوان الغفران يوضح لويس أنَّ الإيمان بالغفران ليس بالأمر السهل ويحتاج إلى تذكير متكرر لذلك نكرره في الصلاة الربانيَّة، كما يوضح الفرق بين العذر والغفران فعندما نأتي إلى الله من أجل المغفرة ما نطلبه حقًا هو أنْ يعذرنا.

في عنوان زلَّة لسان يحذرنا لويس من إغراء «اللعب» في المسيحيَّة التي تأتي من الرغبة في التمسك بأشياء العالم، وإنَّ رفض التخلي عن هذه الأشياء يجعل المرء لا يتحلى بروحانيَّة إلى الحد الذي يتطلب تغييرًا حقيقيًا في حياته.

وفي نهاية هذه المقدمة أود أنْ أشكر إلهي الذي دعاني وأهلني كي أقوم بهذا العمل، كما أشكر دار رسالتنا للنشر على تبنيها فكرة نشر هذا العمل، كما أشكر أيضًا عائلتي وأصدقائي على دعمهم ومساعدتهم وتشجيعهم المستمر لي أثناء ترجمة الكتاب.

المُترجم

هاني ميلاد

www.christianlib.com

مقدمة والتر هوبر

في نهاية هذه العظة الجميلة (ثِقَلُ اَلمَجدِ) علَّق سي إس لويس على خلود النفس البشريَّة قائلًا:

> هذا لا يعني أنْ نكون جادين بشكل دائم، بل يجب علينا أنْ نفرح. لكن فرحنا يجب أنْ يكوّن من هذا النوع (كما هو، في الواقع، النوع الأكثر فرحًا) الذي يوجد بين الناس الذين أخذوا بعضهم البعض على محمل الجد من البداية.

أعتقد أنَّ مثل هذه التشجيعات من قِبَل لويس تساهم بشكل كبير في موضوع تشكيل السلوك المسيحيّ. بعد أنْ بذلنا أقصى ما في وسعنا لأداء ما يطلبه الله، ألا ينبغي لنا على الأقل أنْ نتمتَّع بالخير الذي يرسله لنا؟ إنَّ استعدادنا لأن نكون «جادين دائمًا» عندما لا يكون هُناك سببًا لذلك يبدو لي ليس فقط رفضًا للسعادة التي يمكن أنْ نحصل عليها على الأرض، لكن أيضًا تهديدًا لقدرتنا على الاستمتاع بها في المستقبل عندما يكون كل سببٍ محتملٍ للتعاسة أخيرًا قد انجرف بعيدًا.

فنحن نعرف من كتابات لويس المُبكِرَة أنَّه وُلِدَ بشعورٍ من الفرح، وأنَّه كان مشوَّهًا إلى حدٍ كبير نتيجة تصارع الإلحاد مع الطموح. رُبَّما لا يكون طموحًا جادًا بكل ما يمكن أنْ يحدث في تناغم مع ما يصفه من فرح. بالتأكيد، لم يكن لويس يكتب أيَّة أعمال عظيمة حتَّى تحوَّل إلى المسيحيَّة في عام ١٩٣١، وبعد ذلك توقَّف عن الاهتمام بنفسه. إذا تمَّ الاعتراض على ذلك من خلال الذين يتصرفون بحزنٍ بأنَّ الدين المسيحيَّ جادٌ وعظيمٌ، فجوابي هو: «نعم بالطبع، ولا يؤخذ على محمل الجد بما فيه الكفاية»، لكن لويس يأتي لإنقاذنا في هذه المرحلة من خلال عرضه لنا في كتاب: «المحبَّات الأربع»، كيف يمكن للأمور بسهولة أنْ تصبح غير تلك التي يجب أنْ تكون عليه من خلال النوع الخطأ من

www.christianlib.com

الجديَّة.

عند تحرير هذه المقالات، انساقت للتفكير في ذلك المفهوم الغامض، لكن الغريزي الذي يبدو أنَّنا نولد به من خلال ذلك يخبرنا فقط بمدى الفرح، ومدى الجديَّة، ومقدار ما سنفعله، إنَّنا نستطيع أنْ نكون مع شخص آخر.

وبما أنَّه يتم تحرير هذا الكتاب في المقام الأوَّل للأمريكيِّين، ينبغي أنْ أشرح ذلك، بعدما راسلت لويس لعدَّة سنين دعاني للذهاب عنده في ربيع ١٩٦٣م من موطني الولايات المتحدة لما كنت آمله محادثة واحدة على كوب من الشاي. فأنا لا أؤمن بالحظ، لكنني أؤمن بالملائكة، وتحوَّلت حفلة الشاي المرغوبة لتكون (إذا أعطيناه اسمًا): مراقبة الوصول المتأخِّر أو محادثة فرديَّة مع سي إس لويس. وعلى أي حال، بما أنَّ مصادر أدلتنا المباشرة عن الفرح تتناقص مع السنوات، أمل أنْ يكوِّن لي بعض الاهتمام بالنسبة إلى أولئك الذين يشعرون به تجاه ذلك الفرح «من النوع الأكثر فرحًا» الذي يبدو أنَّه لا يوجد بوفرة في هذه الأيام.

استغرق الأمر بعض الوقت لشخص أميركيٍّ، مثلي، للتأقلم مع «وسائل الراحة» الإنجليزيَّة، أرى ذلك على سبيل المثال من يومياتي ٧ يونيو ١٩٦٣م خلال الزيارة الطويلة مع لويس شربنا حوالي جالونًا من الشاي. بعد فترة طلبت أنْ أذهب إلى الحمام متناسيًا أنَّ الحمامات والمراحيض في معظم المنازل تكون في غرفة منفصلة. كنوع من الشكليَّات الزائفة، أشار لي لويس إلى الحمام، وأشار إلى الحوض، فانزلقت كومة من المناشف، وأغلق الباب ورائي. عندما عدت إلى غرفة جلوسه قلت له إنَّه ليس حمَّامًا كما كنت أرغب فيه، لكن.. «حسنًا يا سيدي، اخترتك هذا اليوم»، قال لويس ذلك وهو ينفجر من الضحك، مقتبسًا من سفر يشوع. ستحطمك تلك التعبيرات الأمريكيَّة السخيفة. والآن، أين تريد أنْ تذهب؟

أرى من اليوميات الأخرى التي قمت بتدوينها أنَّ لويس أو جاك كما كان يفضِّل أنْ يناديه أصدقاؤه، كنت أقابله على الأقل ثلاث أو أربع مرات في الأسبوع، أحيانًا في منزله وأحيانًا في حانة مع مجموعة من الأصدقاء تسمى

www.christianlib.com

إنكلنج «the Inklings» كنت أعرف أنَّه مريضٌ بالفعل وذلك كان منذ ١٩٦١م عندما بدأت المشاكل مع صحته. بالرغم من ذلك هو لم يفكر كثيرًا في هذا الأمر، وكان يبدو قويًّا جدًّا، كان من السهل نسيان ذلك عندما كنَّا في الشركة مع ذلك الرجل اللطيف الذي يبلغ طوله ستة أقدام، وهُنا كانت المفاجآة حيث كان بحالة غير جيدة بالمرَّة لحضور القداس معي في ١٤ يوليو. وطلب مني البقاء هُناك معه وكان هذا اليوم لا ينُسى بالنسبة لي بأكثر من طريقة. ففي ذلك الوقت، طلب مني أنْ أقبل على الفور منصب مساعد أدبيّ وسكرتير شخصيّ، بعد استقالتي من منصبي التدريسيِّ في جامعة كنتاكي، لكي أرجع إلى أكسفورد لاستئناف واجباتي.

في صباح اليوم التالي ذهب لويس لإجراء فحص روتينيّ في دار آكلاند للرعاية الطبيَّة وكان ما هو مفاجئ للجميع حيث دخل لويس في غيبوبة استمرَّت ٢٤ ساعة اعتقد فيها الأطباء أنَّه لن يتعافى منها. إنَّ أصدقائنا المتعاونين الدكتور أوستن فرير وزوجته الموقَّرة كانوا في أجازة في ويلز من ١٦ حتَّى ٣٠ يوليو لكن بناءً على طلب لويس ظلوا في أكسفورد حتَّى ١٧ يوليو. حتَّى استطاع أوستن أنْ يسمع اعترافه، وأعطائه القربان المقدَّس. طلب مني لويس أنْ أحصل على السرِّ المقدَّس (التناول) معه لكنني رفضت، لأنَّني لم أكن مريضًا، وهذا غير مسموح به. قال لويس:

«يجب عليك أنْ تكون بجواري في هذا الوقت، مع القيام بكثير من الأعمال لأجلي».

لم أتمكَّن من الاحتفاظ بمذكرات منتظمة في ذلك الوقت لكنني أرى من رسالة كتبتها إلى فرير في ٣٠ يوليو من منزل لويس، والآن جزء من أوراق فرير في مكتبه في بودليان، أكسفورد، وقد قمت بالفعل بنقلها إلى منزل لويس في ذلك الوقت.

بدلًا من إخبار لويس بمدى قربه من الموت، يبدو أنَّ الأطباء قد تركوا هذا الأمر لي. عندما قضيت الوقت لأكون على صواب، أخبرته عن الغيبوبة والأيام القليلة التي كان عقله مضطربًا فيها. بعد ذلك استمر لويس في الاعتقاد

www.christianlib.com

بأنَّ «الزيت المُقدَّس» الذي دُهِنَ به خلال الغيبوبة وتناوله القربان المُقدَّس قد أنقذ حياته.

حتَّى قبل ذهابه إلى دار الرعاية الطبيَّة، تعجبت من أنَّ لويس عاش طويلًا دون أنْ يحرق نفسه. إلَّا عندما كان يرتدي لمناسبة خاصة، كان يرتدي سترة توبد قديمة، تمَّ ترقيع جيوبها اليمنى وإعادة ترقيعها عِدَّة مرات. كان هذا بسبب أنَّ لويس، عندما كان يُشعِل سيجارهُ، كانت تسقط على جيبه، وكانت النتيجة هيَ أنْ تحرق في طريقها ملابسه. وحدث هذا في كثيرٍ من الأحيان إنْ لم يكن هُناك أي من المواد المشتعلة متبقية.

إنَّ الممرضات في أوكلاند، قد وجدوه يومئ برأسه وفي يده سيجارة، لم يكن له أي شيء من هذا. وهكذا كان الأمر، إلَّا عندما كنت معه، فلن يسمحوا له بامتلاك أي عيدان كبريت. ما حيَّر لويس هو أنَّه بعد أنْ تركته مع علبة الكبريت، فإنَّ الممرضة، بمجرَّد مغادرتي، تندفع إلى الداخل وتأخذهم بعيدًا. قد سألني مرة في أحد الأيام:

«كيف يعلمون؟ أعطني علبة أستطيع أنْ أخفيها تحت أغطية السرير».

حينها كان عليَّ أنْ أعترف بأنَّه بينما كنت المُورِّد، كنت أيضًا المُخبِر. ضحك لويس:

لديَّ ما لم يكن لأي صديق من قبل. لديَّ خائن خاص، شخصيتي الخاصَّة جدًّا بينيديكت أرنولد[1]. التوبة قبل فوات الأوان!

لقد أحببت كل هذه الأشياء العميقة والقذرة، وأنا أتوهَّم بأنَّني سحبت ساقه بقدر ما كان يجذبني. لكن كان هُناك الجانب اللطيف الذي ما زال

---

١ بينيديكت أرنولد: هو عسكري أمريكي، وكان جنرال خلال حرب الاستقلال الأمريكيَّة وقاتل مع الجيش الأمريكي، لكنه انشق لاحقًا إلى الجيش البريطاني، وأصبح اسم «بينيديكت أرنولد» يشير في الولايات المتحدة للخيانة، لأنه خان مواطنيه بعد أنْ قاد الجيش البريطاني. (المترجم)

www.christianlib.com

نموذجيًا. كانت هُناك حادثة واحدة وقعت في أوكلاند التي قد يجدها قُرَّاء قصَّصِه في نارنيا على أنَّها محبَّبة كما أعتقد.

حدث في أحد الأيام عندما كان تفكير لويس مضطربًا، أنا أيضًا لاحظت ذلك، لم يتمكن من التعرُّف على أي من أولئك الذين جاءوا لرؤيته، ولا حتَّى البروفيسور تولكين. وكان آخر زائر لهذا اليوم هو أخته لكن ليست شقيقته، مورين مور بليك، التي كانت قبل بضعة أشهر، وعلى غير المتوقع من الأحداث، أصبحت السيدة دنبار سيدة هيمبريجس[٢]، لديه قلعة، وممتلكات ضخمة في إسكتلندا. كانت أوَّل امرأة في ثلاث قرون تصل إلى البارون[٣]. لم يلتقوا منذ حدوث ذلك، وكنت آمل ألَّا أخيب آملها، عندما أخبرتها أنَّه لم يكن قادرًا على التعرف على أي من أصدقائه القدامى. بينما هو فتح عينه عندما أمسكت هيَ بيده وهمست «جاك» أجاب لويس مبتسمًا أنَّه مورين «لا» أنَّها السيدة دنبار سيدة هيمبريجس، قالت: أوه جاك، كيف يمكن لك أنْ تتذكر ذلك؟ قال هو على العكس. «كيف يمكن أنْ أنسى قصة خياليَّة؟».

ثمة يوم واحد عندما كان من الواضح أنَّه أفضل بكثير، لكنه لم يتعافَ تمامًا من الخطر، سألني لماذا تبدوا مكتئبًا؟

كان سبب الاكتئاب هو أنَّ رجلٌ كان يعيش بجوارهم عمره حوالي ٩٧ عام وهو ملحدٌ شرسٌ، كان يخرج للمشي كل يوم وعندما التقينا سألني إذا كان لويس «لا يزال على قيد الحياة» وعند تلقي ردي بأنَّه كان مريضًا بالفعل، قال بثبات: «لم يحدث لي شيء سيء! لقد مضى وقت طويل!».

لقد أخبرت لويس بأنَّه كانت لديَّ وساوس - وساوس شديدة - تجاه الله أخبرته به، أعتقد أنَّه غير عادل للغاية أنْ يسمح لهذا الملحد العجوز أنْ يستمر في ذلك إلى الأبد، ومع ذلك ترك لويس، الذي كان في الرابعة والستين من عمره على مقربةٍ من الموت، قلت له «لكن» حينها بدا وجه لويس يعبس، قلت له: «لم أقل ذلك بالفعل في صلاتي، لكنني اقتربت جدًّا».

---

٢ هيمبريجس: مقاطعة في إسكتلندا. (المترجم)

٣ البارون: لقب يطلق على طبقة النبلاء في إنجلترا. (المترجم)

www.christianlib.com

«وماذا برأيك سيقول الله حيال ما تعتقده؟»

قال لويس بنظرة غير مشجعة.

«ماذا؟»

«ما علاقتك بهذا؟»

أي شخص قرأ يوحنا ٢١: ٢٢ - توبيخ الله إلى بطرس - سوف يجد مثال لويس التطبيقي. ومن ثم برقةٍ، برقةٍ أراحني لويس فيما كنت أتخيله عن حزنه، لكنه كان يعرفني.

أسوأ ما في الأمر، كان هُناك عودة للروح المعنويَّة العالية، والشعور الشديد بالفرح واحدة من أكثر الأمور التي وجدته جذابة في شخصيَّة لويس. لكن الأمر يستلزم شخصًا لديه مواهب بوزويل[٤] حتَّى تكتمل لديه الفكرة الصحيحة عن هذا الرجل الرائع. لإظهار كيف أنَّ الفكاهة كانت تتجانس بشكلٍ طبيعي في الجانب الأكثر خطورة، وكانت في الواقع أحد أسباب عظمة قلبه، وفكره الكبير، وانفتاحه للعمل الخيري الذي لم أجده في شخص آخر. لقد كان رجلًا، الكثير منَّا قد رأى، ما لديه من مواهب شائعة مقترنة بقدراتٍ غير شائعة جدًّا. ربَّما ما يستحق التدوين أنَّني كنت أعرف - أعرف فقط - بغض النظر عن المدة التي قضيتها، بغض النظر عمن قابلته، لا ينبغي لي أبدًا أنْ أكون في صحبة مثل هذا الكائن البشري الرائع مرة أخرى. من كل ذكرياتي هذا لا يمحى ومن المؤكد أنْ يظلَّ كذلك.

أحضرت لويس إلى منزله في ٦ أغسطس، مع مرض إسكتلندي، يدعى أليك روس، الذي كانت مسئوليته البقاء ليلًا مستيقظًا إذا لزم الأمر. كنت مع لويس بشكلٍ مستمر تقريبًا لمدة شهرين، وكنت أكثر ارتياحًا معه، لأننا كنَّا في نفس المنزل. لم يشتكِ مرة واحدة من الظروف في - آكلاند - باستثناء، بالطبع، سلوكي «الخائن» على ظهور واختفاء الكبريت. ومن المؤكد أنَّه بعد العودة إلى

٤ كان جيمس بوزويل: (١٧٤٠ - ١٧٩٥) كاتب سيرة ومهندس إسكتلندي، اشتهر بسيرة حياته التي كتبها عن صديقه ومعاصره، الشخصيَّة الأدبيَّة الإنجليزيَّة صمويل جونسون، والتي يقال عادة إنَّها أعظم سيرة مكتوبة باللغة الإنجليزيَّة. (المترجم)

www.christianlib.com

مكانه المعتاد كان لديه سرور كثير. بعد أنْ شعرت أنَّه يحب أنْ يُترك وحده بعد الغداء، سألته إذا كان قد أخذ غفوة. قال «أوه، لا! «لكن، لا تنسي، في بعض الأحيان تأخذني قيلولة».

كان قد استمر في إملائه للرسائل خلال إقامته في آكلاند. وعلى الرغم من أنَّه كان قادرًا على القيام بالمزيد من العمل في هذا المنزل، إلَّا أنَّه أعطى المزيد من الاهتمام للمشاكل منذ ١٩٦١ التي، كان يعرف أنَّه قد تصبح أسوأ إذا مات فجأة: مشكلة أخيه المؤسفة مع الكحول، ومستقبل أبناء زوجته، بالإضافة إلى فقدان والدتهم في ١٩٦٠، وأشياء أخرى تحزن أيضًا. لكنني أذكر هذه الأمور لأنه من ثم لاحظت شيئًا لم أره من قبل في أي شخص آخر (باستثناء ما عرفته لاحقًا من صديقة أوين بارفيلد). كان لنصيب لويس - البعض يقول أكثر من نصيبه - من المشكلات. لكن، بعد أنْ فعل كل ما في وسعه لحلها، ترك المسألة في يد الله واستمر في عمله وملذاته. أولئك الذين يستمرون في قراءة، على سبيل المثال، الإضافات إلى خطبته «التحول» (لاحقًا)

ربَّما تفهم ما قد يبدو مثل الحلوة التافهة، لكن ليس هذا ما أراده لويس حقًا. وأحب السعادة التي من أجله مات ابن الله. لكي يعطيها لكل الناس. هذا ما لاحظته في ذلك الوقت، قبل عشر سنوات رأيت في بوديلي أنَّه قد وضع الأمر كله بإيجاز في رسالة إلى أخيه في ٢٨ يناير ١٩٤٠م يقول فيه «لقد بدأت أشك في أنَّ العالم منقسم ليس فقط في السعادة والتعاسة، لكن في أولئك الذين يحبون السعادة وأولئك الذين، على عكس ما يبدو، لا يفعلون ذلك حقًا». وبدون أي معنى، فإنَّني أشك في أنَّ أولئك الذين يحملون «الوعي الاجتماعي» أو أيًا كان المصطلح الحالي لن يفهموا ذلك. ومع ذلك، هذه هيَ الطريقة التي كانت عليها.

إنَّ ممرضنا لا يكاد يعلم ما الذي يفعله مع لويس. لم يكن أليك رجلًا متعلمًا، لكنه كان محظوظًا كونه أحد الممرضين الذكور القلائل في ذلك الوقت. ولهذا السبب كان قادرًا على اختيار مرضاه، وكان دائمًا يراقب ما إذا كانوا أثرياء، أو مشهورين بشيء آخر، وكان (يأمل) أنْ يمتلك سيارة رولز رويس. لقد

www.christianlib.com

كان ممرضًا جيدًا لكنه كان لديه لسانًا كريهًا. في أول نظرة له على المطبخ، قال إنَّ المنزل يشبه «حظيرة خنزير» وسرعان ما كان الخدم يكنسون ويمسحون ويغسلون بأسرع ما يمكن.

ولكن تبقي له هذا التناقض المحير من بعيد عن منزل جذاب يرأسه شخص ما. كنَّا نتناول الشاي بمفردنا ذات يوم عندما سأل عما إذا كان لا يستطيع التفكير في اسم من «العظيم مون الذي كان في ذلك البوكي الكبير...». كان لويس يأتي من الباب وسمع ذلك، فقال أي، أي أليك. أنا في ما الشيء الذي كنت تسميه في إسكتلندا ماذا ما. كان أليك بعد ذلك مكرسًا للويس من أجل فكاهته ونسيانه لذاته، فهذا لا يشكل فرقًا الآن سواء كان لويس مشهورًا بأي شيء كان يعتقده أليك مهمًا.

في أغسطس، أملى لويس خطابًا يعلن فيه تقاعده من كامبريدج. ثم في نهاية الشهر، كان أليك قد ترك مراقبة لويس، ذهبنا أنا وابن زوجته دوغلاس جريشام إلى كامبردج لإنهاء بعض الأمور وإحضار حوالي أكثر من ألفي كتاب من مكتبه في كليَّة المجدليَّة. لهذا استأجرنا عربة نقل لنقل هذه الكتب إلى أكسفورد، وفي أثناء الطريق إلى المنزل كنت أفكر أين سنضع كل تلك الكتب حيث كان المنزل مليء بالفعل. لكن لويس كان قد وضع خطته.

احتل أليك ما كان يسمى «غرفة الموسيقى» - غرفة كبيرة في الطابق الأرضي، كانت فارغة باستثناء سرير في زاوية واحدة. بعد أنْ استيقظت طوال الليل، كان أليك نائمًا عندما وصلنا. ومع اقتراب الشاحنة من الوقوف، كان هُناك لويس ينتظرنا ويحذرنا أنْ نبقي هادئين. سألته بصوت منخفض «أين سنقوم بتخزين كل هذه الكتب؟». فأجاب لويس بغمزة. مع آلام لا حصر لها حتَّى لا يوقظ أليك، أمضينا ساعة أو أكثر نحمل الكتب في «غرفة الموسيقى» نرصها حول سرير الممرض. كان لا يزال يُشخر عندما أُضيف آخرها إلى سور الكتب الكبير، الذي كان يقترب من السقف حيث ملأ كل مكان تقريبًا في الغرفة.

في الوقت الذي استيقظ فيه الممرض، كنت أنا ولويس في الخارج ننتظر

www.christianlib.com

النتيجة. ثم حدث. إنَّ أليك استيقظ، ثم وجد نفسه مدفونًا وسط الكتب، وصرخ بأعلى صوته. وفجأة قد سقط جزء من سور الكتب العظيم، وأليك يجر جسمه للخروج من بين الكتب، وفي أثناء الفطار قال أليك إنَّها من أفضل الدعابات التي راها تحدث للمرء على الإطلاق.

إذا كنت قد قلت أقل مما قد يرغب فيه البعض من موقف لويس «الديني» تحديدًا، فذلك لأنني أفترض أنَّه واضح تمامًا. بدلًا من ذلك، حاولت أنْ أذكر من ذكرياتي الشخصيَّة مع الدكتور جونسون كيف يكون لديك رجل مثل سي. إس. لويس في تفكيره فهو يقترح بأنَّ «حجم ذكاء وفكر الرجل يُقاس من خلال مزاحه». إذا كنت قد فشلت، إذًا القطع الرائعة التي تشكل هذه المجموعة ينبغي، على حد قوله، أنْ تعوض كل شيء.

كان لويس رجلًا متواضعًا حقًا. إذا جاءت كتبه بشكلٍ طبيعيٍّ في محادثتنا، فإنَّه سيتحدث عنها بنفس الفصل كما في مناقشة بعض أعمال الآخرين. لكنه لم يكن لديه اهتمام بقدر ما استطعت رؤيته في مواقفه الأدبيَّة أو اللاهوتيَّة في العالم. وذات مساء، جاء هذا بشكلٍ طبيعيٍّ.

لقد كنَّا نتحدث عن أحد الكتب المفضلة لدينا، كتاب موت الملك أرثر للكاتب توماس مالوري، وقد ذكرت كيف شعرت بخيبة أمل أحيانًا، على سبيل المثال، عندما خرج السير لانسيليوت لإيصال سيدة عاجزة من بعض المخاطر أو غيرها. بعد ذلك، فقط في تلك النقطة حيث لا يمكنك الإعجاب به بما فيه الكفاية على تضحيته، هو فسر لشخص ما، كما لو كان الشيء الأكثر طبيعيَّة في العالم، أنَّه يفعل ذلك «للفوز بالعبادة» - وهذا، يؤدي إلى زيادة سمعته. تعرفنا عليه باعتباره ميراثًا من الوثنيَّة. بدون أي حرج، سألت لويس إذا كان على علم بالحقيقة أنَّه بغض النظر عن نواياه كان «يفوّز بالعبادة» من كتبه. فقال بصوت منخفض، ومع أعمق وأكمل التواضع الذي لم أرهُ في أحد من قبل «لا يمكن للمرء أنْ يكون حريصًا جدًّا على عدم التفكير في الأمر». بدا المنزل، الحديقة، الكون كله متوقفًا للحظة، ثم بدأنا نتحدث مرة أخرى.

ومع اقتراب الأشهر السعيدة من النهاية، حان الوقت بالنسبة لي للعودة إلى

www.christianlib.com

الولايات المتحدة، بدأت أنا ولويس التخطيط لتقاعده: الكتب التي سيكتبها، والواجبات التي أقوم بها بالنيابة عنه، ودراستنا معًا المصادر الفرنسيَّة القديمة التي تقع وراء موت الملك أرثر في كتاب توماس مالوري. حتَّى الآن، بعد سنوات، تتمتع هذه الآفاق السعيدة بقدرة على إزعاجي بآمال مثل آمال جل[٥] في كتاب سي إس لويس «المعركة الأخيرة» عندما قال: «إنَّ صورة كل تلك السنين السعيدة... تراكمت... حتَّى بات ذلك أشبه بالإطلال من جبل عالٍ على سهلٍ خصيب جميلٍ مليء بالغابات والمياه وحقول الحنطة، يمتد إلى البعيد البعيد حتَّى يغدو شريطا رفيعًا يغطيه الضباب». لكن لويس توفي فجأة في ٢٢ نوفمبر ١٩٦٣.

في بعض الأحيان، عندما سُئلت عنه، أوضحت أنَّني كنت معه لمدة ثلاثة أشهر فقط. لكنني أعتقد أني أسيء إلى ذكراه وعطفه بتلك الكلمة فقط. ألم نشعر جميعًا بروابط دائمة مع شخص ما عرفناه لدقائق فقط، ومع ذلك فشلنا، هذه هيَ طبيعة الأشياء - لتحقيق أي علاقة حميمة مع أولئك الذين صادفناهم لمدة نصف ساعة أو أكثر على مدى سنوات من الزمن؟ أشعر بالخجل من الاعتراف بأنَّني اعتقدت ذات مرة أنَّ الخطط التي أعددناها أنا ولويس لن تمر عبر السنين، فقد خُدعت بطريقة ما. إنْ لم يكن شريرًا، فإنَّه غير فاسد. في الآونة الأخيرة، كانت جدة واحد من أصدقائي تحتضر، وذهبت معه إلى تلك القمم اللذيذة من ديربيشاير حيث يكون الناس أحرارًا من النفاق والمبالغة كما عرفت. كان ذلك في وقتٍ مبكر من الربيع، ولم يكن هُناك أي شيء يمكن أنْ يجده صديقي لجدته، سوى بضعّة أغصان من الصفصاف. عندما أعطاها إياهم، قبل دقائق من وفاتها، جمعتهم ووضعتهم على وجهها وهمست، «إنَّهم رائعون، يا حبيبي، وكافيين».

لكن كُتب لويس لم تبدو كافية للناشرين. كثيرًا، بقدر ما أحب لويس الكتابة، لم يكن أبدًا، كما هو الحال مع كثيرين آخرين، «فالحماس لا يكون

٥ جل بول: هو اسم شخصية في كتاب المعركة الأخيرة لـ سي إس لويس من سلسلة روايات عالم نارنيا. (المترجم)

www.christianlib.com

وفقًا للمعرفة». كان عليه أنْ يكون لديه شيء ما يقوله قبل أنْ يضع القلم على الورق. ومع ذلك، وعلى الرغم من أنَّه التزم بالمواعيد النهائيَّة التي حددها بنفسه فيما يتعلق بكتبه، فقد أخذ زمام المبادرة من الناشرين الإنجليز والأمريكيِّين للضغط عليه في تحضير القطع القصيرة المختاره. ليس لأن لويس لم يضع كل جهوده في مثل هذه العناوين كما هو موضح هُنا، لكنه كان بحاجة إلى تحفيز قبل أنْ يتم إجراء مثل هذه الاختيارات.

تمَّ نشر هذا المجلد، الذي يتكون في الأصل من العناوين المرقمة ١، ٢، ٤، ٦، و٧ بواسطة جيفري بلس من لندن في عام ١٩٤٩ تحت عنوان التحول وعناوين أخرى، ولاحقًا في نفس العام من قِبَل ماكميلان من نيويورك بـ «ثِقَل المَجد وعناوين أخرى». منذ ذلك الوقت اختلفت أحجام المقالات على جانبي الأطلَنطي كما هو واضحٌ، فهذا الكتاب هو محاولة لوضع الأمور في مكانها الصحيح. ما دفعني إلى العمل كان جولة قمت بها في الولايات المتحدة عام ١٩٧٩ بفيلم «عن طريق الفرح وما بعدها: حياة سي. إس. لويس». بعد انتهاء الفيلم، انتهيت في المساء من قراءة -بصوت عالٍ- جزء من «تحول لويس». ما كنت قد نسيته، وذكّرني به العديد من الأشخاص اللطفاء، هو ما اعتبرته أحد أكثر كتب النثر الخارقة التي ألفها لويس وقد أضيفت لاحقًا، وبالتالي لم تكن موجودة في النسخة الأمريكيَّة. على الرغم من أنَّ هذا في حد ذاته كان مبررًا كافيًا لإعادة ضبط نص الكتاب، إلا أنَّه قد أتاحت الفرصة المثاليَّة لي بتوسيع المجلد بثلاثة عناوين أخرى لم تنشر أبدًا في الولايات المتحدة ولم يتم نشرها في أي مكان من قبل.

إنَّ العناوين مرتبة ترتيبًا زمنيًا باستثناء «ثِقَلُ المَجدِ» الرائع الذي لا يجرؤ فقط على اعتباره جديرًا بمكان مع بعض آباء الكنيسة، لكنني أخشى أنْ يتم شنقي من قِبَل المعجبين بـ لويس إذا لم نعطيها مكانة كبيرة. فقد تمت الدعوة إليها بدعوة من الكاهن تي. ر. ميلفورد في صلاة المساء المقدَّسة في كنيسة القديسة العذراء مريم في جامعة أكسفورد في القرن الثاني عشر في ٨ يونيو ١٩٤١ إلى واحدة من أكبر التجمعات التي تمَّ تجميعها هُناك في العصر الحديث. وقد

www.christianlib.com

أخبرني الكاهن ميلفورد، الذي كان كاهنًا لكنيسة القديسة العذراء مريم، أنَّ الدعوة انبثقت من قراءته «تقدم الحاج» لسي إس لويس ، والوعظة قد نُشرت لأوَّل مرة في اللاهوت، المجلد. ٤٣ (نوفمبر ١٩٤١)، وبعد ذلك ككتيب من قبل S.P.C.K. في عام ١٩٤٢.

«التعلم في زمن الحرب» كان أيضًا بدعوة من الكاهن ميلفورد في صلاة المساء في كنيسة القديسة مريم العذراء في ٢٢ أكتوبر ١٩٣٩. وكان هذا أيضًا بسبب تقدير الكاهن لكتاب تقدم الحاج، وكما أخبرني، أنَّه مع الكثير من الاضطرابات التي سببتها الحرب العالميَّة الثانية لطلاب جامعة أكسفورد في مرحلة ما قبل التخرج، كان يُعتقد أنَّ لويس - جندي دون مسيحيّ سابق في كليَّة المجدليَّة - هو الرجل الوحيد الذي يضع الأمور في مكانها الصحيح. فهيَ جلبت أيضًا حضور كبير إلى سانت ماري، ورتب الكاهن ميلفورد لجميع الحاضرين الحصول على نسخة من عظة تحمل عنوان «لا يوجد آلهة أخرى»: ثقافة في زمن الحرب. اتخذ لويس نص خطبته سفر التثنية ٢٦: ٥ «أَرَامِيًّا تَائِهًا كَانَ أَبِي.» تمَّ نشرها في نفس العام، في شكل كتيب صغير تحت اسم «المسيحي في خطر»، من قِبَل الحركة المسيحيَّة الطلاب.

أثناء إعداد هذا الكتاب، أرسل لي صديقي جورج ساير، تلميذ لويس في كليَّة المجدليَّة خلال سنوات الحرب وصديق حميم بعد ذلك، نسخة من «لماذا لا اكون مسالمًا». أعطيت الحديث إلى المجتمع السلمي في أكسفورد في وقت ما في عام ١٩٤٠، وقدم لويس نسخة للسيد ساير، وهو الحدث الأكثر صدفة حيث لم ينجو الأصلي. نعلم أنَّ لويس لم يقم أبدًا بأي محاولة لنشرها، ويبدو أنَّها مطبوعة هُنا لأوَّل مرة.

«التحول» تمَّ الوعظ به في كنيسة كليَّة مانسفيلد، أوكسفورد، وهيَ مؤسسة تجمعيَّة، بناءً على دعوة من مديرها، ناثانيال ميكليم (١٨٨٨-١٩٧٦)، في عيد العنصرة (عيد حلول الروح القدس على التلاميذ)، في ٢٨ مايو ١٩٤٤. صحيفة ديلي تلغراف في ٢ يونيو ١٩٤٤ تحت عنوان «الرجل الحديث في أكسفورد» حيث «في منتصف الوعظة السيد لويس، وتحت ضغط

www.christianlib.com

من العاطفة، توقف، قائلًا، أنا آسف، وترك المنبر. الدكتور ميكليم، والمسئول والقسيس ذهبوا إلى مساعده، وبعد أنْ رنموا ترنيمة، عاد لويس وأكمل عظته... على ملاحظة مؤثرة للغاية ».

ربَّما أنجز لويس بقدر ما أنجزه أي كاتب حديث، سواء في رواياته أو في خُطبه، لجعل السماء قابلة للتصديق. تخميني هو أنَّه في وقت ما، لكن ليس بالضرورة في عام ١٩٤٤، ربَّما شعر بأنَّه لم ينجح كما كان مع «التحول» على الرغم من أنَّه كان مريضًا تمامًا في ربيع عام ١٩٦١ عندما كان جوك جيب، ناشره في جيفري بلس، يضغط عليه لتحرير عدد من المقالات، حدث شيء رائع. وببساطة ربَّما يكون مثالًا على السماء القادمة لإنقاذها الخاص، فقد أظهر لويس ما هيَ الامجاد التي ينطوي عليها الفساد الذي يفسد الفساد، وهُناك جاء من قلمه جزءًا إضافيًا حيث جعل لتلك العظة مكانة متميزة خاص بها. يبدأ هذا الجزء الجديد بداية من الفقرة «اعتقد أنَّ عقيدة التحول هذه توفر لمعظمنا.....» وتختتم مع انتهاء فقرة، «بل فهيَ واهية للغاية، وعابرة للغاية، ووهمية للغاية». ظهرت هذه النسخة الموسعة من الخطبة لأوَّل مرة في كتاب لسي اس لويس طلبوا للحصول عليه ورقًا (لندن ١٩٦٢)

«هل اللاهوت شعرٌ؟» قرأت في نادي سقراط في جامعة اكسفورد في ٦ نوفمبر ١٩٤٤ ونشر لأوَّل مرة في الموجز السقراطي المجلد الثالث. (١٩٤٥)

كان «الحلقة الداخليَّة» هو «الاحتفال السنوي» الذي تمَّ تقديمه في كليَّة الملك، جامعة لندن، في ١٤ ديسمبر ١٩٤٤. ٧)) تمت قراءة «العضويَّة» في جمعيَّة القديس ألبان والقديس سرجيوس، في أكسفورد، في ١٠ فبراير ١٩٤٥ بدعوة من الآنسة آن سبالدينج، وهيَ صديقة قديمة لتشارلز وليامز، الذي كان في منزل والدي السيدة سبالدينج الذي عاش فيه ويليامز عندما انتقل إلى أكسفورد عند اندلاع الحرب العالميَّة الثانية. نشرت الصحيفة في الأصل في مجلة سوبورنوست، عدد٣١ (يونيو ١٩٤٥)

تمت كتابة «الغفران» بناءً على طلب الأب باتريك كيفن إروين (١٩٠٧-١٩٦٥) وأرسلت إليه في ٢٨ أغسطس ١٩٤٧ لإدراجه في مجلة الأبراشيَّة

www.christianlib.com

الخاصَّة بالأب آروين في كنيسة سانت ماري، سوستون، كامبريد جشير. ومع ذلك، تمَّ نقل الأب اروين إلى كنيسة القديس أوغسطينوس، ويسبتش، قبل أن يتم نشرها، وسمعت لأوَّل مرة عن هذه المقالة في عام ١٩٧٥ عندما قام أفراد عائلة الكاهن بإيداع المخطوطة في مكتبة بودلي. تمَّ نشره لأوَّل مرة في كتاب «بذور السرخس والفيلة» لسي اس لويس والمقالات المسيحيَّة الاخرى (لندن ١٩٧٥)

«زلة لسان» كانت الوعظة الأخيرة لسي اس لويس. تمَّ القاءها بناءً على دعوة من قسيس كليَّة المجدليَّة، كامبريدج، الأب سي أي بيرس، في كنيسة الكليَّة في صلاة المساء في ٢٩ يناير ١٩٥٦. على عكس كليَّة المجدليَّة، أكسفورد، كليَّة كامبريدج صغيرة جدًّا، وكنيسته صغيرة، فقد تبدو جوهرة صغيرة مثاليَّة على ضوء الشموع، هيَ في الواقع صغيرة. ومع ذلك، يكشف السجل الكنسي أنَّه كانت مكتظه بالكثير من الناس - مائة - وقد كانوا يأتون بالمقاعد الاضافيَّة. وقد نُشرت الخطبة في كتاب رسائل خربر (لندن: ١٩٦٥)، حيث كان لويس يساعد الناشر في خطة نشره قبل وفاته.

أنا ممتن لكولنز للنشر للحصول على إذن لإعادة طبع «هل علم اللاهوت شعرٌ؟» و «الغفران» و «زلَّة لسان»، وممتن أيضًا للسيد ساير الذي أعطاني نسخة من «لماذا أنا لست مسالم». أتوجه بالشكر أيضًا إلى أوين بارفيلد لسماحه لي بتحرير هذا الكتاب ولجميع الأشياء الأخرى التي جعلتني أعتبره أحد الأصدقاء الذين، من خلال أي حساب، أحد أبرز مظاهر التفاخر لدينا.

والتر هوبر
٧ مارس ١٩٨٠
أكسفورد

www.christianlib.com

مقدمة الطبعة الأصليَّة للمؤلف سي إس لويس

يحتوي هذا الكتاب على مجموعة خطابات كثيرة مختارة، طُلب مني إلقاءها خلال الحرب الأخيرة والسنوات التي تليها مباشرة. وقد ألّفتها جميعًا استجابة للطلبات الشخصيَّة ولأجل جمهور معيَّن، دون التفكير في النشر بعدها. ونتيجة لذلك، يبدو أنَّ بها بعض التكرار، لكنها كانت نواة لجمل خاصة بي ظهرت مكتوبة بعد حين. عندما طلب مني أنْ أنقِّح هذه المجموعة، كنت أعتقد أنَّني قادرٌ على إزالة مثل هذا التداخل، لكنني كنت مخطئًا. يأتي وقتٌ (ولا يجب أنْ يأتي متأخرًا) عندما ينتمي النصُّ المكتوب إلى الماضي، فالمؤلف نفسه بكل تأكيد لا يستطيع تغييره كثيرًا دون الشعور بأنَّه قد يصنع نوعًا من التزوير. كانت الفترة التي كتبت فيها هذه المقالات، بالنسبة لنا جميعًا، فترة استثنائيَّة؛ ومع أنَّني لا أعتقد أنَّني غيَّرت أي فكرة تجسَّدت في الخطابات، لكني لا أستطيع الآن استحضار النغمات والانفعالات التي كُتِبَت بها. ولن يُرضي هذا العمل الترميمي من أرادوا الحصول على هذه المجموعة في صورة مكتوبة باقية. لذلك، بدى من الأفضل ألّا أجري عليها سوى القليل من التصحيحات اللفظيَّة.

كل الشكر لـ (إس بيه سي كي للنشر) و(إس سي أم للنشر) والمالكين من (سوبورنوست) على تصريحهم الطيب لإعادة طبع «ثقل المَجد» و«التعلم في زمن الحرب» و«العضويَّة». و«الحلقة الداخليَّة» التي تظهر هُنا في هذه الطبعة لأوَّل مرة، وإصدار جديد وهو «التحول» قد كُتب للتعبير عن هذا الغرض، وبعد ذلك تمَّ ترجمته إلى الايطاليَّة، وظهر في (مجلة ميلان).

www.christianlib.com

www.christianlib.com

الفصل الأوَّل
ثِقَلُ المَجدِ

إذا سألت عشرين رجلًا صالحًا اليوم عن اعتقادهم بشأن أسمى الفضائل، فإنَّ تسعة عشر منهم سيجيبون: اللاأنانيَّة. لكن، إذا سألت شخص من المسيحيِّين الأوائل العظام، ستكون إجابته: المحبَّة. هل ترى ما الذي حدث؟ لقد تمَّ استبدال المصطلح السلبيّ بآخر إيجابيّ، وأفضل من مُجرَّد قيمة لغويَّة. إنَّ الفكرة السلبيَّة عن اللاأنانيَّة تحمل في طيَّاتها إيحاءً لا يتعلَّق في المقام الأوَّل بالاحتفاظ بالأشياء الجيدة للآخرين، بل، أنْ أكمل حياتي دون هذه الأشياء، بغض النظر عن إعطاءها إلى آخرين، كما لو كان امتناعي الشخصيّ عنها، وليس سعادة الآخرين، هو الأهم. لا أعتقد أنَّ هذه هيَ فضيلة المحبَّة المسيحيَّة. فإنَّ العهد الجديد يخبرنا كثيرًا عن إنكار الذات، لكن ليس عن إنكار الذات كغاية في حد ذاتها. فقد أخبرنا أنْ ننكر أنفسنا وأنْ نحمل صليبنا لكي نتبع المسيح؛ وكل وصف تقريبًا لما سوف نكتشفه في نهاية الأمر، إنْ فعلناه كما يجب يكون جذَّابًا. إذا كان هُناكَ تربُّصٌ في معظم العقول الحديثة، إذا كانت هُناك فكرة خفيَّة في عقول الناس تقول إنَّ الرغبة في تحقيق الصالح، والتمتُّع به هو أمر سيء، فأرى أنَّ هذه الفكرة قد تسلَّلت من كانط[1] والرواقيَّة[2] وليست جزءًا من الإيمان المسيحيّ. في الواقع، إذا أخذنا في الاعتبار الوعود الصريحة بالمكافأة

---

١ إيمانويل كانط: فيلسوف ألماني من القرن الثامن عشر (١٧٢٤ - ١٨٠٤). كان آخر الفلاسفة المؤثرين في الثقافة الأوروبيَّة الحديثة. وأحد أهم الفلاسفة الذين كتبوا في نظرية المعرفة الكلاسيكيَّة. (المترجم)

٢ الرواقيَّة: هي مدرسة فلسفيَّة تأسست في أثينا من قبل زينون الرواقي في أوائل القرن الثالث قبل الميلاد. ويعتقد الرواقيون بشكل أساسي أنَّ العواطف ناجمة عن أخطاء في الحكم وأنَّ أي إنسان حكيم أو شخص يملكُ «الكمال الأخلاقي والفكري» لن يعاني من مثل هذه المشاعر. (المترجم)

www.christianlib.com

والطبيعة المذهلة للمكافآت الموعود بها في الأناجيل، فسيبدو أنَّ الله سيجد رغباتنا ليست قويَّة للغاية، لكنها ضعيفة للغاية. نحن مخلوقات فاترة تفتقر إلى الحماسة، نهدر وقتنا في السكر، والجنس، والطموح، بينما يُعرض علينا فرحٌ لا حصر له، مثل طفل جاهل يريد الاستمرار في صنع الفطائر الطينيَّة في الأحياء الفقيرة لأنَّه لا يستطيع أنْ يتخيَّل معنى العرض بقضاء عطلة على البحر. نحن راضون بأقل القليل.

يجب ألَّا نشعر بالانزعاج من غير المؤمنين عندما يقولون إنَّ وعد المكافآة هذا يجعل الحياة المسيحيَّة شبيهة بالنفعيَّة. وهُناك أنواع مختلفة من المكافآت. هُناك المكافأة التي ليس لها علاقة طبيعيَّة بالأشياء التي تقوم بها لنوال المكافآة، وهيَ غريبة تمامًا عن الرغبات التي يجب أنْ تصاحب تلك الأشياء. المال ليس المكافآة الطبيعيَّة للحبِّ. هذا هو السبُّب في أنَّنا نسمي رجلًا ما نفعيًّا إذا تزوج امرأة من أجل مالها. لكن الزواج هو المكافآة المناسبة لحبيب حقيقيٍّ، ولن يكون نفعيًّا إنْ رغب في الزواج. فالجنرال الذي يُحارب بشكل جيد من أجل الحصول على رتبة هو المرتزق؛ أمَّا الجنرال الذي يُناضل من أجل النصر ليس كذلك، فالنصر هو المكافآة المناسبة للمعركة كما أنَّ الزواج هو مكافآة الحبِّ الصحيحة. المكافآت المناسبة ليست مرتبطة فقط بالعمل الذي مُنحَت لأجله، لكنَّها اكتمال العمل نفسه. هُناك أيضًا حالة ثالثة، وهيَ أكثر تعقيدًا. إنَّ الاستمتاع بالشعر اليونانيِّ هو بالتأكيد مكافآة مناسبة وليست نفعيَّة لتعلُّم اللغة اليونانيَّة؛ لكن فقط أولئك الذين وصلوا إلى مرحلة الاستمتاع بالشعر اليونانيِّ يمكنهم أنْ يخبروا من خلال تجربتهم الخاصَّة بصحة هذا الأمر. لا يستطيع التلميذ الذي يبدأ في تعلُّم قواعد اللغة اليونانيَّة أنْ يتطلَّع إلى الاستمتاع كرجل بالغ بشعر سوفوكليس[٣]، كما يتطلَّع الحبيب إلى الزواج أو جنرال إلى النصر. عليه أنْ يبدأ العمل من أجل الدرجات الدراسيَّة، أو الهروب من العقوبة، أو إرضاءً لوالديه، أو في أحسن الأحوال، على أمل الخير في المستقبل الذي لا

٣ سوفوكليس: روائي ومسرحي يوناني ولد حوالي سنة ٤٩٦ ق.م في أثينا وتوفي سنة ٤٠٥ ق.م. أحد أعظم ثلاثة كُتَّاب تراجيديا إغريقيَّة. (المترجم)

www.christianlib.com

يُمكن أنْ يتخيَّله أو يرغب فيه في الوقت الحالي. لذلك، فإنَّ موقفه يشبه إلى حدٍّ ما موقف النفعي؛ لأن المكافآة التي سيحصل عليها ستكون في الواقع، مكافآة طبيعيَّة أو مناسبة، لكنه لن يعرف ذلك حتَّى يحصل عليها. بالطبع، هو سيحصل عليها تدريجيًا؛ فالمتعة ستضغى تدريجيًّا على مشقة العمل، ولا يمكن لأحد أنْ يشير إلى يوم أو ساعة عندما تتوقَّف المشقة وتبدأ المتعة. لكنه فقط بقدر ما يقترب من المكافآة يصبح قادرًا على الرغبة فيها لذاتها؛ في الواقع قوَّة الرغبة في ذلك -هيَ في حد ذاتها- مكافآة أوليَّة.

إنَّ المسيحيَّ فيما يتعلَّق بالسماء، يشبه كثيرًا موقف تلميذ المدرسة السابق ذكره، أولئك الذين وصلوا للحياة الأبديَّة، وفي محضر الله، يعلمون جيدًا أنَّها ليست مجرَّد رشوَة، لكن تحقيقًا لاكتمال تلمذتهم الأرضيَّة. لكن، نحن الذين لم نصل إليها بعد، لا يمكننا أنْ نختبر هذا بنفس الطريقة، ولا يمكننا حتَّى البدء في معرفة ذلك على الإطلاق، إلَّا من خلال الاستمرار في الطاعة والعثور على المكافآة الأولى من طاعتنا في قدرتنا المتزايدة على الرغبة في المكافآة النهائيَّة. وكلما زادت الرغبة، تبدَّد خوفنا من أنْ تكون رغبةً نفعيَّة، ومن أنْ يتبيَّن في النهاية أنَّها سذاجة. لكن ربَّما لن يحدث هذا، بالنسبة لمعظمنا، في يوم واحد؛ التمتُّع بالشِعر يحلُّ محل القواعد اللغويَّة، الإنجيل يحلُّ محل الناموس، والشوق يحوِّل الطاعة، كل هذا يحدث تدريجيًّا كما يرفع المد سفينة من على الأرض.

لكن، هُناك تشابهٌ مهمٌ آخر بين تلميذ المدرسة وأنفسنا. إذا كان التلميذ يمتلك خيالًا واسعًا، فمن المحتمل جدًّا أنْ ينغمس في قراءة الشعراء والرومانسيِّين الإنجليز المناسبين لعمره بعض الوقت قبل أنْ يبدأ في الاعتقاد بأنَّ القواعد اليونانيَّة ستقوده إلى المزيد والمزيد من المتعة من هذا النوع. ربَّما كان يهمل لغته اليونانيَّة لقراءة شيلي[٤] وسوينبرن[٥] سرًّا. وبعبارة أخرى، فإنَّ

٤ بيرسي بيش شيلي (١٧٩٢:١٨٢٢) شاعر إنجليزي رومانتيكي، يعتبر واحدًا من أفضل الشعراء الغنائيين باللغة الإنكليزية. يُعرف بقصائده القصيرة أوزيانديباس، أغنية للريح الغربية. (المترجم)

٥ ألغيرنون تشارلز سوينبورن: (١٨٣٧ - ١٩٠٩) هو شاعر وكاتب من المملكة المتحدة ولد في لندن. (المترجم)

www.christianlib.com

الرغبة التي ستشبعها اليونانيَّة حقًّا موجودة بالفعل فيه ومرتبطة بأشياء تبدو غير مرتبطة تمامًا بالشاعر إكسينوفان[٦] والأفعال الموجودة في [اليونانيَّة] الآن، إذا كنَّا خُلقنا من أجل السماء، فإنَّ الرغبة في الحصول على مكاننا الصحيح ستكون بالفعل فينا، لكنها غير مرتبطة بعد بالغرض الحقيقيِّ، وسوف تظهر على أنَّها مزاحم لهذا الغرض. وهذا، في اعتقادي، هو ما نكتشفه. لا شك أنَّ هُناك نقطة واحدة تنهار فيها صورة وتشبيه تلميذ المدرسة. قد يكون الشعر الإنجليزي الذي يقرأه عندما يتعيَّن عليه القيام بالتدريبات اليونانيَّة بنفس جودة الشعر اليوناني الذي تقوده إليه التدريبات، لذلك فإنَّ اختياره لميلتون[٧] بدلًا إسخيلوس[٨] لن تكون رغبته متعلقة بهدف زائف. لكن، وضعنا مختلفة جدًّا. إذا كان الخير اللانهائيُّ، والسرمديُّ هو مصيرنا الحقيقيُّ، فإنَّ أي خير آخر يجب أنْ تكون رغبتنا فيه تحمل درجة من المغالطة، يجب ألَّا يحمل في أفضل الأحوال سوى علاقة رمزيَّة مع ما يشبع حقًّا.

عند الحديث عن هذه الرغبة في بلدنا بعيد المنال، والذي نجده في داخلنا حتَّى الآن، أشعر ببعض الاستحياء، أنَّني أكاد ارتكب خطيئة، أحاول أنْ أفتح سرًّا لا يطاق في كل واحد منكم - السرّ الذي يؤلمكم كثيرًا لدرجة تجعلكم تنتقمون منه بتسميته أسماءً، مثل: الحنين إلى الماضي، والرومانسيَّة، والمراهقة. السرّ أيضًا الذي يخترق بعذوبة حيث يصير ذكره وشيكًا في حديث حميم، فإنَّنا نشعر بالحرج ونميل إلى السخرية من أنفسنا. السرُّ الذي لا يمكن أنْ نخفيه ولا يمكن أنْ نتكلم عنه، رغم أنَّنا نرغب في القيام بالأمرين معًا لا يمكننا أنْ نتكلم عنه لأنَّها رغبة في شيء ما لم يظهر فعلًا في واقعنا. لا يمكننا إخفاؤه لأن واقعنا يوحي به باستمرار، ويفتضح أمرنا كما يفتضح أمر العاشقين حين يُذكر

---

٦ كسينوفون: ولد تقريبا عام ٤٣٠ تقريبا ق.م - توفي ٣٥٤ ق.م هو فيلسوف يوناني قديم ومؤرخ وجندي مرتزق وكان أحد طلاب سقراط. (المترجم)

٧ جون ميلتون: (١٦٠٨:١٦٧٤) شاعر وعالم إنجليزي من القرن ١٧، يُعرف بقصيدة «الفردوس المفقود» التي كتبها في عام ١٦٦٧ يعتبر جون ميلتون من أبرز شعراء الأدب الإنجليزي. (المترجم)

٨ إسخيلوس: (٥٢٥ ق.م - ٤٥٦ ق.م.) روائي مسرحي تراجيدي يوناني. (المترجم)

www.christianlib.com

اسم معشوقهم. الأكثر ملائمة لدينا هو أنْ نسميها الجمال والتصرُّف كما لو أنَّ هذا قد حسم الأمر.

كانت حيلة وردزورث[9] هو التعرف عليه بلحظات معينة في ماضيه. لكن كل هذا خداع. إذا كان وردزورث قد عاد إلى تلك اللحظات في الماضي، لم يجد الشيء نفسه، لكن للتذكير به فقط؛ ما يتذكره سوف يتحول إلى نفس الشيء. الكتب أو الموسيقى التي اعتقدنا أنَّ جمالها سوف يخدعنا إذا وثقنا بها؛ لم يكن كذلك، بل جاء من خلالهم فقط، وما جاء من خلالهم كان شوقًا. هذه الأشياء - الجمال، ذكريات الماضي - هيَ صور جيدة لما نريده حقًا؛ لكن إذا أخطئوا في الأمر نفسه، فإنَّهم يتحولون إلى أصنام غبية، يكسرون قلوب عبادهم. لأنهم ليسوا الشيء نفسه؛ إنَّها فقط رائحة زهرة لم نعثر عليها، صدى نغمة لم نسمعها، أخبار من بلد لم نزورها بعد. هل تعتقد أنَّني أحاول أنْ أنسج تعويذة؟ ربَّما أكون كذلك، لكن تذكر قصصك الخياليَّة. يتم استخدام التعاويذ لفك الأسحار وكذلك للتحريض عليهم. وأنت وأنا بحاجة إلى أقوى تعويذة يمكن العثور عليها لإيقاظنا من السحر الشرير للدنيويَّة التي وضعت علينا منذ ما يقرب من مائة عام. لقد تمَّ توجيه تعليمنا بالكامل تقريبًا لإسكات هذا الصوت الداخلي الخجول المستمر. لقد تمَّ ابتكار كل فلسفاتنا الحديثة تقريبًا لإقناعنا بأنَّ خير الإنسان هو أنْ يكون موجودًا على هذه الأرض. ومع ذلك، فإنَّ الأمر المذهل هو أنَّ مثل هذه الفلسفات للتقدم والتطور الخلاق بحد ذاتها تشهد على أنَّ هدفنا الحقيقي هو في مكان أخر. فعندما يريدون إقناعك بأنَّ الأرض هيَ وطنك * لاحظ كيف بدأوا في ذلك. إنَّهم يبدأون بمحاولة إقناعكم بأنَّ الأرض يمكن أنْ تتحول إلى السماء، وبالتالي يقدمون رشوة لإحساسك بأنك في منفى على الأرض. بعد ذلك، يخبرونك أنَّ هذا الحدث السعيد ما يزال طريقة جيدة للمستقبل، وبالتالي يقدمون رشوة لمعرفتك بأنَّ الوطن الأم ليس هُنا والآن. أخيرًا، خشية أنْ يوقظك شوقك لما هو وراء الزمني وتفسد الأمر برمته، فهم يستخدمون أي خطاب يلجأوا إليه لإبعاد ذهنك عن التذكر أنَّه

---

٩ ويليام وردزورث: (١٧٧٠: ١٨٥٠ م) شاعر إنجليزي. (المترجم)

www.christianlib.com

حتَّى لو كانت كل السعادة التي وعدوا بها يمكن أنْ تأتي للإنسان على وجه الأرض، كل جيل سيفقده بالموت، بما في ذلك الجيل الأخير من الجميع، والقصة كلها لن تكون شيئًا، ولا حتَّى قصة، إلى أبد الآبدين. ومن ثم، فإنَّ كل هذا الهراء الذي وضعه السيد شو[١٠] في المقال الأخير إلى ليليث[١١]، وملاحظة برجسون[١٢] بأنَّ قوة الخلق[١٣] قادرة على التغلب علىٰ جميع العقبات، وربَّما حتَّى الموت كما لو كنَّا نعتقد أنَّ أي تطور اجتماعي أو بيولوجي على هذا الكوكب سيؤخر خرف الشمس[١٤] أو يعكس القانون الثاني للديناميكا الحراريَّة.

افعلوا ما تريدون، لكننا سنظلُّ مدركين للرغبة التي لا تشبعها السعادة الطبيعيَّة. لكن هل هُناك أي سبب نفترضه بأنَّ الواقع قد يقدم أي إشباع له؟ «كما أنَّ الجوع لا يثبت أنَّه لدينا خبزًا.» لكنني أعتقد أنَّه قد يخطئ في هذا الأمر. الجوع الجسدي للرجل لا يثبت أنَّ الرجل سيحصل على أي خبز؛ قد يموت من الجوع على طوافة في المحيط الأطلنطي. لكن من المؤكد أنَّ جوع الرجل يثبت أنَّه قد جاء من سباق ويحتاج إلى تجديد طاقة جسده عن طريق الأكل

---

١٠ جورج برنارد شو: (١٨٥٦-١٩٥٠ م) مؤلف أيرلندي شهير ألَّف ما يزيد عن ستين مسرحية خلال سنين مهنته كان أحد مفكري ومؤسسي الاشتراكيَّة الفابية، كانت تشغله نظرية التطور يعد أحد أشهر الكتاب المسرحيين في العالم وحائز على جائزة نوبل في الأدب عام ١٩٢٥ م. (المترجم)

١١ العودة إلى موتشالح: هو كتاب ألَّفه جورج برنارد شو وذكر في أخر هذا الكتاب مقال إلى ليليث (ظهرت شخصيَّة ليليث للمرة الأولى كشيطان أو روح مرتبطة بالرياح والعواصف، عُرفت باسم ليليتو في سومر، حوالي ٣٠٠٠ ق.م. تظهر ليليث في المعارف اليهوديَّة باعتبارها شيطان الليل، وكبومة نائحة في طبعة الكتاب المقدَّس الملك جيمس). (المترجم)

١٢ هنري برجسون (١٩٤١-١٨٥٩م) فيلسوف فرنسي حصل على جائزة نوبل للآداب عام ١٩٢٧ يعتبر هنري برغسون من أهم الفلاسفة في العصر الحديث. (المترجم)

١٣ قوة الخلق (Elan vital): هو مصطلح صاغه الفيلسوف الفرنسي هنري برجسون في كتابه التطور الخلاق المنشور عام ١٩٠٧، حيث يطرح سؤال النشأة الذاتيَّة والتشكيل العفوي للأشياء في طريقة تزداد تعقيدًا. (المترجم)

١٤ متلازمة غروب الشمس: هي متلازمة أو ظاهرة نفسيَّة وسلوكيَّة مشهورة في كبار السن حيث يحدث فيها زيادة في أعراض الهذيان وفرط النشاط وربَّما الهلاوس في بعض المرضى الذين يعانون من أي شكل من أشكال الخرف، وهي أكثر شيوعًا في مرض الزهايمر. (المترجم)

www.christianlib.com

حيث يسكن في العالم الذي توجد فيه المواد القابلة للأكل. بنفس الطريقة، على الرغم من أنَّني لا أؤمن (أتمنى لو فعلت ذلك) أنَّ رغبتي في الجنة تثبت أنَّني سأستمتع بها، أعتقد أنَّها إشارة جيدة إلى أنَّ مثل هذا الشيء موجود. قد يحب الرجل امرأة ولا يفوز بها؛ لكن سيكون من الغريب جدًّا أنْ تحدث هذه الظاهرة المسماة «الوقوع في الحب» في عالم بلا جنس.

هنا، إذن، هيَ الرغبة، التي ما زالت تتجول وغير مؤكدة على هدفها ولا تزال غير قادرة إلى حد كبير على رؤية ذلك الهدف في الاتجاه الذي يكمن فيه. تعطينا كتبنا المقدَّسة بعض الشيء عن هذا الهدف. أنَّه بالطبع، حسابٌ رمزيٌّ. فالسماء، بحكم تعريفها، خارج تجربتنا، لكن يجب أنْ تكون جميع الأوصاف للأشياء التي ندركها بالعقل ضمن تجربتنا. وبالتالي فإنَّ الصورة الكتابيَّة للسماء رمزيَّة تمامًا مثل الصورة التي تخترعها رغبتنا، دون مساعدة، لنفسها؛ لم تعد الجنة مليئة بالمجوهرات أكثر من جمال الطبيعة أو الموسيقى الرائعة. الفرق هو أنَّ الصور الكتابيَّة لها سُلطة. قد جاءت إلينا من كُتَّاب أقرب إلى الله منَّا، وقد صمدت أمام اختبار التجربة المسيحيَّة على مر القرون. إنَّ النداء الطبيعي لهذه الصورة الموثوقة بالنسبة لي، في البداية كان صغيرًا جدًّا. للوهلة الأولى كانت جفوة، بدلًا من أنْ تُيقظ رغبتي. وهذا ما يجب أنْ أتوقعه بالضبط. إذا لم تستطع المسيحيَّة أنْ تخبرني بالأرض البعيدة أكثر مما قادني مزاجي إلى التخمين به بالفعل، فلن تكون المسيحيَّة أسمى مني. إذا كان لديها المزيد لتقدمه لي، فأنا أتوقع أنْ تكون جذابة على الفور من «أشيائي الخاصَّة». سوفوكليس في البداية يبدو مملًا وباردًا للصبي الذي وصل إلى شيلي فقط. إذا كان ديننا شيئًا موضوعيًا، فلا يجب علينا أبدًا أنْ نحول أعيننا عن تلك الأشياء التي تبدو محيرة أو منفرة؛ لأنه بالتحديد سيكون الشيء المحير أو المنفر هو الذي يخفي ما لا نعرفه بعد، ونحتاج إلى معرفته.

يمكن تقليص وعود الكتاب المُقدَّس تقريبًا إلى خمسة وعود رئيسة. لقد وعدنا بأنْ نكون مع المسيح؛ إنَّنا سنكون مثله؛ سيكون لنا «المجد»؛ سنكون مشبعين أو فرحين أو مرحبين بطريقة ما سيكون لدينا نوع ما من

www.christianlib.com

المكانة الرسميَّة في الكون - كحكم المدن، وحكم الملائكة، كأعمدة معبد الله. السؤال الأوَّل الذي أطرحه حول هذه الوعود هو «أي واحد منهم باستثناء الوعد الأوَّل؟» يمكنه إضافة أي شيء إلى مفهوم الوجود مع المسيح؟ لكي يكون صحيحًا، كما يقول كاتبٌ عجوز، من لديه الله وكل شيء أخر، ليس لديه أكثر من الذي لديه الله فقط. أعتقد أنَّ الجواب يتحول مرة أخرى إلى طبيعة الرموز. على الرغم من أنَّه قد يهرب من نظرتنا للوهلة الأولى، إلا أنَّه صحيح أنَّ أي تصور للوجود مع المسيح يمكن لمعظمنا أنْ يتشكل الآن لن يكون أقل رمزيَّة بكثير من الوعود الأخرى؛ لأنه سوف يهرب أفكار التقرب في المسافة والمحادثة المحببة كما نفهمها الآن، وربَّما يركز على إنسانيَّة المسيح لاستبعاد إلوهيته. في الواقع، نجد أنَّ هؤلاء المسيحيِّين الذين يهتمون فقط بالوعد الأوَّل الممتلئ دائمًا بصورة أرضيَّة - في الواقع، هيَ صورة شهوانيَّة أو مثيرة. أنا لست للحظة أدين هذه الصورة. أتمنى من كل قلبي أنْ أتمكن من الدخول إليها بعمق أكبر مما أقوم به، وأدعو الله أنْ أفعل ذلك. لكن من وجهة نظري أنَّ هذا ليس سوى رمز، يشبه الحقيقة في بعض النواحي، لكن على عكس ذلك في حالات أخرى، وبالتالي يحتاج إلى تصحيح مختلف الرموز في الوعود الأخرى. اختلاف الوعود لا يعني أنَّ أي شيء آخر غير الله سيكون النعيم الأبدي. لكن لأن الله أكثر من شخص، وخوفًا أنْ نتخيل أنَّ فرحة حضوره بشكل حصري للغاية تتعلق بتجربتنا السيئة الحالية للحب الشخصي، بكل ضيقها وإرهاقها ورتابتها، فهُناك عشرات الصور المتغيرة يتم توفيرها، تصحح وتخفف بعضها البعض.

أنتقل إلى الفكرة الأخرى وهيَ المجد. لا يوجد مفر من حقيقة أنَّ هذه الفكرة بارزة للغاية في العهد الجديد وفي الكتابات المسيحيَّة المبكرة. حيث يرتبط الخلاص باستمرار بسعف النخيل، والتيجان، والثياب البيض، والعروش، والروعة مثل الشمس والنجوم. كل هذا لا يمثل أي إغراء فوري لي على الإطلاق، وفي هذا الصدد، أنا أتوهم أنَّني شخصٌ حديثٌ مثالي. يوحي المجد لي بفكرتين، يبدو إحدهما شرير والآخر مثير للسخريَّة. أما أنَّ المجد يعني لي الشهرة، أو يعني لي اللمعان. بالنسبة إلى الأوَّل، معنى أنْ تكون

www.christianlib.com

مشهورًا هو أنْ تكون معروفًا أكثر من الآخرين، إنَّ الرغبة في الشهرة تبدو لي شغفًا تنافسيًا وبالتالي سيكون هذا هو الجحيم وليس السماء. بالنسبة إلى الثاني، فمن منَّا يرغب أنْ يصبح نوعًا من اللمضة الكهربائيَّة الحيَّة؟!

عندما بدأت أنظر في هذا الأمر، شعرت بالصدمة لما وجدته من مسيحيِّين مختلفين مثل ميلتون[١٥] وجونسون[١٦] وتوما الإكويني[١٧] يأخذون المجد السماوي بكل صراحة بمعنى الشهرة أو السمعة الجيدة. لكن ليس الشهرة التي يمنحها إياها أخواننا، هيَ الشهرة مع الله، أنَّه الاستحسان أو (قد أقول) «التقدير» من قِبَل الله. وبعد ذلك، عندما فكرت في الأمر أكثر من ذلك، وجدت أنَّ هذا الرأي كان كتابيًا؛ لا شيء يُمْكِنُ أنْ يَحْذفَ التكريم الإلهي في المثل «نعمًا، أيها العبد الصالح والأمين». مع ذلك، سقط قدرٌ كبيرٌ مما كنتَ أفكر به طوال حياتي مثل منزل البطاقات. تذكرت فجأة أنَّه لا يمكن لأحد أنْ يدخل السماء إلَّا كطفل؛ ولا يوجد شيء واضح أكثر من الطفل - فلا يوجد طفل مغرور، لكن يوجَد طفل جيد - فعندما يتم مدحه ستكون سعادته عظيمة وواضحة. ليس فقط في الطفل، لكن أيضًا في الكلب أو الحصان. على ما يبدو أنَّني كنت مخطئًا في فهم التواضع، طوال هذه السنوات، ما منعني من فهم ذلك هو في الواقع الشيء الأكثر تواضعًا، والأكثر طفولةً، والأكثر إبداعًا من الملذات: خاصة الملذات المتدنية: المتعة الحيوانيَّة قبل الإنسانيَّة، الطفل قبل أبيه، التلميذ قبل معلمه، المخلوق قبل خالقه. أنا لا أنسى كيف أنَّ هذه الرغبة البريئة مرعبة في طموحاتنا الإنسانيَّة، أو كيف بسرعة كبيرة، -في تجربتي الخاصَّة- أنَّ المتعة القانونيَّة للثناء من أولئك الذين كان من واجبي إرضاءهم يتحول إلى سم قاتل

---

١٥ جون ميلتون: (١٦٠٨- ١٦٧٤) شاعر وعالم إنجليزي من القرن ١٧، يُعرف بقصيدة «الفردوس المفقود» التي كتبها في عام ١٦٦٧ يعتبر جون ميلتون من أبرز شعراء الأدب الإنجليزي. (المترجم)

١٦ صمويل جونسون: (١٧٠٩- ١٧٨٤) أديب وكاتب وناقد وشاعر بريطاني له إسهامات هامة في الأدب الإنجليزي. (المترجم)

١٧ توما الإكويني: (١٢٢٥- ١٢٧٤) قديس كاثوليكي إيطالي من الرهبنة الدومينيكانيَّة، وفيلسوف ولاهوتي مؤثر له تأثير كبير على الفلسفة الغربيَّة. (المترجم)

www.christianlib.com

للإعجاب بالنفس. لكنني ظننت أنَّني أستطيع اكتشاف ذلك للحظة -للحظة قصيرة جدًّا جدًّا- قبل حدوثه، كان خلالها الشعور بالرضا عن سرور أولئك الذين أحببتهم حقًا وخشيتهم حقًا طاهرًا. وهذا يكفي لرفع أفكارنا لما قد يحدث عندما تعتق الروح، بعد كل أمل وتقريبًا لا يصدق، تعلمت أخيرًا أنَّها قد أسعدت من خُلقت لإسعاده. لن يكون هُناك مجال للغرور بعد ذلك. ستكون خالية من الوهم البائس الذي تقوم به. مع عدم وجود أي وصمة عار لما يجب أنْ نسميه الآن استحسان الذات، سوف تفرح ببراءة شديدة في الشيء الذي صنعه الله لها، واللحظة التي تُشفى فيها عقدة النقص القديمة إلى الأبد سوف تحجب فخرها أعمق من كتاب بروسبيرو[١٨]. الاتضاع المثالي يستغني عن الاحتشام. إذا كان الله راضيًا عن العمل، فقد يكون العمل راضيًا عن نفسه «لا يمكن لها أنْ تتبادل التحيات بالسفرن[١٩].» أستطيع أنْ أتخيل شخصًا يقول إنَّه يكره فكرتي عن الجنة كمكان يربت فيه على ظهرنا، لكن سوء فهم الفخر هو السبب وراء هذه الكراهيَّة. في النهاية يجب أنْ يتحول هذا الوجه المبهج أو المرعب من الكون إلى كل واحد منَّا إما مع تعبير واحد أو غير ذلك، إنَّ منح المجد إما لا يمكن تفسيره أو إلحاق الخزي به حيث لا يمكن علاجه أو إخفاءه. قرأت في نشرة دوريَّة عن اليوم الآخر أنَّ الشيء الأساسي هو كيف نفكر بالله. الله نفسه، وليس كيف يفكر الله فينا ليس فقط بأهميَّة كثيرة، لكنه أهميَّة كثيرة بلا حدود. في الواقع، كيف نفكر به ليس له أهميَّة إلَّا بقدر ما يتعلق بكيفيَّة تفكيرنا. مكتوب أنَّنا يجب أنْ «نقف أمامه» سيكشفنا وسيفحصنا. وعد المجد هو الوعد الذي يكاد لا يصدق ولا يمكن تحقيقه إلَّا من خلال عمل المسيح، أنَّ بعضًا منَّا، أيًا منَّا سيختاره حقًا، سينجو بالفعل من هذا الفحص، وسيحصل على موافقة، وسيسعد الله. لإرضاء الله... لكي تكون عنصرًا حقيقيًا في السعادة الإلهيَّة... لكي تكون محبوبًا من قِبَل الله، ليس فقط من الشفقة، لكن من دواعي سرور الفنان أنْ يسعد بعمله أو الأب بابنه. إنَّ

١٨ كتب بروسبيرو: هي قصة معقدة تستند إلى كتاب «العاصفة» لويليام شكسبير. ميراندا، ابنة بروسبيرو، الساحر المنفي، تقع في حب فرديناند، نجل عدوه. (المترجم)

١٩ السفرن: جنية إنجليزي ذهبي. (المترجم)

www.christianlib.com

وزن أو عبء المجد الذي يمكن لأفكارنا بالكاد أنْ تحمله، يبدو مستحيلًا. لكنه هكذا.

الآن لاحظ ما يحدث. إذا كنت قد رفضت الصورة الموثوقه والكتابيَّة للمجد وتمسكت بعناد بالرغبة الغامضة التي كانت، في البداية، سيكون مؤشري الوحيد إلى السَّماء، لم أرَ على الإطلاق أي علاقة بين تلك الرغبة والوعد المسيحي. لكن الآن، بعد متابعتي لما يبدو محير ومنفر في الكتب المقدَّسة، يا لدهشتي الكبيرة، عندما فكرت في هذه العلاقة، وجدت أنَّها واضحة تمامًا. فالمجد، كما علمتني المسيحيَّة أنْ آمل ذلك، سوف يتضح لتلبية رغبتي الأصليَّة وسيكشف عن عنصر في هذه الرغبة لم ألاحظه بعد. بالتوقف للحظة عن التفكير في رغباتي، بدأت أتعلم بشكل أفضل ما احتاجه حقًا. عندما حاولت، منذ بضع دقائق، أنْ أصف أشواقنا الروحيَّة، كنت أغفل واحدة من أكثر خصائصها الفضوليَّة. نلاحظ ذلك عادةً مع انتهاء لحظة الرؤية، أو عند انتهاء الموسيقى، أو عندما يفقد المشهد الطبيعي الضوء السماوي. ما نشعر به آنذاك قد وصفه كيتس[٢٠] جيدًا بأنَّه «رحلة منزليَّة إلى مكان اعتياد النفس». أنت تعرف ماذا أقصد. لبضع دقائق كان لدينا وهم الانتماء إلى هذا العالم. الآن نستيقظ لنجد أنَّه لا يوجد شيء من هذا القبيل. لقد كنَّا مجرد مشاهدين. لقد ابتسم الجمال، لكن ليس ليُرحب بنا؛ لقد تمَّ تحويل وجهه في اتجاهنا، لكن ليس لرؤيتنا. لم يتم قبولنا أو الترحيب بنا أو مشاركتنا في الرقص. فقد نذهب عندما نشاء أو يمكننا البقاء إذا استطعنا: «لا أحد يصادفنا». قد يجيب أحد العلماء نظرًا لأن معظم الأشياء التي نسميها جميلة جامدة، فليس من المدهش ألا يلاحظوا منَّا هذا. بالطبع، صحيح. ليست الأشياء الماديَّة التي أتحدث عنها، لكن هذا الشيء الذي لا يوصف والذي أصبح للحظة رسلًا. وجزء من المرارة الذي تمتزج مع حلاوة تلك الرسالة يرجع إلى حقيقة أنَّه يبدو نادرًا جدًا كون الرسالة موجهة إلينا، لكن بالأحرى شيئًا قد سمعناه. مرارة أقصد بها الألم،

---

٢٠ جون كيتس: (١٧٩٥- ١٨٢١) شاعر إنجليزي أصبح واحدًا من شعراء الحركة الرومانتيكيَّة الإنجليزيَّة المهمين في مطلع القرن التاسع عشر. (المترجم)

www.christianlib.com

وليس الاستياء. لا ينبغي أنْ نجرؤ على طلب أخذ أي إشعار على أنفسنا، لكننا نشتاق لهذا الإحساس. بأنَّنا نعامل في هذا الكون كغرباء، الشوق الذي يجب الاعتراف به، والوفاء في بعض الرد، لسد الهوة التي تتثاءب بيننا وبين الواقع، هو جزء من سرنا الذي لا عزاء له. وبالتأكيد، من خلال وجهة النظر هذه، وعد المجد، بالمعنى الموصوف، يصبح وثيق الصلة برغبتنا العميقة. فإنَّ المجد يعني سمعة جيدة مع الله، والقبول من الله، والاستجابة، والتسليم، والترحيب بكم في قلب الأشياء. الباب الذي كنَّا نطرقه طوال حياتنا سيفتح أخيرًا.

قد يبدو من غير المنطقي وصف المجد بأنَّه حقيقة «ملاحظة» من قِبَل الله. لكن هذه تقريبًا هيَ لغة العهد الجديد. يقدم القديس بولس وعدًا إلى أولئك الذين يحبون الله، ليس كما نتوقعه، أنْ يعرفوه، لكنهم سيُعرفون به (١ كو ٨: ٣). إنَّه وعدٌ غريبٌ. ألا يعلم الله كل الأشياء في كل الأوقات؟ لكن يتم تكرارها بشكل مخيف في مقطع آخر من العهد الجديد. هُناك حيث تمَّ تحذيرنا لما قد يحدث لأي شخص منَّا عندما يقف أخيرًا أمام وجه الله ويسمع فقط هذه الكلمات المروعة، «إني لم أعرفك قط. اذهب عني». بمعنى ما، وبقدر ما يكون الظلام مظلمًا للعقل لأنه لا يحتمل المشاعر، يمكننا أنْ نُطرد من حضور الشخص الذي يوجد في كل مكان ونُمحى من معرفة الشخص الذي يعرف كل شيء. يمكن أنْ نُترك في الخارج تمامًا وبصورة مطلقة، منفيين، ومنفصلين، وأخيرًا متجاهلين. من ناحية أخرى، يمكن استدعاؤنا والترحيب بنا واستقبالنا والاعتراف بنا. فنحن نسير كل يوم على حد الشفرة بين هذين الاحتمالين المذهلين. على ما يبدو، إنَّ حنيننا مدّى الحياة، لدينا الشوق إلى لم الشمل مع شيء ما في الكون حيث نشعر الآن بأنَّه مقطوع، لنكون داخل الباب الذي رأيناه دائمًا من الخارج، ليس مجرد نزوة عصبيَّة، لكنه مؤشر حقيقي لوضعنا الحقيقي. ولكي يتم استدعاؤك في الداخل سيكون مجدًا وشرفًا يتجاوز كل فضائلنا وأيضًا شفاء لكل تلك الآلام القديمة.

وهذا يقودني إلى المعنى الآخر للمجد - المجد كالسطوع والروعة

www.christianlib.com

والإشراق. علينا أنْ نشرق كالشمس، ونلمع كنجم الصباح[٢١]. أعتقد أنّني بدأت أرى ما يقصده. وبطريقة ما، بالطبع، لقد أعطانا الله «نجمة الصباح» بالفعل: يمكنك الذهاب والاستمتاع بهذه العطيَّة في العديد من الأصباح الجميلة إذا استيقظت مبكرًا. قد تسأل، هل نريد أكثر من ذلك؟ نعم، نحن نريد أكثر من ذلك بكثير - بشيء ما لا تهتم به كتب الأستاطيقا[٢٢]. لكن الشعراء والأساطير يعرفون كل شيء عنها. نحن لا نريد فقط أنْ نرى الجمال، على الرغم من أنَّ الله يعرف، أنَّ هذا يكفي. نحن نريد شيئًا آخر بالكاد يمكن وضعه في كلمات - أنْ نتحد مع الجمال الذي نراه، وننتقل إليه، ونستقبله في أنفسنا، ونسبح فيه، ونصبح جزءًا منه.

لهذا السبب لدينا الهواء والأرض والماء المأهولة بالآلهة والإلهات[٢٣] والحوريات[٢٤] والجان - رغم أنّنا لا نستطيع ذلك، إلّا أنَّ هذه التوقعات يمكن أنْ تتمتع في حد ذاتها بالجمال والنعمة والقوة التي تصورها الطبيعة. لهذا السبب يخبرنا الشعراء بمثل هذه الأكاذيب الجميلة. يتحدثون كما لو أنَّ الريح الغربيَّة يمكنها أنْ تكتسح حقًا روحًا بشريَّة؛ لكنها لا تستطيع. يخبروننا أنَّ «الجمال قد يولد من صوت حفيف الرياح» وسوف ينتقل إلى الوجه الإنساني؛ لكنها لن تفعل ذلك. أو ليس الآن. لأنه إذا أخذنا صور الكتاب المقدَّس على محمل الجد، إذا كنَّا نعتقد أنَّ الله سيمنحنا يومًا ما نجمة الصباح ونكون كروعة الشمس في إشراقه، فعندئذ قد نتوقع أنَّ كل الأساطير القديمة والشِعر الحديث، كاذبة

---

٢١ نجمة الصباح (the morning star) يقصد به كوكب الزهرة، حيث اشتهر كوكب الزهرة بهذا اللقب، وهو نجمة الصباح والمساء عند قدماء اليونان، وهو اسم إلهة الجمال عندهم، وذلك للمعانه الملفت جدًا للنظر. (المترجم)

٢٢ الأستاطيقا (Aesthetics) هو علم الجماليات، أو علم المحاسن، أو علم الشهوات والزين، وهو أحد فروع علم الفلسفة. (المترجم)

٢٣ الإلهة هي أنثى الإله، في بعض الثقافات، ترتبط الإلهات بالأرض والأمومة والحب والأسرة، وفي بعض الثقافات الأخرى تتحكم الإلهات أيضًا في الحرب والموت والهلاك. (المترجم)

٢٤ حورية: هي كلمة إغريقيَّة تعني الفتاة العذراء أو العروس وبحسب الميثولوجيا الإغريقيَّة القديمة، هي إحدى المخلوقات الأنثويَّة الشبه إلهيَّة، التي تتخذ أشكالاً شبيهة بالإنسان، وتكون عادة محصورة في مكان معين، أو جزء من حاشية إحدى الآلهة. (المترجم)

www.christianlib.com

كالتاريخ، قد تكون قريبة جدًّا من الحقيقة كالنبوة. ففي الوقت الحاضر نحن خارج العالم، الجانب الخطأ من الباب. نرى نضارة ونقاء الصباح، لكنها لا تجعلنا ناضرين وأنقياء. لا يمكننا الاختلاط بالروعة التي نراها. لكن كل أوراق العهد الجديد مليئة بالإشاعة القائلة بأنَّها لن تكون كذلك دائمًا. في يوم من الأيام، إنْ شاء الله، سوف ندخل. عندما تصبح النفوس البشريَّة مثاليَّة في الطاعة الاختياريَّة مثل المخلوقات غير الحيَّة في طاعتها الهامدة، عندئذ سوف يضعون مجده، أو بالأحرى ذلك المجد الأكبر الذي تعتبره الطبيعة ليس سوى الرسمة الأولى. يجب ألَّا تظن أنَّني أضع أمامك أي خيال وثني يتم استيعابه في الطبيعة. فالطبيعة هالِكة. يجب علينا أنْ نُعمِّر أكثر منها. عندما تزول كل النجوم والسُّدُم[٢٥]، سيظلُّ كل واحد منكم على قيد الحياة. الطبيعة ليست سوى صورة، رمز؛ لكنه الرمز الكتابي ما يدعوني لاستخدامه. لقد تمَّ استدعاؤنا لنعبر من خلال الطبيعة، وراءها، إلى تلك الروعة التي تعكسها بشكلٍ مناسب.

وهُناك، في ما وراء الطبيعة، سوف نأكل من شجرة الحياة. في الوقت الحاضر، إذا ولدنا من جديد في المسيح، فالروح الذي فينا تحيي مباشرة من الله؛ لكن العقل، والأكثر من ذلك، الجسم فهو يستقبل الحياة منه – من خلال زوال الألاف من أجدادنا، من خلال طعامنا، من خلال العناصر. فالنتائج الباهتة البعيدة لتلك الطاقات التي غُرست فيها نشوة الله الإبداعيَّة في المادة عندما صنع العالمين هيَ ما نسميه الآن بالملذات الجسديَّة؛ وحتَّى يتم تصفيتها، فهيَ أكثر من اللازم لإدارتنا الحالية. ماذا ستفعل اذ تذوقت منبع نهر وثبتت روافده السفليَّة أنَّه مسكر؟ أعتقد أنَّ هذا هو ما يكمن أمامنا. فالرجل برمته قد شرب الفرح من ينبوع الفرح. كما قال القديس أوغسطينوس، إنَّ نشوة الروح المخلصة سوف «تفيض» في الجسم الممجد. في ضوء ميولنا الحالية المتخصصة والفاسدة، لا يمكننا أنْ نتخيل هذا السيل من المتعة، وأنا أحذر الجميع بجديَّة ألَّا يحاولوا. لكن يجب ذكر ذلك، لطرد الأفكار الأكثر ضلالة – يعتقد أنَّ من

٢٥ سُدُم: جمع سديم وهي أجرام سماوية ذات مظهر منتشر غير منتظم في الفلك مكون من غاز متخلخل من الهيدروجين والهيليوم وغبار كوني. (المترجم)

www.christianlib.com

يتم تخليصه هو مجرد شبح، أو أنَّ الجسم الصاعد يعيش فاقدًا للحس وفاقدًا للوعي. تمَّ صنع الجسد من أجل الرب، وأنَّ هذه الأوهام الكئيبة كانت خاطئة.

ومن جهة أخرى يأتي الصليب قبل التاج وغدًا هو صباح يوم الاثنين. لقد تمَّ فتح فتحة في جدار عالم بلا شفقة، ونحن مدعوون لمتابعة قائدنا العظيم في الداخل. ما يلي هو، بطبيعة الحال، النقطة الأساسيَّة. وعلى هذا المنوال، فقد يُسأل عن الاستخدام العملي في التكهنات التي كنت أنغمس فيها. يمكنني التفكير على الأقل في استخدام واحد. من الممكن لكل شخص أنْ يفكر كثيرًا في مجده المحتمل فيما بعد؛ لكن من الصعب عليه أنْ يفكر كثيرًا أو عميقًا في جاره. إنَّ عبء، أو حمل، أو ثِقل مجد جاري يجب أنْ أضعه على ظهري، وهو عبءٌ ثقيلٌ لدرجة أنَّ التواضع وحده هو الذي يمكن أنْ يحمله، وسوف يتم كسر ظهور المفتخرين. إنَّه لأمر خطير أنْ تعيش في مجتمع من الآلهة والآلهات المحتملين، لتتذكر أنَّ أكثر شخص مملٍ وباهت يمكنك التحدث إليه يومًا ما قد يكون كائنًا، إذا رأيته الآن، فسوف تُغرى بشدة لأن تعبده، أو غير ذلك من رعب وفساد، مثلما أنت تقابل الآن، إنْ وجدته على الإطلاق، فقط في كابوس. طوال اليوم، نحن، إلى حدٍّ ما، نساعد بعضنا البعض في واحدة أو أخرى من هذه المصائر. في ضوء هذه الاحتمالات الساحقة، فإنَّه مع الرهبة والحذر المناسبين لهما، يجب أنْ نُجري كل تعاملاتنا مع بعضنا البعض، وكل الصداقات، وكل الأشياء التي نحبها، وكل اللعب، وكل السياسة. لا يوجد أناس عاديون. أنت لم تتحدث قط مع بشر، فإنَّ الأمم والثقافات والفنون والحضارات كلها فانية، وحياتها بالنسبة لنا كحياة بعوضة. لكنهم خالدون من نمزح معهم، ونعمل معهم، ونتزوج منهم، ونتجاهلهم، ونستغلهم - أهوال خالدة أو روائع أبديَّة. هذا لا يعني أنْ نكون جادين بشكل دائم. بل يجب علينا أنْ نفرح. لكن فرحنا يجب أنْ يكون من هذا النوع (كما هو، في الواقع، النوع الأكثر فرحًا) الذي يوجد بين الناس الذين أخذوا بعضهم البعض على محمل الجد من البداية - بلا وقاحة، وبلا تكبر، وبلا سفاهة. ويجب أنْ تكون أعمالنا الخيريَّة حقيقة ومكلفة للحب، مع شعور عميق بالخطايا على الرغم من أنَّنا نحب الخاطئ - لا مجرد

www.christianlib.com

تسامح أو تساهل تحبها المحاكاة الساخرة[٢٦] كسفاهة المحاكاة الساخرة. فالفرح بجانب القربان المقدَّس نفسه، جارك هو أقدس شيء أمام حواسك. إذا كان جارك المسيحي، فهو مُقدَّس بنفس الطريقة تقريبًا، لأنه فيه أيضًا المسيح يختبئ – إنَّ المُعظَّم والممجَّد، والمجد نفسه، مخفيٌّ حقًا.

٢٦ محاكاة الساخرة: (parody) هي كل أثر أدبي أو فني يحاكي فيه أسلوب أحد المؤلفين على نحو تهكمي يثير الضحك والسخريَّة، ويظهر هذا الأثر الأدبي في الأدب العربي كثيرًا في معارضات الشعراء لبعضهم البعض، وقد اشتهر هذا الفن في العصرين المملوكي والعثماني بشكلٍ كبير. (المترجم)

www.christianlib.com

الفصل الثاني
التعلُّم في زمن الحرب

إنَّ الجامعة هيَ مجتمع السعي وراء التعلم. كطلاب، يتوقع أنْ تجعل -الجامعة- أنفسكم، أو تبدأ في أنْ تجعل أنفسكم، فيما سماه القرون الوسطى كتبة: كالفلاسفة، أو العلماء، أو النقاد، أو المؤرخين. وللوهلة الأولى يبدو أنَّ هذا شيء غريب القيام به أثناء حرب كبيرة. ما هو فائدة البدء في مهمة ولدينا فرصة ضئيلة للغاية لإنهاءه؟ أو، حتَّى نحن أنفسنا يجب علينا ألَّا نتوقف عن طريق الموت أو الخدمة العسكريَّة، فلماذا -ينبغي علينا- في الواقع الاستمرار في الاهتمام بهذه المهن الهادئة عندما تكون حياة أصدقائنا وحريات أوروبا في المقابل؟ أليس هذا مثل العبث بينما روما تحترق؟

الآن يبدو لي أنَّنا غير قادرين على الإجابة على هذه الأسئلة حتَّى نضعها بجانب بعض الأسئلة الأخرى التي يجب على كل مسيحي طرحها في وقت السلم. لقد تحدثت للتو عن العبث بينما روما تحترق. لكن بالنسبة إلى المسيحي، أنَّ مأساة نيرون[1] الحقيقيَّة ليست في أنَّه كان يعبث[2] بينما كانت المدينة تشتعل، لكنه كان يعبث على حافة الهاوية. يجب أنْ تسامحني على هذا المقطع اللفظي الفج. أعلم أنَّ الكثير من المسيحيِّين الأكثر حكمة والأفضل مني في هذه الأيام لا يحبون ذكر السماء والجحيم حتَّى على المنبر. وأنا أعلم أيضًا أنَّ جميع الإشارات تقريبًا إلى هذا الموضوع تأتي في العهد الجديد من مصدرٍ واحدٍ. لكن

---

١ نيرون الخامس: كان خامس وآخر إمبراطور روماني من السلالة اليوليوكلوديَّة، وصل إلى العرش لأنه كان ابن كلوديوس بالتبني، حيث حكم الإمبراطوريَّة من ٥٤:٦٨ م. (المترجم)

٢ يقال إنَّ الإمبراطور نيرون في ذلك الوقت كان ينشد مقطعًا قديمًا من ملحمة شعريَّة من الأدب الإغريقي تعرف باسم إلوبرسيس مرتديًا ثيابًا مسرحية وقد كانت المدينة تحترق. (المترجم)

www.christianlib.com

هذا المصدر هو إلهنا نفسه. سيقول لك الناس إنَّه القديس بولس، لكن هذا غير صحيح. هذه العقائد الساحقة هيَ دومينيكانيَّة[٣]. فهيَ ليست قابلة للإزالة حقًا من تعاليم المسيح أو من كنيسته. إذا لم نصدقهم، فإنَّ وجودنا في هذه الكنيسة سيكون حماقة كبيرة. إذا فعلنا ذلك، يجب علينا في وقت ما أنْ نتغلب على تكلفنا الروحي ونذكرهم.

في اللحظة التي نفعل فيها ذلك، يمكننا أنْ نرى أنَّ كل مسيحي يأتي إلى الجامعة يجب أنْ يواجه في جميع الأوقات سؤالاً مقارنةً بالأسئلة التي طرحتها الحرب غير مهمة نسبيًا. يجب عليه أنْ يسأل نفسه كيف يكون ذلك صحيحًا، أو حتَّى ممكنًا من الناحية النفسيَّة، بالنسبة إلى المخلوقات التي تتقدم كل لحظة إما إلى السماء أو إلى الجحيم لقضاء جزء صغير من الوقت يُسمح لهم في هذا العالم ببعض التفاهات النسبيَّة مثل الأدب، أو الفن، أو الرياضيات، أو علم الأحياء. إذا تمكنت الثقافة الإنسانيَّة من الوقوف في وجه ذلك، فيمكنها مواجهة أي شيء. في ظلِّ هذه القضايا الأبديَّة يجب أنْ نعترف بأنَّه يمكننا أنْ نحافظ على اهتمامك بالتعلم، لكن ليس في ظلِّ حرب أوروبيَّة، سيكون الاعتراف بأنَّ آذاننا قد أغلقت أمام صوت العقل وقد فُتحت على نطاق واسع جدًّا لصوت أعصابنا وعواطفنا الجماعيَّة.

هذا هو الحال بالفعل مع معظمنا، وبالتأكيد معي. لهذا السبب أعتقد أنَّه من المهم محولة رؤية الكارثة الحالية من منظور حقيقي. الحرب لا تخلق وضعًا جديدًا تمامًا. إنَّها تؤدي ببساطة إلى تفاقم الوضع الإنساني الدائم بحيث لا نستطيع بعد تجاهله. لقد كانت حياة الإنسان دائمًا على حافة الهاوية. فكان لا بد أنْ توجد الثقافة الإنسانيَّة في ظلِّ شيء لانهائي أكثر أهمية من نفسها. إذا كان الرجال قد آجلوا البحث عن المعرفة والجمال إلا أنْ يصبحوا آمنين، فلن يبدأ البحث أبدًا. نحن مخطئون عندما نقارن الحرب بـ «الحياة الطبيعيَّة». فالحياة لم تكن أبدًا طبيعيَّة. حتَّى تلك الفترات التي نعتقد أنَّها الأكثر هدوءًا، مثل القرن التاسع عشر، تتحول، عند التدقيق فيه، إلى فترة مليئة بالأزمات، والإنذارات،

٣ دومينيكانيَّة: خاصة بالرب يسوع المسيح. (المترجم)

www.christianlib.com

والصعوبات، وحالات الطوارئ. لم تكن هُناك أسباب معقولة على الإطلاق، لتأجيل جميع الأنشطة الثقافيَّة إلى أنْ يتم تجنب بعض الخطر الوشيك أو يكون الصراخ في وجه الظلم على حق. لكن البشريَّة منذ زمن بعيد اختارت إهمال كل تلك الأسباب المعقولة. لقد أرادوا المعرفة والجمال الآن، ولم ينتظروا اللحظة المناسبة التي لم تأتِ بعد. إنَّ بيريكليس الأثيني[٤] ترك لنا ليس فقط البارثينون[٥] لكن، إلى حد كبير، خطبة الرثاء[٦]. لقد اختارت الحشرات خطًا مختلفًا: فقد سعت أولًا إلى توفير الرفاهيَّة والأمان المادي للخلية، ومن المفترض أنَّها حصلت على مكافأتهم. لكن الرجال مختلفون. إنَّها تدعم النظريات الرياضيَّة في المدن المحاصرة، وتجري الحجج الميتافيزيقيَّة[٧] في الخلايا المحكوم عليها، وتصدر النكات على السقالات[٨]، وتناقش آخر قصيدة أثناء التقدم إلى أسوار كيبيك[٩] أو أثناء تمشيط شعرها في ثيرموبيلاي[١٠]. هذا ليس هراء. إنَّها طبيعتنا.

---

٤ بيريكليس الأثيني: سياسي أثيني عاش بين عامي (٤٩٥:٤٢٩ ق.م) وحكم أثينا بشكل متقطع من عام ٤٦٠ ق.م حتَّى وفاته وكان هذا الزعيم مشهورًا بدعمه للديمقراطيَّة. (المترجم)

٥ البارثينون: معبد إغريقي بناه بيريكليس في أثينا على جبل الأكروبولس ويعتبر هذا المعبد من أفضل نماذج العمارة الإغريقيَّة القديمة بناه الإغريق البارثينون في الفترة ما بين ٤٧٧:٤٣٢ ق.م. (المترجم)

٦ خطبة الرثاء: هي خطبة ألقاها بيريكليس عندما وقف يرثي فيها شهداء الحرب التي قامت بين أثينا وأسبرطة في الحفل الذي أقامه الأثينيون لرثائهم. (المترجم)

٧ الميتافيزيقا: هو فرع من فروع الفلسفة يدرس جوهر الأشياء ويشمل ذلك أسئلة الوجود والكينونة والواقع. (المترجم)

٨ السقالات: هي جمع سقالة وهو هيكل مؤقت يستخدم لحمل الأشخاص والمواد لغرض أعمال البناء أو ترميم المباني والمنشآت. (المترجم)

٩ أسوار كيبيك: تقع أسوار مدينة كيبيك في كندا، وهي الأسوار الوحيدة المتبقية المحصنة في أمريكا الشماليَّة شمال المكسيك حيث بدأ البريطانيون في أعادة تشكيل الجدران الموجودة بعد أنْ أخذوا مدينة كيبيك من الفرنسيين في معركة سهول إبراهيم عام ١٧٥٩م. (المترجم)

١٠ ثيرموبيلاي: هو ممر ساحلي ضيق يقع في اليونان يعرف بالبوابات الحارة، ويستمد اسمه من الينابيع الكبريتيَّة الساخنة التي تقع بالقرب منه. (المترجم)

www.christianlib.com

لكن بما أنّنا مخلوقات قد سقطت، فحقيقة أنَّ هذه هيَ طبيعتنا الآن لن تثبت بحد ذاتها أنّها عقلانيَّة أو صحيحة. علينا أنْ نسأل عما إذا كان هُناك بالفعل أي مكان مشروع لأنشطة باحث في عالم مثل هذا. علينا دائمًا الإجابة عن هذا السؤال، «كيف يمكنك أنْ تكون تافهًا وأنانيًا بحيث تفكر في أي شيء عدا خلاص النفوس البشريَّة؟» وعلينا، في الوقت الحالي، أنْ نجيب على السؤال الإضافي، «كيف يمكنك أنْ تكون تافهًا وأنانيًا بحيث تفكر في أي شيء عدا الحرب؟» الآن جزء من إجابتنا سيكون هو نفسه لكلا السؤالين. الأوَّل يعني أنَّ حياتنا يمكنها، ويجب عليها أنْ تصبح دينيَّة بشكل صريح وواضح، والآخر يعني أنَّ حياتنا يمكنها، ويجب عليها أنْ تصبح وطنيَّة بشكل صريح. أعتقد أنَّ حياتنا كلها يمكنها، بل ويجب عليها، أنْ تصبح دينيَّة بمعنى سوف يتم شرحه لاحقًا. لكن إذا كان المقصود هو أنْ تكون جميع أنشطتنا من هذا النوع الذي يمكن التعرف عليه كـ «مُقدَّس» مقابل «علماني»، فسأقدم ردًا واحدًا على كلا المهاجمين الوهميَّين. سأقول «سواء كان يجب أنْ يفعل هذا أم لا، فإنَّ الشيء الذي توصي به لن تفعله.» قبل أنْ أصبح مسيحيًا، لا أعتقد أنَّني أدركت تمامًا أنَّ حياة المرء، بعد التحويل، ستتكون حتمًا من فعل معظم الأشياء ذاتها التي كان يفعلها المرء من قبل، ويأمله المرء بروح جديدة، لكن لا تزال نفس الأشياء. قبل أنْ أذهب إلى الحرب الأخيرة، كنتُ أتوقعَ بالتأكيد أنْ تكون حياتي في الخنادق، بكل معنى الكلمة، هذه هيَ الحرب. في الواقع، وجدت أنَّه كلما اقتربت من خط المواجهة كلما قل كلام الجميع وتفكيرهم في قضيَّة الحلفاء وتقدم الحملة؛ ويسرني أنْ أجد أنَّ تولستوي[11]، في أعظم كتاب حرب كُتب على الإطلاق وهو الإلياذة[12]، يسجل نفس هذا الشيء، وبطريقته الخاصَّة. لا التحويل ولا التجنيد في الجيش سوف يمحو حياتنا الإنسانيَّة. فالمسيحيُّون والجنود ما زالوا رجالاً؛ وأنَّ فكرة الكفر بالنسبة إلى الحياة

١١ ليف تولستوي: (١٨٢٨-١٩١٠م) من أعظم الروائيين الروس، مصلح اجتماعي ومفكر أخلاقي ويعتبر من أعمدة الأدب الروسي في القرن الـ١٩. (المترجم)

١٢ الإلياذة: هي ملحمة شعريَّة تحكي قصة حرب طروادة وتعتبر مع الأوديسا أهم ملحمة شعريَّة إغريقيَّة للشاعر الأعمى هوميروس. (المترجم)

www.christianlib.com

الدينيَّة وفكرة المدنيَّة بالنسبة إلى الخدمة العسكريَّة رائعين. إذا حاولت، في كلا الحالتين، تعليق نشاطك الفكري والجمالي كله، فسوف تنجح فقط في استبدال حياة ثقافيَّة أسوأ بأخرى أفضل. في الواقع، لن تقرأ شيئًا، لا في الكنيسة ولا على خط الحرب: إذا كنت لا تقرأ كتبًا جيدةً، فسوف تقرأ كتبًا سيئة. إذا لم تستمر في التفكير بعقلانيَّة، فستفكر بطريقة غير عقلانيَّة. إذا رفضت الشبع الجمالي، فسوف تقع في الشبع الجسدي.

يوجد هُناك تشابه بين مطالبات ديننا ومطالبات الحرب: لا أحد منهم، بالنسبة إلى معظمنا، سوف يتم إلغاءه أو إزالته ببساطة من قائمة الحياة البشريَّة التي كنَّا نعيشها قبل دخولنا إياهم. لكنهم سيعملون بهذه الطريقة لأسباب مختلفة. ستفشل الحرب في الاستحواذ على كامل انتباهنا لأنها شيء محدودٌ وبالتالي فهيَ غير مؤهلة بشكل جوهري لدعم الاهتمام الكامل للنفس البشريَّة. من أجل تجنب سوء الفهم، يجب عليَّ هُنَا أنْ أضع بعض الاختلافات. أعتقد أنَّ قضيتنا هي، كما تسير الأمور البشريَّة، من الصالحين للغاية، وبالتالي أعتقد أنَّه من الواجب المشاركة في هذه الحرب. وكل واجب هو واجبٌ دينيٌ، وبالتالي فإنْ التزامنا بأداء كل واجب، هو واجبٌ مطلقٌ. وبالتالي قد يكون من الواجب علينا إنقاذ رجل غريق، وربَّما، إذا كنَّا نعيش على ساحل محفوف بالمخاطر، لذا يجب علينا تعلم الإنقاذ حتَّى نكون مستعدين لأي رجل غريق يرفع صوته. قد يكون من الواجب علينا أنْ نفقد أرواحنا في سبيل إنقاذه. لكن إذا كرَّس أي شخص نفسه في إنقاذ الأرواح بمعنى أنْ يعطيه كامل انتباهه - حتَّى أنَّه فكر ولم يتحدث عن أي شيء أخر، وطالب بوقف جميع الأنشطة البشريَّة الأخرى حتَّى يتعلم الجميع السباحة، فسيكون رجل أحادي المس[١٣]. إنَّ إنقاذ الرجال الغارقين، هو واجب يستحق الموت من أجله، لكنه لا يستحق العيش من أجله. يبدو لي أنَّ كل الواجبات السياسيَّة (من بينها الواجبات العسكريَّة) هيَ من هذا النوع. قد يضطر الرجل إلى الموت من أجل بلدنا، لكن لا يجب أنْ

١٣ المس الأحادي: هو هذيان جزئي يعاني فيه المريض من تصورات زائفة، فهذه التصورات الخاطئة يمكن أنْ تكون أوهام، أو هلوسة، أو قناعات، أو أفكار خاطئة. (المترجم)

www.christianlib.com

يعيش الإنسان من أجل بلده بأي حال من الأحوال. إنَّ من يُسلم نفسه دون تحفظ لمتطلبات الأمة الدنيويَّة، أو الحزب، أو الطبقة، فإنَّه يقدم إلى القيصر ما ينتمي إلى الله بشكل قاطع، وهو نفسه.

إنَّه لسبب مختلف تمامًا ألَّا يستطيع الدين شَغل الحياة بأكملها بمعنى استبعاد جميع أنشطتنا الطبيعيَّة. لأنه، بطبيعة الحال، إلى حدٍّ ما ، يجب أنْ يَشغل كل الحياة. لا يوجد أي حل وسط بين مطالبات الله ومطالبات الثقافة، أو السياسة، أو أي شيء أخر. إنَّ مطالبة الله أزليَّة ولا هوادة فيها. يمكنك رفضها، أو يمكنك البدء في محاولة منحها لأخر. لا يوجد طريق وسط. بالرغم من ذلك، ومن الواضح أنَّ المسيحيَّة لا تستبعد أي نشاط بشري عادي. يقول القديس بولس إلى الناس أنْ يواصلوا عملهم. حتَّى أنَّه يفترض أنَّ المسيحيِّين يذهبوا إلى حفلات العشاء، والأكثر من ذلك، حفلات العشاء التي يقدمها الوثنيون. فالمسيح قد حضر حفل زفاف وصنع معجزة تحويل الخمر. وفي معظم العصور المسيحيَّة وتحت رعاية كنيسته، ازدهرت المعرفة والفنون. إنَّ حل هذه المفارقة، بطبيعة الحال، معروف لك. «فإذا كنتم تأكلون أو تشربون أو تفعلون شيئًا، فافعلوا كل شيء لمجد الله».

سيتم قبول جميع أنشطتنا الطبيعيَّة، فقط إذا تمَّ تقديمها إلى الله، حتَّى الأكثر تواضعًا، حتَّى النبلاء، كلهم، سيكونون مذنبين إنْ لم يفعلوا ذلك. فالمسيحيَّة ببساطة لا تستبدل حياتنا الطبيعيَّة بحياة أخرى جديدة عوض عنها؛ إنَّها بالأحرى منظومة جديدة تستغل، هذه المواد الطبيعيَّة، إلى غاياتها الخارقة للطبيعة. فبلا شك، في موقف معين، يتطلب منَّا التنازل عن بعض أو كل شيء، لمجرد مساعينا الإنسانيَّة؛ خير لك أنْ تخلص بعين واحدة، بدلًا من أنْ يكون لك عينين، وتُطرح في جهنم. لكنها تفعل ذلك، في تلك الظروف الخاصَّة، إلى حدٍّ ما ، عن طريق الصدفة. ولم يعد من الممكن ممارسة هذا النشاط أو ذاك لمجد الله. فلا يوجد نزاع أساسي بين الحياة الروحيَّة والأنشطة البشريَّة على هذا النحو. وبالتالي فإنَّ طاعة الله في حياة المسيحي هيَ كليَّة الوجود، على نحوٍ ما، يشبه وجود الله في الفضاء. الله لا يملأ الفضاء كما يملأ الجسم، بمعنى

www.christianlib.com

أنَّ أجزاء منه في أجزاء مختلفة من الفضاء -باستثناء كائنات أخرى- وفقًا للاهوتيِّين جيدين. ومع ذلك، فهو موجودٌ في كل مكان، حاضرٌ تمامًا في كل نقطة من الفضاء.

نحن الآن في وضع يسمح لنا بالإجابة على الرأي القائل بأنَّ الثقافة الإنسانيَّة تافهة بقدر لا يُغتفر كمخلوقات محملة بمسئوليات فظيعة مثلنا. أرفض في الحال الفكرة التي تكمن في أذهان بعض الناس المعاصرين بأنَّ الأنشطة الثقافيَّة هيَ في حد ذاتها روحيَّة وجديرة بالتقدير، كما لو كان وجود العلماء والشعراء أكثر إرضاءً إلى الله من الزبالين وماسحين الأحذيه. أعتقد أنَّ ماثيو أرنولد[١٤] كان أول من استخدم الكلمة الإنجليزيَّة روحيَّة (spiritual) بمعنى دينيَّة (geistlich) بالألمانيَّة، لذلك كان هذا الخطأ الأكثر خطورة والأكثر معاداة للمسيحيَّة. دعونا نتخلص منه إلى الأبد من عقولنا. إنَّ عمل بيتهوفن[١٥] وعمل الخادمة يصبح روحانيًا بنفس الشرط بالضبط، ألا وهو كونه ممنوحًا من الله، وكونه مفعولاً بتواضع «كما للرب». بالطبع، هذا لا يعني، تساو في الفرص لأي شخص سواء كان ينظف الغرف أو يؤلف السيمفونيات. الخلد[١٦] يجب أنْ يحفر لمجد الله، والديك يجب أنْ يَصيح لمجد الله. نحن أعضاء في جسد واحد، لكننا أعضاء متميزون، لكل منَّا مهنته الخاصَّة. عادة ما تكون تربية الرَّجل ومواهبه وظروفه مؤشرًا مقبولاً على مهنته. إذا كان آباؤنا قد أرسلونا إلى أكسفورد، وإذا سمحت لنا بلدنا بالبقاء هُناك، سيكون هذا دليل على الوجاهة التي نعيشها، على أي حالٍ، يمكن للحياة التعليميَّة أنْ تؤدي إلى

١٤ ماثيو أرنولد (١٨٢٢:١٨٨٨م): شاعر وناقد وكاتب ومصلح تربوي إنجليزي. لم يقتصر على الأدب، إذ تنوعت كتاباته بين الأدب والتاريخ والسياسة واللاهوت والعلم والفن. (المترجم)

١٥ فان بيتهوفن (١٧٧٠:١٨٢٧م): ملحن وموسيقار وعازف بيانو ألماني، يعتبر من أعظم عباقرة الموسيقي في جميع العصور وأكثرهم تأثيرًا. (المترجم)

١٦ الخلد أو الفار الأعمى أو الطوبين أو أكل البق: هو حيوان صغير من الثدييات يأكل الحشرات والديدان، ويعيش في الأنفاق تحت الأرض التي يحفرها بأسنانه ومخالبه القويَّة. (المترجم)

www.christianlib.com

مجد الله في الوقت الحاضر. من خلال توجيه تلك الحياة إلى مجد الله، بالطبع، لا أقصد، أي محاولة لجعل استفساراتك الفكريَّة تعمل على تحرير الاستنتاجات. من شأن ذلك، كما يقول بيكون[١٧]، أنْ يقدم لصاحب الحقيقة ذبيحة غير طاهرة من الكذب. أعني السعي وراء المعرفة والجمال، بمعنى ما، من أجلهم، لكن بمعنى لا يستبعد وجودهم من أجل الله. توجد شهية لهذه الأشياء في العقل البشري، والله لا يخلق الشهية عبثًا. بالتالي يمكننا السعي وراء المعرفة على هذا النحو، والجمال على هذا النحو، بثقة مؤكدة بأنَّنا بذلك نتقدم إلى رؤية الله بأنفسنا أو نساعد الأخرين بشكل غير مباشر على القيام بذلك. إنَّ التواضع، ليس أقل من الشهية، لأنه ببساطة يشجعنا على التركيز على المعرفة أو الجمال، وليس الكثير فيما يتعلق بأنفسنا مع صلتها النهائيَّة لرؤية الله. قد لا تكون هذه الصلة موجهة لنا، لكن لأفضلنا - بالنسبة إلى الرجال الذين يأتون ويجدون الأهمية الروحيَّة لما خرجنا به في الطاعة العمياء والمتواضعة لوظيفتنا. هذه هيَ الحجة الغائيَّة[١٨] بأنَّ وجود الدافع والقابلية يثبت أنَّه يجب أنْ يكون لهم وظيفة مناسبة في مخطط الله - وهيَ الحجة التي أثبت بها توما الأكويني أنَّ الحياة الجنسيَّة كانت موجودة حتَّى من دون السقوط. وقد أثبتت التجربة صحة هذه الحجة، فيما يتعلق بالثقافة. فإنَّ الحياة الفكريَّة ليست هيَ الطريق الوحيد إلى الله، ولا هيَ الأكثر أمانًا، لكننا نجده كطريق، وقد تكون الطريق المعين لنا. بالطبع، ستكون هيَ فقط طالما أنَّنا نحافظ على الدافع نقيًا وزاهدًا. هذه هيَ الصعوبة الكبيرة. كما يقول مؤلف كتاب اللاهوت الجرماني (الألماني)، قد نأتي إلى حب المعرفة -معرفتنا- أكثر من الشيء المعروف: فليست البهجة في ممارسة مواهبنا، أو حتَّى في السمعة التي يجلبوها لنا، لكن في حقيقة كونهم لنا. كل نجاح في حياة العالم (الباحث) يزيد من هذا الخطر. إذا أصبح لا يقاوم، يجب

١٧ فرانسيس بيكون ١٥٦١:١٦٢٦م): فيلسوف وكاتب إنجليزي معروف بقيادته للثورة العلميَّة عن طريق فلسفته الجديدة القائمة على الملاحظة والتجريب. (المترجم)

١٨ الحجة الغائيَّة: هي النظرية التي تزعم أنَّ كل ما في الطبيعة وما يجري فيها من عمليات إنما يتوجه إلى تحقيق غاية معينة. (المترجم)

www.christianlib.com

عليه التخلي عن عمله العلمي. لقد حان وقت إقلاع العين اليمنى.

هذه هيَ الطبيعة الأساسيَّة لحياة التعلم كما أراها. لكن لديها قيم غير مباشرة حيث لها أهمية خاصة اليوم. إذا كان العالم كله مسيحيًّا، فقد لا يهم إذا كان العالم كله غير متعلم. لكن، كما هو، سوف تجد الحياة الثقافيَّة خارج الكنيسة سواء كانت موجودة بالداخل أم لا. أنْ تكون جاهلًا وبسيطًا الآن -ألَّا تكون قادرًا على مواجهة الأعداء على أرضهم- سنرمي أسلحتنا، وخيانة إخواننا غير المتعلمين الذين، ليس لديهم دفاع إلا ضد الهجمات الفكريَّة التي يقوم بها الوثني. يجب أنْ توجد فلسفة جيدة، إنْ لم يكن لأي سبب أخر، لأن الفلسفة السيئة تحتاج إلى إجابة. يجب أنْ يعمل الفكر الرصين ليس فقط ضد الفكر الرصين لكن على الجانب الأخر، ضد وحل الوثنيَّة التي تنكر الفكر تمامًا. الأهم من ذلك كله، ربَّما، نحن بحاجة إلى معرفة دقيقة بالماضي. ليس لأن الماضي لديه أي سحر حول هذا الموضوع، لكن لأنه لا يمكننا دراسة المستقبل، ونحن بحاجة إلى شيء نواجهه في الوقت الحاضر، لنتذكر بأنَّ الافتراضات الأساسيَّة كانت مختلفة تمامًا في فترات مختلفة، وهو ما يبدو كثيرًا بالنسبة إلى غير المتعلمين مجرد موضة مؤقتة. من غير المرجح أنْ يضل الرجل الذي عاش في أماكن كثيرة بالأخطاء المحليَّة في قريته الأم؛ لقد عاش العالم (الباحث) في العديد من الأزمنة، وبالتالي فهو محصن بدرجةٍ ما من فيضان الحماقة الذي يصب من الصحافة والميكروفون في عصره.

إنَّ حياة التعلم، بالنسبة إلى البعض، هيَ واجبٌ. في الوقت الحالي يبدو كما لو كان واجبك. أدرك جيدًا أنَّه قد يبدو هُناك تباينًا هزليًا تقريبًا بين القضايا العالية التي دارسناها والمهمة العاجلة التي تمَّ تعينك لها، مثل قوانين الصوت الأنجلوسكسونيَّة[١٩] أو الصيغ الكيميائيَّة. لكن هُناك صدمة مشابهة تنتظرنا في كل مهنة -فالكاهن الشاب يجد نفسه مقحم في الخورُس[٢٠] وشماس شاب

١٩ الأنجلوسكسونيون: هم قبائل جرمانيَّة غزت وسكنت بريطانيا في القرن ٥م والقرن ٦ م. (المترجم)

٢٠ الخورُس أو الجوقة: هم مجموعة من الشمامسة الذين يشاركون الشعب في

www.christianlib.com

مقحم في حساب أواني القداس. من الجيد أنْ يكون الأمر كذلك. إنَّها تهدئ المتكبرين والعاصفين وتحتفظ بأولئك المتواضعين والحازمين. في هذا النوع من الأزمة، لا نحتاج إلى تعاطف. لكن الأزمة الغريبة التي تفرضها الحرب عليك هيَ مسألة أخرى، وأكرر مرة أخرى ما قولته بشكل أو بآخر منذ أنْ بدأت، لا تدع أعصابك وعواطفك تقودك إلى التفكير في مأزقك بشكل غير طبيعي أكثر مما هو عليه بالفعل. فقد يكون من المفيد ذكر التمارين العقليَّة الثلاثة التيّ قد تكون بمثابة دفاعات ضد الأعداء الثلاثة التي تثيرها الحرب ضد العالم (الباحث).

إنَّ العدو الأوَّل هو الحماس - الميل إلى التفكير والشعور بالحرب عندما نكون قد عزمنا التفكير في عملنا. وأفضل دفاع هو الاعتراف بهذا، كما في كل شيء أخر، لم تثر الحرب حقًا عدوًا جديدًا، بل أدت إلى تفاقم عدو قديم. هُناك دائمًا الكثير من المنافسين لعملنا. فنحن نقع دائمًا في الحب أو التشاجر، والبحث عن وظائف أو الخوف من فقدانها، يجلب المرض والتعافي، يأتي بعد الشؤون العامة. إذا سمحنا لأنفسنا، سننتظر دائمًا بعض التسلية أو غيرها حتَّى ننتهي من العمل. فالأشخاص الوحيدون الذين يحققون الكثير هم أولئك الذين يريدون المعرفة بشدة لدرجة أنَّهم يبحثون عنها بينما لا تزال الظروف غير مناسبة. فإنَّ الظروف المناسبة لا تأتي أبدًا. هُناك، بالطبع، لحظات يكون فيها ضغط الإثارة كبيرًا لدرجة أنَّه لا يمكن مقاومة ذلك إلَّا من خلال ضبط النفس الإلهي. الذي يأتي في الحرب والسِلم. فيجب أنْ نبذل قصارى جهدنا.

أما العدو الثاني هو الإحباط - الشعور بأنَّه لن يكون لدينا وقت لإنهائه. إذا قلت لك إنَّه لا يوجد أحد لديه وقت لإنهائه، وأنَّ أطول حياة بشريَّة تترك رجلًا مبتدئًا، في أي فرع من فروع التعلم، سأبدو وكأنَّني أقول لك شيئًا أكاديميًا ونظريًا تمامًا. ستندهش إذا عرفت كيف يبدأ الشخص في الشعور بقصر الأجل، وكم من الأشياء، حتَّى في منتصف العمر، كنَّا نقول «لا وقت

مردات القداس الإلهي، وغيره من الصلوات الليتورجيَّة والمناسبات الكنسيَّة تحت قيادة المرتل. (المترجم)

www.christianlib.com

لذلك»، «فات الأوان الآن»، و«ليس من أجلي»، لكن الطبيعة نفسها تمنعك من مشاركة هذه التجربة. إنَّ السلوك الأكثر مسيحيَّة، والذي يمكن تحقيقه في أي عمر، هو ترك المستقبل بين يدي الله. قد نحتفظ به أيضًا، لأن الله سيحتفظ به بالتأكيد سواء تركناه له أم لا. دائمًا وأبدًا في السلم أو الحرب، التزم بفضيلتك أو سعادتك للمستقبل. العمل السعيد هو الذي يقوم به الإنسان بأفضل صورة عن طريق خطط واضحة طويلة الأجل ويعمل من أجله لحظة بلحظة «كما للرب». إنَّه فقط خبزنا اليومي الذي نطلبه. فالوقت الحاضر هو الوقتُ الوحيد الذي يمكن فيه القيام بأي واجب أو تلقي أي نعمة.

بينما العدو الثالث هو الخوف. الحرب تهددنا بالموت والألم. لا أحد -وخاصة المسيحي الذي يتذكر جثسيماني[٢١]- بحاجة إلى تحقيق مذهب اللامبالاة الرواقي[٢٢] حول هذه الأشياء، لكن يجب أنْ ننتبه من أوهام الخيال. نحن نفكر في شوارع وارسو[٢٣] وعلى النقيض منه الضحايا التي عانت منها المدينة[٢٤] لمجرد ما يسمى بالحياة. لكن لا يوجد موت أو حياة لأي منَّا، فقط مسألة موت - موت من رصاصة رشاش أو موت من سرطان دام لأربعين سنة. ماذا تفعل الحرب للموت؟ بالتأكيد هيَ ليست أكثر من تكرار للحدث؛ يموت ١٠٠ في المائة منَّا، ولا يمكن زيادة النسبة المئويَّة. إنَّه يضع العديد من الوفيات في وقت مبكر، لكنني بالكاد أفترض أنَّ هذا ما نخشاه. بالتأكيد عندما تأتي اللحظة، لنْ يحدث فرق كبير في عدد السنوات التي وراءنا. هل

---

٢١ جثسيماني: هو بستان في جبل الزيتون في مدينة القدس، يُعرف بأنَّه المكان الذي صلى فيه يسوع في الليلة السابقة للصلب. (المترجم)

٢٢ تزعم الرواقيَّة أنَّ التحكم الذاتي، الثبات وعدم الالتهاء بالعواطف، التي قد تفسِّر باللامبالاة بالمتعة والألم، تجعل الإنسان مفكرًا سليما، متزن التفكير وموضوعي. (المترجم)

٢٣ وارسو: هي عاصمة بولندا (بولونيا) وأكبر مدنها وتقع على نهر فيستولا. (المترجم)

٢٤ ما يقصده الكاتب هُنا هو انتفاضة مدينة وارسو ضد النازيَّة عام ١٩٤٤م، حيث قام النازيين بقمع انتفاضة مدينة وارسو بوحشيَّة وقتلوا عددًا كبيرًا من أهالي المدينة. (المترجم)

www.christianlib.com

يزيد هذا من فرص الموت المؤلم؟ أشك في ذلك. بقدر ما أستطيع معرفة ذلك، أنَّ ما نسميه بالموت الطبيعي عادة ما يسبقه معاناة، وساحة المعركة هيَ واحدة من الأماكن القليلة التي يتمتع فيها الشخص بفرصة معقولة للموت دون أي ألم على الإطلاق. هل يقلل ذلك من فرصنا في الموت بسلام مع الله؟ لا أستطيع تصديق ذلك. إذا كانت الخدمة العسكريَّة لا تقنع الرَّجل بالاستعداد إلى الموت، فما هو التسلسل المعقول للظروف؟ فالحرب لم تفعل شيئًا للموت. إنَّها تجبرنا على تذكره فقط. السبب الوحيد وراء عدم انزعاجنا للسرطان في سن الستين أو الشلل في سن الخامسة والسبعين هو أنَّنا قد نسيناه. بينما الحرب تجعل الموت حقيقة بالنسبة لنا، وكان من الممكن اعتبار ذلك أحد أهم بركاته كما قال معظم المسيحيِّين الكبار في الماضي. لقد اعتقدوا أنَّه من الجيد لنا أنْ نكون دائمًا على وعي بحقيقة موتنا. فأنا أميل إلى الاعتقاد بأنَّهم كانوا على حق. كانت جميع أشكال الحياة الشهوانيَّة فينا، وكل خطط السعادة التي قد تركزتْ في هذا العالم، قد حكم عليها دائمًا بالفشل النهائي. في الأوقات العادية لا يمكن أنْ يدرك ذلك إلَّا الحكماء. الآن أغبى شخص فينا يعرف ذلك. نحن نرى بلا شك نوع الكون الذي نعيش فيه طوال الوقت، ويجب أنْ نتصالح معه. إذا كان لدينا آمال غير مسيحيَّة تافهة بشأن الثقافة الإنسانيَّة، فقد تحطمت الآن. إذا اعتقدنا أنَّنا نبني السماء على الأرض، وإذا بحثنا عن شيء من شأنه أنْ يحول العالم الحالي من مكان للحج إلى مدينة دائمة تشبع روح الإنسان، فسوف نشعر بخيبة أمل في آخر لحظة. لكن إذا اعتقدنا أنَّه بالنسبة إلى بعض النفوس، في بعض الأحيان، تكون حياة التعلم، المقدمة إلى الله بتواضع، بطريقتها الخاصَّة الصغيرة، أحد الأساليب المعينة للواقع الإلهي والجمال الإلهي الذي نأمل أنْ نستمتع به في الآخرة، وما زلنا نعتقد ذلك.

www.christianlib.com

الفصل الثالث
لماذا لا أكون مسالمًا؟

إنَّ السؤال هُنا عما إذا كانت الخدمة في الحروب تحت قيادة المجتمع المدني الذي ننتمي إليه هي عملٌ شريرٌ، أو فعلٌ غير مبال أخلاقيًا، أو عملٌ إلزاميٌّ أخلاقيٌّ. في سؤالنا عن كيفيَّة تقرير هذا السؤال، نطرح سؤالاً أكثر عموميَّة: كيف نقرر ما هو الخير أو الشر؟ الجواب المعتاد هو أنَّنا نقرر ذلك بالضمير. لكن ربَّما لا أحد يفكر الآن في الضمير كوظيفة جسديَّة منفصلة، مثل أحد الحواس. في الواقع، لا يمكن التفكير فيه. بالنسبة إلى الوظائف التي تتمتع بالحكم الذاتي، فإنَّ الإحساس لا يمكن المجادلة معه؛ لا يمكنك أنْ تجادل الرجل في رؤية اللون الأخضر إذا رآه أزرق. لكن يمكن للضمير أنْ يتغير بالحجة. وإذا كنت لا تعتقد ذلك، فلن تطلب مني أنْ آتي إليك وأتحدث معك حول أخلاقيات طاعة القانون المدني عندما يخبرنا أنْ نخدم في الحروب. إذن، الضمير، يعني أنَّ الرجل كله يكون مشغولاً بموضوع معين.

ولكن حتَّى في هذا المعنى، لا يزال للضمير معنيان. قد يكون (أ) الضغط الذي يشعر به الشخص على إرادته لفعل ما يعتقد أنَّه صحيح، (ب) حكمته على مضمون الصواب والخطأ. بمعنى (أ) فالضمير يجب إتباعه دائمًا. إنَّه ملك الجنس البشري، حيث «إذا كانت لديها القوة كما لديها الحق، فستحكم العالم تمامًا». لذلك لا ينبغي المجادلة به، بل يجب إطاعته، بل وحتَّى التساؤل فيه هو شعور بالذنب. لكن بمعنى (ب) إنَّها مسألة مختلفة تمامًا. قد يكون الناس مخطئين بشأن الخطأ والصواب. معظم الناس في درجة ما مخطئين. بأي وسيلة يتم تصحيح الأخطاء في هذا المجال؟

إنَّ القياس الأكثر فائدة هُنا هو السبب - الذي لا أقصد به بعض الوظائف الجسديَّة المنفصلة، لكن مرة أخرى، الرجل كله يحكم، والحكم فقط في هذه

www.christianlib.com

المرة ليس على الخير والشر، لكن على الحق والباطل. الآن أي تسلسل للتفكير المركز يحتوي على ثلاثة عناصر: (أولًا) هُناك استقبال الحقائق لسبب ما. يتم تلقي هذه الحقائق إما من حواسنا أو من تقرير عقول أخرى؛ إما أنَّ الخبرة أو السُلطة تزودنا بموادنا. لكن تجربة كل رجل محدودة للغاية بحيث أنَّ المصدر الثاني هو المألوف؛ من بين كل مائة حقيقة يعتمد عليها، تعتمد تسعة وتسعون على السُلطة. (ثانيًا)، هُناك تصرف بسيط ومباشر للعقل حيث أنَّه يدرك البديهيات، كما هو الحال عندما نرى A و B كلاهما متساويان مع C، فهذا يعني أنَّهم يساووا بعضهما البعض. هذا الفعل أسميه البديهة. (ثالثًا)، هُناك فن أو مهارة لترتيب الحقائق حتَّى تسفر عن سلسلة من هذه البديهيات التي ترتبط معًا لإثبات حقيقة أو بطلان الافتراض الذي ندرسه. وهكذا، في الإثبات الهندسي، تُرى كل خطوة عن طريق الحدس، وإذا فشلت في رؤيتها لن تكون عالم هندسي سيء بل أحمق. حيث تكمن المهارة في ترتيب المواد في سلسلة من «الخطوات» البديهيَّة وعدم القيام بذلك لا يعني حماقة، لكن فقط عدم إبداع أو ابتكار. والفشل في متابعته لا يعني بالضرورة حماقة أيضًا، بل يعني عدم انتباه أو خلل في الذاكرة يمنعنا من الإبقاء على جميع البديهيات معًا.

الآن كل تصحيح الأخطاء في التفكير هو في الحقيقة تصحيح للعنصر الأوَّل أو الثالث. أما العنصر الثاني، وهو العنصر الحدسي، فلا يمكن تصحيحه إذا كان خاطئًا، ولا يتم توفيره إذا كان غير موجود. فيمكنك إعطاء الشخص حقائق جديدة. يمكنك اختراع دليل أبسط، أي تسلسل أبسط للحقائق البديهيَّة. لكن عندما تعجز عن رؤية أي من الخطوات البديهيَّة التي تمَّ بناء الدليل عليها، فلا يمكنك فعل شيء. لا شك أنَّ هذا العجز المطلق نادرٌ أكثر بكثير مما نفترض. يعلم كل معلم أنَّ الناس يحتجون باستمرار على أنَّهم «لا يستطيعون» رؤية بعض الاستدلالات البديهيَّة، لكن العجز المفترض عادة ما يكون رفضًا للرؤية، إما بسبب بعض العاطفة التي لا ترغب في رؤية الحقيقة المعنية أو غير ذلك من الكسل حيث لا نريد أنْ نفكر على الإطلاق. لكن عندما يكون العجز حقيقيًا، تكون الحجة في نهايتها. فلا يمكنك إنتاج حدس عقلاني بالحجة، لأن الحجة تعتمد على الحدس العقلاني. يعتمد البرهان على ما

www.christianlib.com

لا يمكن إثباته والذي يجب «رؤيته». وبالتالي الحدس الخاطئ هو فاسدٌ. هذا لا يعني أنَّه لا يمكن تدريبه عن طريق الممارسة في الانتباه وفي كبح الشهوات المزعجة، أو إفساده من قِبَل العادات المعاكسة. لكنها غير قابلة للتصحيح بحجةٍ.

قبل أنْ أترك موضوع العقل، يجب أنْ أشير إلى السُلطة التي لا تتحد فقط مع الخبرة لإنتاج المادة الخام وهيَ «الحقائق»، لكن يجب أيضًا استخدامها كثيرًا بدلًا من التفكير في نفسها كوسيلة للحصول على الاستنتاجات. على سبيل المثال، عدد قليل منَّا يتبع المنطق الذي يستند إليه حتَّى ١٠٪ من الحقائق التي نؤمن بها. فنحن نقبلهم بناءً على تفويض من الخبراء، ومن الحكمة أنْ نفعل ذلك، على الرغم من أنَّنا نُخدع في بعض الأحيان بهذه الطريقة، إلَّا أنَّه يتعين علينا أنْ نعيش مثل الهمجيِّين إذا لم نفعل ذلك.

الآن تمَّ العثور على جميع العناصر الثلاثة في الضمير. الحقائق، كما من قبل، تأتي من الخبرة والسُلطة. لا أقصد «الحقائق الأخلاقيَّة»، بل تلك الحقائق المتعلقة بالأفعال دون التمسك بها والتي لم نتمكن من طرح أسئلة أخلاقيَّة على الإطلاق - لأننا لا يجب أنْ نناقش المسألة إذا لم نعرف معنى الحرب والقتل، ولا العفة، إذا لم نكن قد تعلمنا بعد ما استخدمه مدرسو المدارس فيما يسموه «حقائق الحياة». ثانيًا، هُناك حدس خالص للخير والشر بكل بساطة. ثالثًا، هُناك عملية جدال تقوم بها بترتيب البديهة لإقناع الشخص بأنَّ فعلًا ما خطأ أو صحيح. وأخيرًا، هُناك سُلطة تعمل كبديل للحجة، وإخبار شخص ما عن بعض الخطأ أو الصواب الذي لم يكتشفه، وقبلت بحق إذا كان لدى الشخص سببًا وجيهًا للاعتقاد بأنَّ السُلطة أكثر حكمة وأفضل من نفسه. فالفرق الرئيس بين العقل والضمير هو واحد مثير للقلق. إنَّه بالتالي: على الرغم من أنَّ الحدس الذي لا يمكن الدفاع عنه والذي يعتمد عليه الجميع عُرضة للفساد عن طريق العاطفة عندما نفكر في الحق والباطل، فإنَّها أكثر مسئوليَّة، ومن شبه المؤكد أنَّها فاسدة عندما نفكر في الخير والشر. لذلك نحن مهتمون ببعض الإجراءات التي يجب أنْ تكون هُنا ونقوم بها الآن أو نتركها تتراجع من قِبَل

www.christianlib.com

أنفسنا. ولا ينبغي لنا أنْ نفكر في هذا الإجراء على الإطلاق ما لم تكن لدينا رغبة في القيام بذلك أو عدم القيام به، بحيث يتم رشوتنا في هذا المجال منذ البداية. ومن ثم، فإنَّ قيمة السُلطة في التحقق، أو حتَّى الإلغاء، يكون نشاطنا الخاص في هذا المجال أكبر بكثير من نشاط العقل. وبالتالي، يجب أيضًا تدريب البشر على طاعة الحدس الأخلاقي قبل امتلاكهم له تقريبًا، وقبل سنواتٍ من كونهم عقلانيِّين بدرجةٍ كافيةٍ لمناقشتهم، أو سيتم إفسادهم قبل وصول وقت المناقشة.

هذا الحدس الأخلاقي الأساسي هو العنصر الوحيد في الضمير الذي لا يمكن الجدال حوله؛ إذا كان هُناك اختلافٌ في الرأي لا يظهر عن أحد الطرفين باعتباره أحمقًا أخلاقيًا، أذا فهذا ليس حدسًا. إنَّها التفصيلات النهائيَّة لإرادة الحب بدلًا من الكراهية والسعادة بدلًا من البؤس. هُناك أشخاص فاسدون لدرجة أنَّهم قد فقدوا حتَّى هذه، تمامًا كما يوجد أشخاص لا يمكنهم رؤية أبسط دليل، لكن بشكل عام يمكن القول إنَّ هؤلاء هم صوت الإنسانيَّة على هذا النحو. وهم غير قابلين للنقاش. لكن هُنا تبدأ المشكلة. حيث يدَّعي الناس باستمرار هذا الوضع الذي لا يمكن الدفاع عنه والذي لا يمكن الإجابة عليه للأحكام الأخلاقيَّة التي لا تشكل حدسًا حقيقيًا على الإطلاق، بل عواقب البعيدة أو التطبيقات الخاصَّة بها، وهيَ مفتوحة للمناقشة نظرًا لأن العواقب قد يتم رسمها بشكل غير منطقي أو يتم تطبيقها بشكل خاطئ.

وبالتالي، قد تقابل متعصبًا «امتنع عن شرب الخمر» يدَّعي أنَّ لديه حدسًا لا يمكن الإجابة عليه بأنَّ كل المشروبات المسكرة ممنوعة. حقًا لا يمكن أنْ يكون لديه شيء من هذا القبيل. الحدس الحقيقي هو أنَّ الصحة والانسجام جيدان. ثم هُناك تعميم من الحقائق إلى أنَّ السكر ينتج المرض والشجار، وربَّما أيضًا، إذا كان المتعصب مسيحيًا، فإنَّ صوت السُلطة يقول لك إنَّ الجسد هو هيكل الروح القدس. ثم هُناك استنتاج مفاده أنَّ ما يمكن إساءة استخدامه دائمًا من الأفضل ألَّا يستخدم أبدًا على الإطلاق - استنتاج مناسب تمامًا للمناقشة. أخيرًا، هُناك عملية حيث تقوم فيها الارتباطات المبكرة، والغطرسة، وما

www.christianlib.com

شابهها، بتحويل الاستنتاج عن بعد إلى شيء ما حيث يعتقد فيه الشخص أنَّه غير قابل للنقاش لأنه لا يرغب في الجدال حوله.

هذا هو أول شريعة لاتخاذ قرارات أخلاقيَّة. فالضمير بالمعنى (أ)، الشيء الذي يدفعنا إلى فعل الصواب، يتمتع بسُلطة مطلقة، لكن الضمير بالمعنى (ب)، حكمنا على ما هو صواب، هو مزيج من الحدس غير القابل للنقاش وعمليَّة التفكير القابلة للنقاش أو الخضوع إلى السُلطة؛ وليس هُناك ما يعامل كحدس ما لم يكن هذا الرجل الطيب لم يحلم به أبدًا. فالشخص الذي «يشعر فقط» بأنَّ الامتناع الكامل عن شرب الخمر أو الزواج هو شيء اضطراري يجب أنْ يعامل مثل الشخص الذي «يشعر بكل تأكيد» من أنَّ مسرحية هنري الثامن[1] ليست من تأليف شكسبير أو أنَّ اللقاح[2] غير مفيد. لمجرد قناعة غير موجودة عندما نتعامل فقط مع البديهيَّة؛ وهذه الآراء ليست بديهيَّة.

لذلك، أبدأ باستبعاد موقف سلمي واحد ربَّما لا يحمله أي شخص حاضر، لكن من الممكن تصوره - كموقف الرجل الذي يدَّعي معرفته على أساس الحدس الفوري بأنَّ جميع عمليات قتل البشر هيَ في كل الظروف شر مطلق. مع الرجل الذي يصل إلى نفس النتيجة عن طريق التفكير أو السُلطة، يمكنني القول. بالنسبة إلى الرجل الذي يدَّعي عدم الوصول إليه بل بالبدء هُناك، يمكننا فقط أنْ نقول إنَّه لا يمكن أنْ يكون لديه أي حدس كما يدَّعي. إنَّه يخطئ في الرأي، أو على الأرجح، العاطفة، للحدس. بالطبع، سيكون من الوقح أنْ أقول هذا له. يمكننا أنْ نقول فقط أنَّه لم يكن أحمقًا أخلاقيًا. فلسوء الحظ، فإنَّ بقية الجنس البشري، بما في ذلك أفضل حالاته وحكمته، فإنَّ عبور هذه الحجة في مثل هذه الهوة أمر مستحيل.

بعد أنْ أُستبعدت هذه الحالة القصوى، أعود إلى الاستفسار عن كيفيَّة

---

١ مسرحية هنري الثامن: مسرحية من خمسة فصول يدرس فيها شكسبير العصر السابق مباشرة لعصره من خلال البلاط الإنجليزي عهد الملك هنري الثامن، ويصور تفاصيل طلاقه وزواجه الثاني وتمرده على السلطة الدينيَّة التي تشاركه الحكم. (المترجم)

٢ اللقاح هو مستحضر بيولوجي، يقدم المناعة الفعالة المكتسبة تجاه مرض معين. (المترجم)

www.christianlib.com

اتخاذ قرار بشأن مسألة الأخلاق. لقد رأينا أنَّ كل حكم أخلاقي ينطوي على حقائق، وحدس، ومنطق، وإذا كنَّا حكماء بها يكفي لأن نكون متواضعين، فسيشمل ذلك بعض الاحترام للسُلطة. فقوتها تعتمد على قوة هذه العوامل الأربعة. وبالتالي، إذا وجدت أنَّ الحقائق التي أعمل عليها واضحة ومتنازع عليها قليلًا، وأنَّ الحدس الأساسي هو بلا شك حدس، وأنَّ المنطق الذي يربط هذا الحدس بحكم معين قوي، وأنَّني متفق عليه أو (في الأسوأ) ليس في خلاف مع السُلطة، لذلك يمكنني أنْ أثق في تقديري الأخلاقي بثقة معقولة. بالإضافة إلى ذلك، إذا وجدت، سببًا قليلًا لنفترض أنَّ أي انفعال قد أثر سرًا في ذهني، وتمَّ تأكيد هذه الثقة. من ناحية أخرى، إذا وجدت الحقائق مشكوك فيها، فإنَّ الحدس المفترض ليس واضحًا على الإطلاق لجميع الرجال الطيبين، والمنطق ضعيف، والسُلطة ضدي، عندها يجب أنْ أستنتج أنَّني مخطئ على الأرجح. وإذا تبيَّن أنَّ الاستنتاج الذي توصلت إليه يُثير بعض العاطفة القويَّة الخاصَّة بي، فيجب أنْ يتعمق شكوكي في اليقين الأخلاقي. وأقصد بعبارة «اليقين الأخلاقي» درجة اليقين المناسبة للقرارات الأخلاقيَّة؛ فلست هُنا للبحث عن اليقين الرياضي! أنا الآن أطبِّق هذه الاختبارات على الحكم، «فمن غير الأخلاقي أنْ أُطيع المجتمع المدني الذي أنا عضو فيه عندما يأمرني بالخدمة في الحروب».

أولًا بالنسبة إلى الحقائق. الحقيقة الرئيسة ذات الصلة التي اعترفت بها جميع الأطراف هيَ أنَّ الحرب غير مقبولة للغاية. والخلاف الرئيس الذي حث عليه دعاة السلام كحقيقة هو أنَّ الحروب تضر دائمًا أكثر من أنْ تنفع. كيف يمكن معرفة ما إذا كان هذا صحيحًا؟ إنَّه ينتمي إلى فئة من التعميمات التاريخيَّة التي تحتوي على مقارنة بين العواقب الفعليَّة لبعض الأحداث والنتيجة التي يمكن أنْ تتبعها إذا لم يحدث هذا الحدث. «الحروب لا تنفع» تتضمن اقتراحًا بأنَّه

www.christianlib.com

إذا استسلم الإغريق إلى زركسيس[٣] والرومان إلى حنبعل[٤]، فإنَّ مسار التاريخ منذ ذلك الحين ربَّما قد يكون أفضل، لكن بالتأكيد ليس أسوأ مما كان عليه في الواقع؛ فقد كانت منطقة البحر المتوسط التي نجحت فيها القوة القرطاجيَّة الفارسيَّة، على الأقل، جيدة وسعيدة ومفيدة لجميع الأجيال القادمة مثل منطقة البحر المتوسط الفعليَّة الذي خلفت فيه القوة الرومانيَّة واليونانيَّة. إنَّ وجهة نظري ليست أنَّ هذا الرأي يبدو لي غير محتمل إلى حد كبير، بل وجهة نظري هيَ أنَّ كلا الرأيين مجرد تخمين. لا توجد طريقة يمكن تصورها لإقناع شخص بأي منهما. في الواقع، من المشكوك فيه عما إذا كان هُناك مفهوم كامل لـ«ما كان سيحدث؟» - هيَ احتمالات غير محققة - هيَ أكثر من مجرد أسلوب خيالي لإعطاء سرد خطابي حيوي لما حدث.

إنَّ الحروب التي لا تنفع ليست بعيدة عن كونها حقيقة يصعب اعتبارها رأيًا تاريخيًا. ولا يتم إصلاح الأمر بقول «الحروب الحديثة». كيف يمكننا أنْ نقرر ما إذا كان التأثير الكلي سيكون أفضل أو أسوأ لو كانت أوروبا قد خضعت إلى ألمانيا في عام ١٩١٤م؟ صحيح، بالطبع، إنَّ الحروب لا تفعل أبدًا، فنصف الخير الذي يقوله القادة المتحاربين بأنَّهم سيفعلونه. لا شيء يفعل نصف الخير على الإطلاق - ربَّما لا شيء يفعل نصف الشر على الإطلاق - وهذا هو المتوقع منه. وقد تكون هذه حجة قويَّة لعدم الترويج للدعاية المرتفعة للغاية. لكنها ليست حجة ضد الحرب. إنَّ أوروبا الجرمانيَّة في عام ١٩١٤ كانت شريرة، فإنَّ الحرب التي منعت ذلك الشر كانت مبررة حتَّى الآن. إنما نُسميها عديمة الفائدة لأنها لم تعالج الأحياء الفقيرة والبطالة مثل الخروج إلى

---

٣ الغزو الفارسي الثاني لليونان (٤٧٩ - ٤٨٠ ق.م) وقع خلال الحروب الفارسيَّة اليونانيَّة، الملك زركسيس الأول من بلاد فارس سعى إلى قهر كل اليونان. كان الغزو نتيجة مباشرة وإنْ كانت متأخرة لفشل الغزو الفارسي الأوَّل لليونان (٤٩٠ - ٤٩٢ق.م) معركة ماراثون (المترجم)

٤ حنبعل بن حملقار الشهير حنا بعل أو بهانيبال: (١٨٢ - ٢٤٧ ق.م) قائد عسكري قرطاجي ينتمي إلى عائلة (فينيقيَّة) عريقة، ويُنسب إليه اختراع العديد من التكتيكات الحربيَّة في المعارك التي ما زالت معتمدة حتَّى اليوم بلغ حنبعل أقصى الحدود المستحيلة لكي يهزم روما ويصبح مادة للأساطير حيث احتل معظم إيطاليا وحاصر روما ١٥ عامًا (المترجم)

www.christianlib.com

الرجل الذي نجح للتو في الدفاع عن نفسه من نمر يأكل الإنسان ويقول: «هذا ليس شيئًا جيدًا، شق قديم. هذا لم يعالج حقًا الروماتيزم[٥] الخاص بك!

بناءً على اختبار الواقع، أجد أنَّ الموقف السلمي ضعيف. يبدو لي أنَّ التاريخ مليء بالحروب المفيدة وكذلك الحروب عديمة الفائدة. إذا كان كل ما يمكن مواجهته مع ظهور المنفعة بشكل متكرر هو مجرد تكهنات حول ما يمكن أنْ يحدث، فلن أغير رأيي.

أنتقل بجانب الحدس. لا يوجد اعتراض في المناقشة بمجرد أنْ وجدنا ذلك؛ فلا يوجد سوى خطر التسبب في حدس ما هو في الحقيقة استنتاج، وبالتالي يحتاج إلى نقاش. نريد شيئًا لم ينازعه أي رجل صالح؛ نحن نبحث عن الأمور التافهة. يبدو أنَّ الحدس ذي الصلة هو أنَّ الحب جيد والكراهية سيئة، أو أنَّ المساعدة شيء جيد والإيذاء شيء سيء.

علينا أنْ نفكر فيما إذا كان التفكير يقودنا من هذا الحدس إلى استنتاج سِلمي أم لا. وأول شيء لاحظته هو أنَّ الحدس لا يمكن أنْ يؤدي إلى أي إجراء حتَّى يتم تقييده بطريقة أو بأخرى. لا يمكنك فعل الخير ببساطة للإنسان؛ يجب أنْ تفعل هذا أو ذاك الخير لهذا أو ذاك الرجل. وإذا فعلت هذا جيدًا، فلا يمكنك القيام بذلك في الوقت نفسه؛ وإذا قمت بذلك لهؤلاء الرجال، لا يمكنك أنْ تفعل ذلك أيضًا لهؤلاء. وبالتالي من البداية، يتضمن قانون فعل الخير عدم القيام ببعض الخير لبعض الرجال في بعض الأحيان. ومن هُنا فإنَّ تلك القواعد التي أعرف أنَّها لم تكن موضع شك أبدًا، هو إنَّنا ينبغي أنْ نساعد أحدًا وعدناه بتقديم المساعدة له بدلًا من الأخر، أو متبرعًا بدلًا من آخر ليس له مطالبات خاصة علينا، أو ابن بلد أكثر من شخص غريب، أو أقارب وليس مجرد ابن بلد. وهذا في الواقع يعني في الغالب مساعدة «أ» على حساب «ب»، الذي يغرق أثناء سحب «أ» من على متن الطائرة. وعاجلًا أم آجلًا، ينطوي

٥ الروماتيزم: هو مرض يُصيب العظام والمفاصل والأنسجة الرخوة، وهو يختلف عن طب العظام من حيث أنَّه لا يتدخل فيه العمليات الجراحيَّة وإنما يسعى لدراسة وتحديد أسباب المرض ومعالجته بالأدوية. (المترجم)

www.christianlib.com

الأمر على مساعدة «أ» عن طريق فعل درجة ما من العنف ضد «ب». لكن عندما يكون «ب» متضرر بسبب «أ»، يجب عليك إما أنْ تفعل شيئًا (حيث تعصي الحدس) أو يجب عليك أنْ تساعد إحدهما ضد الأخر. وبالتأكيد فإنَّ الضمير لا أحد يخبره أنْ يساعد «ب»، المذنب. لذلك، يبقى مساعدة «أ». حتَّى الآن بعيدة، افترض أنَّنا جميعًا متفقون. إذا لم تكن الحجة تنتهي باستنتاج مناهض للسِلم، فيجب اختيار واحد أو اثنين من أماكن التوقف. يجب عليك إما أنْ تقول إنَّ العنف ضد «ب» أمر قانوني فقط إذا توقف عن القتل، أو أنْ قتل الأفراد أمر قانوني بالفعل لكن القتل الجماعي للحرب ليس كذلك.

فيما يتعلق بالنقطة الأولى، أعترف بالاقتراح العام القائل بأنَّ العنف الأقل الذي تمَّ القيام به ضد «ب» هو الأفضل على الدوام، بشرط أنْ يكون فعالًا بنفس القدر في كبح جماحه وفي نفس الوقت صالح لجميع المعنيين، بمن فيهم «ب»، حيث تعتبر مطالبته أدنى من جميع المطالبات الأخرى المعنية لكنها غير معدومة. لكنني لا ألخص ذلك إلى أنَّ قتل «ب» هو خطأ دائم. في بعض الحالات – على سبيل المثال في مجتمع صغير معزول، قد يكون الموت هو الوسيلة الوحيدة الفعالة لضبط النفس. في أي مجتمع، قد يكون تأثيره على السكان، ليس فقط كرادع من خلال الخوف، لكن أيضًا كتعبير عن الأهمية الأخلاقيَّة لجرائم معينة، ذا قيمة. أما بالنسبة لـ «ب» نفسه، فأنا أعتقد أنَّ رجلًا سيئًا على الأقل من المحتمل أنْ يحقق نهاية جيدة في إلقاء الإعدام عليه بعد بضعة أسابيع من الجريمة كما هو الحال في مستشفى السجن بعد عشرين عامًا. أنا لا أقدم حججًا لإثبات أنَّ عقوبة الإعدام صحيحة بالتأكيد؛ أنا فقط أؤكد أنَّه ليس خطأ بالتأكيد؛ إنَّها مسألة قد يختلف فيها الرجال الصالحون.

فيما يتعلق بالموقف الثاني، يبدو أنَّ الموقف أكثر وضوحًا. فيمكن القول إنَّ المجرم يمكن التعامل معه بشكل مرض دون عقوبة الإعدام. ومن المؤكد أنَّه لا يمكن منع أمة بأكملها من أخذ ماً تريده إلَّا عن طريق الحرب. يكاد يكون من المؤكد استحواذ بعض المجتمعات من قِبَل مجتمعات أخرى معينة هو شرٌ كبيرٌ. ويبدو إنَّ المبدأ القائل بأنَّ الحرب هيَ دائمًا شر أكبر، ينطوي

www.christianlib.com

على أخلاقيات ماديَّة، وهيَ الاعتقاد بأنَّ الموت والألم هما أعظم شرور. أنا لا أعتقد أنَّها كذلك، لكني أعتقد أنَّه قمع ديني أعلى من قبل بصور أقل، أو حتَّى ثقافة علمانيَّة أعلى من قبل بصورة أقل، هو شر أكبر بكثير. كما أنَّني لم أتأثر كثيرًا بحقيقة أنَّ العديد من الأفراد الذين نهاجمهم في الحرب أبرياء. هذا يبدو، بطريقة ما، جعل الحرب ليست أسوأ بل أفضل. كل الرجال يموتون، ومعظم الرجال بائسون. يعتقد كلا الجنديين من الجانبَين المتقابلين أنَّ بلده على حق، في الوقت الذي تكون فيه أنانيته مُعلقة للغاية وإرادته للتضحية في الصعودِ، يجب أنْ يقتلوا [بعضهم] في معركة بسيطة، يبدو لي هذا بأي حال من الأحوال واحدة من أفظع الأشياء في هذا العالم الرهيب للغاية. بالطبع، يجب أنْ يكون أحدهم (على الأقل) مخطئًا. وبالطبع الحرب هيَ شرٌ عظيمٌ جدًّا. لكن هذا ليس السؤال. والسؤال هو ما إذا كانت الحرب هيَ أعظم شر في العالم، بحيث يكون أي وضع قد ينتج عن الخضوع هو بالتأكيد الأفضل. وأنا لا أرى أي حجج مقنعة حقًا لهذا الرأي.

هُناك محاولة أخرى للحصول على استنتاج سلمي من الحدس، وهو نوع سياسي وحسابي أكثر. الحرب شرٌ عظيمٌ، إنْ لم يكن أعظم شر. لذلك، نود جميعًا إزالته إذا استطعنا. لكن كل حرب تؤدي إلى حرب أخرى. لذلك يجب إزالة الحرب. يجب علينا أنْ نُزيد من دعاية عدد السلميِّين في كل أمة حتَّى تصبح كبيرة بما يكفي لردع تلك الأمة عن الذهاب إلى الحرب. هذا يبدو لي عمل وحشي. فالمجتمعات الليبراليَّة فقط هيَ التي تتسامح مع السلميِّين. في المجتمع الليبرالي، سيكون عدد السلميِّين كبيرًا بما يكفي لشل الدولة كدولة محاربة أم لا. إذا لم يكن كذلك، فهيَ لم تفعل شيئًا. أما إذا كانت كبيرة بما يكفي، فقد سلمت الدولة التي تتسامح مع السلميِّين إلى جارتها الشموليَّة التي لا تفعل ذلك. وهذا التوجه السلمي يسير في طريق مستقيم نحو عالم لا يوجد فيه دعاة سلام.

قد يُسأل عما إذا كان الأمل ضعيفًا، حيث أنَّ الأمل هو إلغاء الحرب عن طريق السلميَّة. لكن السؤال ينتمي إلى طريقة تفكير أجدها غريبة عني. إنَّ الأمر

www.christianlib.com

يتعلق بافتراض أنَّ المصائب الدائمة والكبيرة في حياة الإنسان يجب أنْ تكون قابلة للشفاء إذا استطعنا فقط إيجاد العلاج المناسب لها؛ وبعد ذلك يتم القضاء عليها ويستنتج أنَّ كل ما تبقى، مهما كان فغيرًا محتمل أنْ يثبت علاجه. وبالتالي فإنَّ التعصب الماركسي[٦]، والفرويدي[٧]، واليوجينيست[٨]، والروحانيِّين، والفيدراليِّين[٩]، والنباتيون[١٠]، وجميع البقيَّة. لكنني لم أتلقَ أي تأكيد بأنَّ أي شيء يمكننا القيام به سيقضي على المعاناة. أعتقد أنَّ أفضل نتائج يتم الحصول عليها من قِبَل أشخاص يعملون بهدوء في أهداف محدودة، مثل إلغاء تجارة الرقيق، أو إصلاح السجون، أو أعمال المصانع، أو السل[١١]، وليس من قِبَل أولئك الذين يعتقدون أنَّهم يستطيعون تحقيق العدالة الشاملة، أو الصحة أو السلام. أعتقد أنَّ فن الحياة يتكون في معالجة كل شر فوري قدر الإمكان. لتفادي أو تأجيل حرب معينة بسياسة حكيمة، أو لجعل حملة عسكريَّة أقصر

---

٦ نسبة إلى ماركس. (المترجم)

٧ نسبة إلى سيجموند فرويد. (المترجم)

٨ نسبة إلى اليوجينيا (eugenics): هو علم تحسين النسل وهو يعني بتطبيق أساليب ومفاهيم الانتقاء على الإنسان وحظى تحسين النسل بشعبيَّة واسعة في العقود الأولى من القرن العشرين، إلا أنَّه ارتبط فيما بعد بممارسات ألمانيا النازية مما أدى إلى تدهور سمعته كعلم. وفي الفترة بعد الحرب العالميَّة الثانية بات علم تحسين النسل محسوبًا على جرائم النازيين لكن بحلول نهاية القرن العشرين، ونتيجة التطور في علم الوراثة، عاد موضوع تحسين النسل وأهميته ووضعه الأخلاقي. (المترجم)

٩ نسبة إلى الاتحاديَّة أو الفيدراليَّة وهو شكل من أشكال الحكم تكون السلطات فيه مقسمة دستوريًا بين حكومة (مركزيَّة (أو حكومة فيدراليَّة أو اتحاديَّة ووحدات حكوميَّة أصغر (الأقاليم، الولايات)، ويكون كلا المستويين المذكورين من الحكومة معتمد إحدهما على الآخر ويتقاسمان السيادة في الدولة. (المترجم)

١٠ نسبة إلى النباتي: وهو نظام غذائي يعتمد على أكل النباتات ويستثني أكل اللحوم. (المترجم)

١١ السل أو الدرن: هو مرضٌ معدٍ شائع وقاتل في كثير من الحالات تُسببه سُلالات مختلفة من البكتيريا الفُطريَّة، وعادة الفُطريَّة السليَّة يُهاجم السل عادة الرئة. (المترجم)

www.christianlib.com

من حيث القوة والمهارة أو أقل فظاعة من قِبَل الرحمة على المحتل والمدنيين وهذا أكثر فائدة من جميع مقترحات السلام العالمي التي قدمت من أي وقت مضى؛ مثل طبيب الأسنان الذي يمكنه إيقاف وجع أسنان فهو لديه إنسانيَّة أفضل من كل الرجال الذين يعتقدون أنَّ لديهم مخططا لإنتاج سلالة صحيَّة تمامًا.

لذلك، لا أجد أي سبب واضح ومقنع للغاية لاستنتاج المبدأ العام للاستفادة من الاستنتاج الذي يُفيد بأنه يجب عليَّ العصيان إذا دعتني السُلطة القانونيَّة لأن أكون جنديًا. وأنتقل بعد ذلك إلى النظر في السُلطة. السُلطة إما خاصة أو عامة، ومرة أخرى إما إنسانيَّة أو إلهيَّة.

إنَّ السُلطة البشريَّة الخاصَّة التي تقع على عاتقي في هذا الأمر هيَ سُلطة المجتمع الذي أنتمي إليه. لقد قرر المجتمع في هذه القضية بإعلانه الحرب ضد النزعة السلميَّة بالذات، ومن خلال مؤسساته وممارسته لعدة قرون ضد النزعة السلميَّة عمومًا. إذا كنت مسالمًا، فإنَّ لديَّ آرثر[١٢] وألفريد[١٣]، وإليزابيث[١٤] وكروموبل[١٥]، والبول[١٦] وبورك[١٧] ضدي. لديَّ جامعتي ومدرستي ووالدي

١٢ الملك أرثر: أحد أهم الرموز الميثولوجيَّة في بريطانيا العظمى حيث يمثل الملكية العادلة في الحرب والسلم، ويُشكل الشخصيَّة المحوريَّة في دائرة الأساطير المعروفة باسم الحالة البريطانيَّة. (المترجم)

١٣ ألفريد نوبل: مهندس ومخترع وكيميائي سويدي، اخترع الديناميت في سنة ١٨٦٧ م ومن ثم أوصى بمعظم ثروته التي جناها من الاختراع إلى جائزة نوبل التي سُميت باسمه. (المترجم)

١٤ أليزابيث الأولى: (١٥٣٣:١٦٠٣م) هي ملكة إنجلترا وأيرلندا من ١٥٥٨ م حتَّى وفاتها لقبت بالملكة الفاضلة أو الملكة العذراء (المترجم)

١٥ أوليفر كروموبل (١٦٥٨-١٥٩٩م) قائد عسكري وسياسي إنجليزي، اعتبره نقاده أحد القادة الديكتاتوريين، يُعرف بأنه هزم الملكيين في الحرب الأهليَّة الإنجليزيَّة وجعل إنجلترا جمهوريَّة. (المترجم)

١٦ روبرت والبول: (١٦٧٦:١٧٤٥م) سياسي بريطاني تولى رئاسة الوزارة في بريطانيا من ١٧٢١ إلى ١٧٤٢ م (المترجم)

١٧ إدموند بيرك: (١٧٢٩:١٧٩٧م) مفكر سياسي أيرلندي من أشهر أعماله «تأملات حول الثورة في فرنسا» ١٧٩٠ م في التحذير من تبعات الثورة الفرنسيَّة التي حدثت في عهده، معبرًا عن امتعاضه من ولع الثوريين المثير للفتنة والاضطراب. (المترجم)

www.christianlib.com

ضدي. لديَّ أدب بلدي ضدي، ولا أستطيع حتَّى أنْ أفتح بيوولف[١٨]، أو شكسبير، أو جونسون[١٩]، أو وردزورث[٢٠] دون أنْ يتم تأنيبي. الآن، بالطبع، هذه السُلطة في إنجلترا ليست نهائيَّة. لكن هُناك فرق بين السُلطة الحاسمة والسُلطة التي ليس لها وزن على الإطلاق. قد يختلف الرجال فيما يتعلق بالوزن الذين يقدموه إلى السُلطة شبه المتفق عليه لإنجلترا. أنا لست معنيًا بتقييمه، لكنني معنيًا بالملاحظة أنَّه مهما كان وزنه فهو ضد السلام. وبطبيعة الحال، فإنَّ واجبي بأخذ هذه السُلطة في الاعتبار يزداد بسبب حقيقة أنَّني مَدين لهذا المجتمع من أجل ولادتي وتربيتي، وللتعليم الذي سمح لي أنْ أصبح مسالمًا، والقوانين المتسامحة التي سمحت لي أنْ أبقى كذلك. إنَّ الكثير للسُلطة البشريَّة الخاصَّة. فحكم السُلطة البشريَّة العامة واضح بنفس القدر. منذ فجر التاريخ وصولًا إلى غرق تيريس باي[٢١] (Terris Bay)، يردد العالم بحمد حروب الصالحين. ولكي أكون مسالمًا، يجب أنْ أكون في صحبة مع هوميروس[٢٢] وفيرجيل[٢٣]، مع أفلاطون وأرسطو، مع زرادشت[٢٤] والبهاغافاد غيتا[٢٥]، مع شيشرون[٢٦] ومونتين[٢٧]، مع أيسلندا ومصر. من خلال وجهة النظر هذه، أشعر

---

١٨ بيوولف: هي ملحمة شعريَّة وطنيَّة إنجليزيَّة قديمة تمتاز بأسلوب المعلى وهي أحد أهم أعمال الأدب الإنجليزي القديم. (المترجم)

١٩ صمويل جونسون: (١٧٠٩:١٧٨٤): هو أديب، وكاتب، وناقد، وشاعر بريطاني، له إسهامات هامة في الأدب الإنجليزي (المترجم)

٢٠ ويليام وردزورث: (١٧٧٠:١٨٥٠) شاعر إنجليزي. (المترجم)

٢١ تيريس باي: يعتقد أنَّه سفينة قد غرقت أثناء الحرب. (المترجم)

٢٢ هوميروس: شاعر ملحمي إغريقي أسطوري يُعتقد أنَّه مؤلف الملحمتين الإغريقيتين الإلياذة والأوديسة. (المترجم)

٢٣ فيرجيل: شاعر روماني. (المترجم)

٢٤ زرادشت: هو رجل دين إيراني، يُعد مؤسس الديانة الزرادشتيَّة. (المترجم)

٢٥ البهاغافاد غيتا: تُعد الكتاب الهندي المُقدَّس في الديانة الهندوسيَّة، وهي الحوار الذي جرى بين المبارك كريشنا وأرجونا عند بداية المعركة هو عبارة عن ٧٠٠ آية تقع في ثمانية عشر فصلا. (المترجم)

٢٦ شيشرون: كاتب روماني وخطيب روما المميز. (المترجم)

٢٧ ميشيل دي مونتين: (١٥٣٣:١٥٩٢م) أحد أكثر الكُتَّاب الفرنسيين تأثيرًا في عصر النهضة

www.christianlib.com

بإغراء تقريبًا للرد على السلميِّين كما رد جونسون على جولد سميث[٢٨]، «يا سيدي، إذا كنت لا تأخذ الرأي العالمي للبشريَّة، فليس لدي المزيد لأقوله.»

إنَّني أدرك أنَّه على الرغم من اعتقاد هوكر[٢٩] «إنَّ الصوت العام والدائم للرجال هو بمثابة قضاء الله نفسه»، إلَّا أنَّ الكثيرين الذين يسمعونه لن يعطوه أي ثقل. قد يكون لهذا التجاهل للسُلطة البشريَّة جذور. قد يأتي من الاعتقاد بأنَّ التاريخ البشري هو حركة بسيطة غير منحازة من الأسوأ إلى الأفضل – ما يسمى الإيمان بالتقدم – بحيث يكون دائمًا أي جيل أكثر حكمة في جميع النواحي من جميع الأجيال السابقة. بالنسبة لأولئك الذين يؤمنون بذلك، إنَّ أسلافنا قد حلوا محلهم ولا يبدو أنَّ هُناك شيئًا غير محتمل في الادِّعاء بأنَّ العالم بأسره كان مخطئًا حتَّى اليوم السابق (أمس) وأصبح الآن فجأة على صواب. أعترف مع هؤلاء الناس أنَّني لا أستطيع المجادلة، لأنني لا أشاركهم افتراضهم الأساسي. فالذين يؤمنون بالتقدم يلاحظوا أنَّ الموديل الجديد في عالم الآلات يحل محل القديم؛ ومن هذا يستنتجون نوعًا مماثلًا من السعادة الكاذبة في أشياء مثل الفضيلة والحكمة.

لكن قد يتم حذف السُلطة البشريَّة على أساس مختلف تمامًا. قد يكون، على الأقل من قِبَل مسيحي سلمي، أنَّ الجنس البشري قد سقط وفسد، لذلك حتَّى استجابة المعلمين البشريِّين العظماء والحكماء والأمم العظيمة المنفصلة على نطاق واسع في الزمان والمكان لا يعطي أي فكرة على الإطلاق للخير. إذا كان هذا الادِّعاء موجودًا، يجب أنْ ننتقل بعد ذلك إلى رأسنا الأعلى، وهيَ السُلطة الإلهيَّة.

سأعتبر السُلطة الإلهيَّة فقط من حيث المفهوم المسيحي. ومن الديانات

الفرنسي ورائد المقالة الحديثة في أوروبا. (المترجم)

٢٨ أوليفر جولد سميث: روائي إنجليزي أيرلندي وكاتب مسرحي وشاعر مشهور بروايته قس ويكفيلد وقصيدته الرعويَّة «القرية المهجورة». (المترجم)

٢٩ ريتشارد هوكر: قسيس ولاهوتي أنجليكاني إنجليزي ولد عام ١٥٥٤ وهو واحد من أشهر اللاهوتيين الإنجليز في القرن السادس عشر الميلادي وتوفي عام ١٦٠٠م. (المترجم)

www.christianlib.com

المتحضرة الأخرى أعتقد أنَّ واحدة فقط - البوذيَّة - هيَ حقا السلميَّة. وعلى أي حال أنا لست على علم جيد بها يكفي لمناقشتها لكي أربح. وعندما نتحول إلى المسيحيَّة، نجد أنَّ النزعة السلميَّة تعتمد بشكل شبه رسمي على أقوال الله نفسه. إذا كانت هذه الأقوال لا تؤسس الموقف السلمي، فمن العبث أنْ نحاول أنْ نبني ذلك على أساس الخطب المسيحيَّة العامة ككل. لأنني عندما أبحث هُناك عن الإرشاد، أجد سُلطة عامة ضدي. عند النظر إلى البيان الذي يُمثل سلطتي المباشرة بصفتي أنجليكانيًا، فهيَ المقالات التسعة والثلاثون، حيث أجدها مكتوبة بالأبيض والأسود «من المشرع للرجال المسيحيِّين، بناءً على أمر من الحاكم، ارتداء الأسلحة والخدمة في الحروب.» فالمعارضين قد لا يقبلوا ذلك؛ ثم يمكنني أنْ أشير لهم إلى تاريخ المشيخيِّين، وهو بأي حال من الأحوال غير سلمي. الباباويون[٣٠] قد لا يقبلوا هذا؛ ثم يمكنني أنْ أشير لهم على حكم توما الأكويني في ذلك «حتَّى عندما يدافع الأمراء بشكل قانوني عن أرضهم بالسيف ضد أي اضطرابات من الداخل، فيحق لهم الدفاع عنها بالسيف من الأعداء بدونهم.» أو إذا طلبت من السُلطة البابويَّة، فأنا أعطيكم القديس أوغسطينوس، «إذا كانت التلمذة المسيحيَّة تُدين الحروب بأكملها، فالنسبة إلى أولئك الذين طلبوا مشورة الخلاص في الإنجيل كان من المفترض أنْ يتم تقديم هذه الإجابة لهم أولًا، أنْ يتخلصوا من أسلحتهم وأنْ يسحبوا أنفسهم تمامًا من كونهم جنودًا، لكن ما قيل لهم حقًا كان: «لا تقم بالعنف ضد أي رجل وكن راضيًا عن راتبك، حيث هُناك ما يمنعهم من أن يكونوا راضين عن أجر الجندي المستحق، فقد منعهم من ذلك أنْ يتقاضوا رواتب كجنود «. لكن عند فحص الأصوات الفرديَّة، فلن تكون هُناك نهاية. جميع الهيئات التي تدَّعي أنَّها كنائس - أي الذين يدعون الخلافة البابويَّة ويتسلموا العقيدة - يباركون باستمرار ما يعتبرونه جيوشًا صالحة. الأطباء والأساقفة والباباوات - بما في ذلك، على ما أعتقد، البابا الحالي [بيوس الثاني عشر] - قاموا مرارًا وتكرارًا بتخفيض الموقف السلمي. لا نجد كلمة عن المسالمة في

٣٠ الباباويون: هم الأشخاص كاثوليكي المذهب. (المترجم)

www.christianlib.com

كتابات الرسل، والتي هيَ أقدم من الأناجيل وتتمثل فيها، إذا وجدت أي شيء، فتلك هيَ المسيحيَّة الأصليَّة التي تعتبر الأناجيل نفسها نتاجًا لها.

إنَّ القضيَّة المسيحيَّة بأكملها عن المسالمة تتأسس، إذن، على بعض الأقوال الدومينيكيَّة (الربانيَّة)، مثل «لا تقاوموا الشر: بل من لطمك على خدك الأيمن، فحول له الآخر أيضًا». أنا الآن أتعامل مع المسيحي الذي يقول أنَّ هذا يجب أنْ يؤخذ دون استحقاق. لست بحاجة إلى الإشارة - لأنه تمَّ بلا شك الإشارة إليك من قبل - أنَّ مثل هذا المسيحي مضطر أنْ يأخذ كل أقوال الله الصعبة الأخرى بالطريقة نفسها. أما بالنسبة إلى الرجل الذي فعل ذلك، الذي أعطى في كل مناسبة لجميع الذين يسألونه، وأخيرًا أعطى كل ما لديه إلى الفقراء، فإنَّه سيحظى باحترام الجميع. مع مثل هذا الرجل فأنني يجب أنْ أختلف معه. لمن يعتقد أنَّه يستحق الإجابة على هذا الشخص غير المتسق الذي يأخذ كلمات الله بتفسير خاطئ فهو يوزع من ما يمتلكه عندما يكون الالتزام ممكنًا ويمتنع عنه عندما يطلب منه أنْ يصبح فقيرًا؟

هُناك ثلاث طرق في عملية تحويل الخد الأخر. الأوَّل، هو التفسير السلمي. وهذا يعني ما تقوله واجب وهو يفترض عدم المقاومة على جميع الرجال في جميع الظروف. الأخر، هو تقليل التفسير. وهذا لا يعني ما تقوله لكنه مجرد وسيلة شرقيَّة للقول إنَّه يجب عليك أنْ تتحمل الكثير وأنْ تكون هادئًا. أنت وأنا نرفض هذا الرأي. لذلك فإنَّ الصراع بين التفسير السلمي والتفسير الثالث الذي سأقوم بطرحه الآن. أعتقد أنَّ النص يعني بالضبط ما يقوله، لكن مع تحفظ في المفهوم لصالح تلك الحالات الاستثنائيَّة الواضحة التي يفترض أنْ يستمع إليها كل مستمع بشكل طبيعي لتكون استثناءات دون إخباره. أو لوضع نفس الشيء بلغة أكثر منطقيَّة، أعتقد أنَّ واجب عدم المقاومة مذكور هُنا فيما يتعلق بالإصابات البسيطة، لكن دون المساس بأي شيء، يتعين علينا أنْ نسمح في وقت لاحق بالإصابات الثانويَّة. بمعنى أنَّ العوامل الوحيدة ذات الصلة في القضيَّة هيَ ضرر لي من قِبَل جارتي ورغبتي في الانتقام، فأنا أؤمن بأنَّ المسيحيَّة هيَ التي تطلب الإبادة المطلقة لتلك الرغبة.

www.christianlib.com

لا يوجد إنصات للصوت الذي بداخلنا والذي يقول: «لقد فعل ذلك بي، لذلك سأفعل نفس الشيء له». لكن في اللحظة التي تستنبط فيها عوامل أخرى، بالطبع، يتم تغيير المشكلة. هل هُناك من يفترض أنَّ مستمعي الله فهموه على أنَّه يعني بأنَّ يكون مصاب بجنون القتل، محاولًا قتل طرف ثالث، وإذا حاول طردي بعيدًا، فيجب أنْ أقف جانبًا وأدعه يحصل على ضحيته؟ أعتقد على أي حال أنَّه من المستحيل أنْ يفهموه. أعتقد أنَّه من المستحيل بنفس القدر أن يفترضواً منه أنَّه يعني أنْ أفضل طريقة لتنشئة طفل هيَ السماح له بضرب والديه كلما كان في حالة مزاجيَّة سيئة، أو عندما يمسك بالمربي، لكي يعطيه العسل أيضًا. أعتقد أنَّ معنى الكلمات كان واضحًا تمامًا - «نظرًا لأنك مجرد شخص غاضب أُصيب بأذى، اكبح غضبك ولا ترد الضربة» - حتَّى، إذا افترضنا أنَّ شخصًا قاضيًا ضُرب بواسطة شخص عادي أو أحد الوالدين ضُرب بواسطة طفل أو معلمًا ضُرب من قِبَل تلميذ أو رجلًا عاقلًا ضُرب من قِبَل شخص مجنون أو جنديًا من قِبَل العدو، قد تكون واجباتك مختلفة تمامًا ومختلفة لأن [هُناك] قد تكون دوافع أخرى غير الانتقام المتعجرف لرد الضربة. في الواقع، نظرًا لأن الجمهور هم أشخاصًا عاديِّين في دولة منزوعة السلاح، فمن غير المرجح أنْ يكونوا قد افترضوا أنَّ الله كان يُشير إلى الحرب. لم تكن الحرب ما كانوا يفكرون به. كانت احتكاكات الحياة اليوميَّة بين سكان القرى على الأرجح في عقولهم.

هذا هو السبب الرئيس لتفضيل ذلك التفسير لك. أي قول يجب أنْ يؤخذ بمعنى أنَّه سيولد بشكل طبيعي في وقت ومكان الكلام. لكنني أعتقد أيضًا أنَّه، إذا أخذنا ذلك، فإنَّه يتوافق بشكل أفضل مع كلمات القديس يوحنا المعمدان مع الجنود ومع حقيقة أحد الأشخاص القلائل الذين مدحهم الله بدون تحفظ وهو قائد المئة الروماني. كما يسمح لي أنْ أفترض أنَّ العهد الجديد يتسق مع نفسه. فإنَّ القديس بولس يوافق على استخدام القاضي للقوة (رومية ١٣: ٤) وكذلك القديس بطرس (بطرس الأوَّل ٢: ١٤). إذا كانت كلمات الله تؤخذ بالمعنى غير المشروط الذي يطالب به المسالمون، فإنَّنا سنضطر بعد ذلك إلى استنتاج بأنَّ معنى المسيح الحقيقي، مخفيٌ عن أولئك الذين عاشوا

www.christianlib.com

في نفس الوقت وتحدثوا بنفس اللغة، والذين اختارهم هو نفسه كي يؤنوا رسله في العالم، وكذلك جميع من خلفهم، وتمَّ اكتشافه أخيرًا في عصرنا. أعلم أنَّ هُناك أشخاصًا لن يجدوا صعوبة في تصديق هذا النوع من الأشياء، تمامًا كما يوجد أشخاص مستعدون للحفاظ على هذا المعنى الحقيقي لأفلاطون أو شكسبير، المختبئين بشكل غريب عن معاصريهم وخلفائهم المباشرين، فقد حافظوا على عذريتها من أجل الاحتضان بجراءة واحد أو اثنين من الأساتذة الحديثة. لكنني لا أستطيع أنْ أطبق هذا على الأمور الإلهيَّة طريقة للتفسير التي سبق وأنْ رفضتها بازدراء في دراستي الدنيئة. فأي نظرية تستند إلى «يسوع التاريخي» من المفترض أنْ تكون قد خرجت من الأناجيل ومن ثم أقيمت بمعارضة التعاليم المسيحيَّة. كان هُناك الكثير من اليسوعيِّين التاريخيِّين - يسوع الليبرالي[٣١]، يسوع (pneumatic)[٣٢]، يسوع البارثي[٣٣]، يسوع الماركسي. إنَّهم المحصول الرخيص لكل قائمة الناشرين، مثل لوحة نابليون الجديدة والملكة فيكتوريا الجديدة. إنَّ الأمر لا يتعلق بهذه الأشباح التي أبحث عنها في إيماني وخلاصي.

إنَّ السُلطة المسيحيَّة، قد خذلتني في بحثي عن المسالمة. يبقى أنْ نتساءل عما إذا كان لا يزال يتعين عليَّ أنْ أشك في التأثير السري لأي شغف، إذا كنت لا أزال مُسالمًا. أرجو ألَّا تسيء فهمي هُنا. فأنا لا أعتزم الانضمام إلى أي من الانحرافات التي يتعرض لها هؤلاء المقنعون في الصحافة الشعبيَّة. دعني أقول في البداية أنَّني أعتقد أنَّه من غير المحتمل أنْ يكون هُناك شخص أقل شجاعة مني. لكن دعني أقول أيضًا أنَّه لا يوجد رجل فاضل على قيد الحياة بحاجة إلى

---

٣١ نسبة إلى اللاهوت الليبرالي. (المترجم)

٣٢ كلمة *pneumatic* تأتي من *Pneumatology* وهو فرع من فروع علم اللاهوت يهتم بدراسة الروح القدس. (المترجم)

٣٣ البارثي: نسبة إلى كارل بارث وهو عالم لاهوتي كالفيني سويسري فمنذ أنْ عمل راعيًا رفض أنْ يتدرب على اللاهوت الليبرالي الذي غلب على بروتستانتيَّة أوروبا في القرن الـ١٩، وبدلًا من ذلك فقد بدأ مسارًا لاهوتيًا جديدًا عُرف في البداية باسم اللاهوت الجدلي. (المترجم)

www.christianlib.com

أنْ يشعر بنفسه مُهانة عندما يُطلب منه التفكير في إمكانيَّة تشويه العاطفة عندما يكون الخيار بين الكثير من السعادة والكثير من البؤس. دعونا لا نخطئ. كل ما نخشاه من كل أنواع الشدائد، بشكل مفرط، يتم جمعه معًا في حياة جندي في الخدمة العسكريَّة. مثل المرض، فإنَّه يُهددنا بالألم والموت. مثل الفقر، يُهددنا بسوء السكن والبرد والحرارة والعطش والجوع. مثل العبوديَّة، فهيَ تهددنا بالكدح والإذلال والظلم واستبداد الحكم. مثل المنفى، فهو يفصلك عن كل من تحبه. مثله مثل السفينة الحربيَّة، فإنَّها تسجنك في أماكن قريبة مع رفقاء غير مناسبين. إنَّه يهدد كل شر دنيوي - كل شر ما عدا العار والهلاك النهائي، وأولئك الذين يتحملون مثل ذلك ليس أفضل مما تريد. ومن ناحية أخري، رغم أنَّه قد لا يكون خطأك، لكن من المؤكد أنَّها حقيقة تُهدد سلامك مقابل لا شيء تقريبًا. بعض الاحتجاجات العامة، نعم، من الأشخاص الذين كنت تتجاهل رأيهم والذين كان مجتمعهم لا يألفهم، سرعان ما يتم تعويضهم حتمًا بالاستحسان المتبادل الدافئ الموجود، في أي جماعة من الأقليات. أما بالنسبة إلى الباقي، فإنَّه يوفر لك استمراريَّة للحياة التي تعرفها وتحبها، بين الناس وفي المناطق المحيطة التي تعرفها وتحبها. ويوفر لك أيضًا الوقت لوضع أساسات لمهنتك. سواء كنت ترغب أم لا، فبالكاد تستطيع المساعدة في الحصول على الوظائف التي يتركها الجنود المفرج عنهم ذات يوم. لا يجب عليك حتَّى أنْ تخاف، لأنه ربَّما كان على السلميِّين أنْ يخافوا في الحرب الأخيرة، فإنَّ هذا الرأي العام سوف يعاقبك عندما يأتي السلام. تعلمنا الآن أنَّه على الرغم من بطء العالم في التسامح، إلَّا أنَّه سريع في النسيان.

إذن، هذا، هو السبب في أنَّني لست سلميًا. إذا حاولت أنْ أكون كذلك، أجد أساسًا واقعيًا مشكوكًا فيه للغاية، قطارًا غامضًا من التفكير، وثقلًا للسُلطة البشريَّة والإلهيَّة ضدي، وأسباب قويَّة للاشتباه في أنَّ أمنياتي قد واجهت قراراتي. كما قلت، لا تقبل القرارات الأخلاقيَّة كاليقين الرياضي. قد يكون، بعد كل هذا، أنَّ المسالمة صحيحة. لكن يبدو لي أنَّ هُناك احتمالات طويلة للغاية، احتمالات أطول مما كنت سأهتم به فإنَّ صوت البشريَّة تقريبًا كله ضدي.

www.christianlib.com

www.christianlib.com

الفصل الرابع
التحوُّل

في الكنيسة التي أنتمي إليها، وفي يوم إحياء ذكرى حلول الروح القدس على المسيحيِّين الأوائل بعد فترة وجيزة من الصعود. أريد التفكير في إحدى الظواهر التي رافقت أو صاحبت هذا الحلول: الظاهرة التي تُسميها ترجمتنا «التحدث بألسنة» والتي يُطلق عليها كما تعلمت (glossolalia). لن تفترض أنَّني أعتقد أنَّ هذا هو الجانب الأكثر أهميَّة في عيد العنصرة[1]، لكن لديَّ سببين لاختياره. في المقام الأوَّل، سيكون من السخف بالنسبة لي أنْ أتحدث عن طبيعة الروح المُقدَّس أو أعماله؛ سيكون ذلك محاولة لتدريسها عندما يكون لديَّ ما يقرب من كل شيء لأتعلمه. في المقام الثاني، كان التحدث بالألسنة في كثير من الأحيان حجر عثرة بالنسبة لي. إنَّها، بصراحة، ظاهرة محرجة. يبدو أنَّ القديس بولس نفسه كان محرجًا إلى حدٍّ ما في كورنثوس الأولى واجتهد ليحوِّل رغبة الكنيسة واهتمامها إلى مواهب أكثر وضوحًا للبنيان. لكنه لا يذهب أبعد من ذلك. وهو تقريبًا يلقي بتصريح اعتراضي بأنَّه هو بنفسه تحدث بألسنة أكثر من أي شخص آخر، وهولا يُشكك في مصدر هذه الظاهرة الروحيَّة أو الخارقة للطبيعة.

إنَّ الصعوبة التي أشعر بها من ناحية، ظلَّ التحدث بألسنة «مجموعة متنوعة من التجارب الدينيَّة» المتقطعة حتَّى يومنا هذا. بين الحين والآخر نسمع أنَّه يوجد اجتماع مسيحي وواحد أو أكثر من الحاضرين ابتدأ يتكلم كلام غير مفهوم. لا يبدو أنَّ هذا الشيء للبنيان، وكل رأي غير مسيحي يعتبره نوعًا من الهستيريا[2]، أو هو خروج لا إرادي من الإثارة العصبيَّة. قد يُفسر قدر كبير

---

١ عيد العنصرة: هو عيد حلول الروح القدس على التلاميذ. (المترجم)
٢ الهستيريا: هو اضطراب عصبي. (المترجم)

www.christianlib.com

من الرأي المسيحي معظم الحالات بنفس الطريقة تمامًا؛ ويجب أنْ أعترف بأنَّه سيكون من الصعب جدًّا تصديق أنَّ الروح القدس يعمل في جميع الحالات. نحن نشك، حتَّى لو لم نكن متأكدين، في أنَّها عادة ما تكون من شأن الأعصاب. هذا هو جزء من المعضلة. ومن ناحية أخرى، لا يمكننا كمسيحيِّين أنْ نترك قصة عيد العنصرة أو أنْ ننكرها، وعلى أي حالٍ، كان التكلم بألسنة معجزةً. لأن الرجال لم يتحدثوا بلهجات بل بلغاتٍ غيرِ معروفة لهم، على الرغم من أنَّها معروفة لدى أشخاص أخرين حاضرين. والحدث برمته يُشكل جزءًا لا يتجزأ من نسيج قصة ميلاد الكنيسة. هذا هو الحدث نفسه الذي أخبر به الرب الكنيسة لكي تنتظره ـــ تقريبًا بالكلمات الأخيرة التي نطق بها قبل صعوده. يبدو، إذن، إنَّ نفس الظاهرة التي نقول عليها في بعض الأحيان أنَّها ليست طبيعيَّة فحسب، بل وحتَّى مرضيَّة في أوقات أخرى (أو على الأقل في وقت واحد أخر) هيَ أداة الروح القدس. وهذا يبدو في البداية مفاجئ للغاية ومفتوح للغاية للهجوم عليه. بالتأكيد سوف ينتهز المتشككون هذه الفرصة للتحدث إلينا عن نصل أوكام[٣]، لاتهامنا بمضاعفة الفرضيات. فإذا كانت معظم حالات التكلم بألسنة يتم تفسيرها بالهستريا، أليس من المحتمل (أنْ يسأل) أنَّ هذا التفسير يشمل الحالات المتبقية أيضًا؟

وبهذه الصعوبة أود أنْ أجلب بكل سرور القليل من السهولة إنْ أمكن. سأبدأ بالإشارة إلى أنَّ هذا ينتمي إلى فئة منَ الصعوبات. فالأقرب الموازي لها داخل تلك الفئة يُثار من خلال اللغة المثيرة، والصور التي نجدها عند الصوفيِّين فيها نجد مجموعة كاملة من التعبيرات - وبالتالي ربَّما من العواطف - التي تبقي معروفة لنا في سياق أخر، ولها في هذا السياق الأخر، أهميَّة طبيعيَّة واضحة. لكن في الكتابات الصوفيَّة يزعم أنَّ هذه العناصر لها سبب مختلف. ومرة أخرى، سيسأل المشككون عن سبب قبولنا تسع وتسعين حالة من هذه

٣ نصل أوكام: هو مبدأ منسوب إلى وليم الأوكامي وهو يجب لنا ألَّا نُكثر الموجودات بغير مسوغ، وهذا المبدأ نتيجة من نتائج قانون الاقتصاد وهو القول بـ«إنَّ الطبيعة لا تترك أقرب الطرق في أفعالها وترتكب الأعوص والأبعد»، كما قال ابن خلدون في مقدمته. (المترجم)

www.christianlib.com

اللغة التي لا ينبغي أنْ تعقد لتغطية المائة أيضًا. فالفرضيَّة القائلة بأنَّ التصوف هو ظاهرة مثيرة سوف تبدو له أكثر احتمالًا من أي احتمال أخر.

بعبارات عامة، فإنَّ مشكلتنا هيَ الاستمراريَّة الواضحة بين الأشياء الطبيعيَّة المعترف بها والأشياء التي نزعم أنَّها روحيَّة؛ المجيء الثاني سيعلن إنَّ حياتنا الفوق طبيعيَّة من جميع العناصر القديمة هيَ نفسها التي تشكل حياتنا الطبيعيَّة و(لا يبدو) غيرها. إذا كان قد تمَّ زيارتنا حقًا من خلال إعلان ما من وراء الطبيعة، فليس من الغريب جدًّا بأنَّ سفر الرؤيا يمد السماء بأشياء ليست هيَ سوى مقتطفات من التجربة الأرضيَّة (كالتيجان، والعروش، والموسيقى)، وهذا الحب الشديد لا يمكن أنْ يجد لغة سوى لغة العشاق، وأنَّ الطقوس التي يُشرعها المسيحيون هيَ اتحاد باطني يجب أنْ يتحول إلى الفعل القديم المألوف للأكل والشرب؟ ويمكنك إضافة أنَّ نفس المشكلة قد تظهر أيضًا على مستوى أقل، ليس فقط بين المستويات الروحيَّة والطبيعيَّة لكن أيضًا بين المستويات العليا والدنيا للحياة الطبيعيَّة. ومن ثم، يتحدى المتهكمون بشكل معقول مفهومنا الحضاري للفرق بين الحب والشهوة من خلال الإشارة إلى أنَّه عندما يتم قول كل شيء وفعله، عادة ما ينتهي في ما هو فعليًا ماديًا. وهم يتحدون بالمثل فالفرق بين العدالة والانتقام على أرض الواقع بأنْ ما يحدث أخيرًا للمجرم قد يكون هو نفس الشيء. في جميع هذه الحالات، دعونا نعترف بأنَّ الساخرين والمتشككين لديهم قضيَّة لا تحتاج إلى دليل ما لم يثبت العكس. ونفس الأفعال تظهر من جديد في العدالة وكذلك في الانتقام؛ فتحقيق الحب الإنساني والزواجي من الناحية الفسيولوجيَّة هو نفس الشهوة البيولوجيَّة فقط؛ واللغة الدينيَّة والصور، وربَّما العاطفة الدينيَّة أيضًا، لا تحتوي على أي شيء ما لم يتم استعارته من الطبيعة.

الآن يبدو لي أنَّ الطريقة الوحيدة لدحض النقد هُنا هيَ أنْ نظهر أنَّ القضيَّة التي لا تحتاج إلى دليل، ومقبولة في بعض الحالات التي نعرف فيها جميعًا (ليس بالإيمان أو بالمنطق، لكن من الناحية التجريبيَّة) في الواقع هيَ خطأ. فهل يمكننا العثور على مثال أعلى وأدنى حيث يكون المستوى الأعلى ضمن تجربة الجميع

www.christianlib.com

تقريبًا؟ أعتقد أنَّه ممكن. عند النظر في الاقتباس التالي من يوميات بيبس[٤]:

> مع زوجتي إلى منزل الملك لرؤية مسرحيَّة الشهيدة السعذراء[٥]؛ وإنَّه لمن دواعي سروري العظيم..... لكن ما كان يسعدني أكثر من أي شيء في العالم كله هي موسيقى الريح عندما ينزل الملاك، الذي هو حلوٌ لدرجة أنَّه أذهلني، بالفعل، وبكلمة واحدة، اختتم روحي حتَّى جعلني أشعر بالمرض حقًا، تمامًا كما كنت في السابق في حالة حب مع زوجتي... وهذا ما يجعلني مصممًا على ممارسة موسيقى الريح وجعل زوجتي تفعل الشيء ذاته.
>
> (٧٢ فبراير ٨٦٦١)

هُناك العديد من النقاط التي تستحق الاهتمام: إنَّ الإحساس الداخلي المصاحب للبهجة الجماليَّة الشديدة كان لا يمكن تمييزه عن الإحساس المصاحب لتجربتين آخريين، ألَّا وهما أنْ يكونا في الحب وأنْ يكونا، على سبيل المثال، في عبور قناة مضطربة؛ من هاتين التجربتين الآخريين، واحدة على الأقل عكس المتعة؛ فلا أحد يستمتع بدوار البحر[٦]؛ أنْ بيبس كان، على الرغم من ذلك، حريصًا على الحصول مرة أخرى على التجربة التي كان ملازمتها المثيرة مطابقًا لملازمات المرض غير السارة للغاية؛ لهذا السبب قرر متابعه موسيقى الرياح.

الآن قد يكون حقيقيًا بأنَّ الكثير منَّا لم يشاركوا تجربة بيبس بشكل كامل،

---

٤ يوميات بيبس: هو كتاب يوميات للكاتب والمؤلف الإنجليزي صموئيل بيبس ليست هذه اليوميات مجرد سجل عادي لأفكار كاتبها وأفعاله، بل هي عمل أدبي راقي يكشف في كل صفحة مقدرة كبيرة على اختيار الأساسيات والتفاصيل التي تعبر عن نبض الحياة في المجتمع اللندني في فترة كتابتها. (المترجم)

٥ مسرحية الشهيدة العذراء: هي مسرحية اشترك في كتابتها الكاتب المسرحي الإنجليزي ديكر توماس ميدلتون عام ١٦٢٢م مع الكاتب فيليب ماسنجر. (المترجم)

٦ دوار البحر: يقصد الكاتب هُنا بالغثيان. (المترجم)

www.christianlib.com

لكننا جميعًا اختبرنا هذا الشيء. بنفسي، أجد أنَّه في لحظة نشوة جماليَّة حادة، يحاول المرء الالتفاف والتأمل لما يشعر به المرء في الواقع، فلا يمكن للمرء أنْ يضع يده على أي شيء سوى الإحساس البدني. في حالتي هو نوع من الركلة أو الرفرفة في الحجاب الحاجز[٧]. ربَّما كان بيبس «مريض حقًا». لكن النقطة المهمة هيَ هذه: أجد أنَّ هذه الركلة أو الرفرفة هيَ بالضبط نفس الإحساس الذي يرافقني في الألم الكبير والمفاجئ. لا يمكن للتأمل الباطني[٨] أنْ يكتشف أي فرق على الإطلاق بين استجابتي العصبيَّة للأخبار السيئة واستجابتي العصبيَّة لمقدمة الناي السحري[٩]. إذا كان لي أنْ أحكم ببساطة عن طريق الأحاسيس، فيجب أنْ أتوصل إلى استنتاج سخيف بأنَّ الفرح والألم هما نفس الشيء، وأنَّ أكثر شيء أخشاه هو نفسه أكثر شيء أرغب فيه. فالتأمل الباطني لا يكتشف شيئًا مختلفًا أو أكثر في شخص عن آخر. وأتوقع أنَّ معظمكم، إذا كان معتادًا على ملاحظة مثل هذه الأشياء، فسوف تقومون بالإبلاغ عن نفس الشيء إلى حدٍّ ما.

الآن دعنا نخطو خطوة أبعد. هذه الأحاسيس - مرض بيبس ورفرفة حجابي الحاجز - لا يلازم فقط التجارب المختلفة تمامًا كالأشياء العرضيَّة أو الطبيعيَّة. فقد نكون على يقين تام من أنْ بيبس كره هذا الإحساس عندما أصبح في حالة مرضيَّة حقيقيَّة، ونحن نعرف من خلال كلماته الخاصَّة أنَّه كان يحب ذلك عندما يتعلق الأمر بموسيقى الرياح، لذلك اتخذ تدابير للتأكد بقدر الإمكان من الحصول عليها مرة أخرى. وأنا أيضًا أحب هذه الرفرفة الداخليَّة في سياق واحد وأطلق عليها المتعة، وأكرهها في مكان آخر وأطلق عليها

٧ الحجاب الحاجز: هو الطبقة العضليَّة الغشائيَّة التي تفصل بين الصدر والبطن. (المترجم)

٨ التأمل الباطني أو الاستبطان أو الفحص الباطني: هو تأمل باطني ينصب على ما يجري في عالم الشعور، ومنه الاستبطان التجريبي، وهو منهج نفسي يتلخص في أنْ يوضع شخص تحت اختبارات معينة ليصف شعوره في أثناء هذه التجربة. (المترجم)

٩ الناي السحري: هي أوبرا من فصلين قام بتأليف موسيقاها موتسارت عام ١٧٩١ م، أما النص الكلامي للأوبرا فقد قام بكتابته بالألمانيَّة شيكانيدير. (المترجم)

www.christianlib.com

البؤس. إنَّها ليست مجرد علامة على الفرح والألم؛ لكنها أصبحت مدلولًا. عندما تتدفق البهجة إلى الأعصاب، يكون هذا التدفق هو تحقيقه؛ وعندما يتدفق الألم، تكون هذه الأعراض الجسديَّة هيَ رعب التتويج. نفس الشيء الذي يجعل بأحلى قطرة كل ما في الكأس حلو ويجعل أيضًا بأقسى قطرة كل ما في الكأس مُر.

وهنا، أقترح، إنَّنا قد وجدنا ما نبحث عنه. فأنا أعتبر أنَّ حياتنا العاطفيَّة تكون «أعلى» من أحاسيسنا - ليس، بالطبع، أعلى من الناحية الأخلاقيَّة، لكن أكثر ثراءً وتنوعًا وأكثر دقة. وهذا مستوى أعلى يعرفه جميعنا تقريبًا. وأعتقد أنَّه إذا راقبت أي شخص بعناية العلاقة بين عواطفه وأحاسيسه، فسوف تكتشف الحقائق التالية: إنَّ الأعصاب تستجيب، وبشكل أكثر وضوحًا وروعة، إلى العواطف؛ إنَّ مواردها محدودة بدرجة كبيرة، وأنَّ الاختلافات المحتملة في الأحاسيس أقل بكثير من تلك الخاصَّة بالعاطفة؛ إنَّ الحواس تعوض عن ذلك باستخدام نفس الإحساس للتعبير عن أكثر من عاطفة - حتَّى، كما رأينا، في التعبير عن المشاعر المعاكسة.

في الحالات التي نميل فيها إلى الخطأ، نفترض أنَّه في حالة وجود تماثل بين نظامين، يجب أنْ يكون هُناك تشابه مقابل تشابه، فإذا كان A في النظام الأوَّل يجب أنْ يكون هُناك ما يمثله في النظام الأخر، وهكذا. لكن التشابه بين العاطفة والإحساس تُبين أنَّها ليست من هذا القبيل. ولا يمكن مطلقًا أنْ يكون هُناك تشابه من هذا النوع حيث النظام الأوَّل أكثر ثراءً من الأخر. وإذا كان النظام الأكثر ثراءً سيتم تمثيله في الأكثر فقرًا على الإطلاق، فيمكن أنْ يكون هذا فقط من خلال إعطاء كل عنصر في النظام الأكثر فقرًا أكثر من معنى. ويجب أنْ يكون تحول الأغنى إلى الأفقر، إذا جاز التعبير، جبريًا وليس حسابيًا. إذا كنت تريد أنْ تترجم من لغة بها مفردات كبيرة إلى لغة بها مفردات صغيرة، فيجب أنْ تستخدم عدة كلمات لها أكثر من معنى. وإذا كنت تريد الكتابة بلغة بها عشرين حرفًا من حروف العلَّة في الأبجديَّة مع خمسة أحرف حرفيَّة فقط، فيجب السماح لك بإعطاء كل من هذه الأحرف الخمسة أكثر من

www.christianlib.com

قيمة واحدة. وإذا كنت تصنع نسخة موسيقيَّة من بيانو لقطعة تمَّ تسجيلها في الأصل لأوركسترا، فيجب أنْ تكون نفس نوتة البيانو التي تمثل الفلوت[١٠] في المقطع الأوَّل هيَ نفسها التي تمثل الكمان في مقطع أخر.

فكما توضح الأمثلة، نحن جميعًا على دراية بهذا النوع من التحول أو التكيف من وسط أكثر ثراءً إلى وسط أفقر. المثال الأكثر دراية على الإطلاق هو فن الرسم. تكمن المشكلة هُنا في تمثيل عالم ثلاثي الأبعاد على ورقة مسطحة. والحل هو الرسم المنظوري[١١]، والمنظوري يعني أنَّه يجب علينا إعطاء أكثر من قيمة لشكل ثنائي الأبعاد. وبالتالي في رسم المكعب، نستخدم زاوية حادة لتمثيل ما هيَ الزاوية الصحيحة في العالم الحقيقي. لكن في أي مكان أخر، قد تُمثل الزاوية الحادة على الورقة ما هو بالفعل زاوية حادة في العالم الحقيقي، على سبيل المثال، مقدمة الرمح أو الجملون[١٢] في المنزل. نفس الشكل الذي يجب أنْ ترسمه لإعطاء خدعة للطريق المستقيم المتراجع من المشاهدة هو أيضًا الشكل الذي ترسمه لغطاء صغير. كما هو الحال مع الخطوط، وذلك مع التظليل. إنَّ ألمع ضوء في الصورة هو في الواقع المادي ورق أبيض عادي فقط، وهذا ما يجب أنْ تفعله للشمس أو للبحيرة في ضوء المساء أو للثلج أو للجنس البشري.

الآن سأقوم بعمل تعليقين على حالات التحول المعروضة علينا بالفعل:

١ – من الواضح أنَّه في كل حالة لا يمكن فهم ما يحدث في الوسط الأدنى إلَّا إذا كنَّا نعرف الوسط الأعلى. والحالة التي تفتقر إليها هذه المعرفة بشكل

---

١٠ الفلوت: آلة موسيقيَّة نفخيَّة مصنوعة من المعدن و غالبًا تكون من الفضة وأحيانًا من الذهب أو البلاتين ونادرًا من الخشب طولها ٦٦ سم ومجالها الصوتي ثلاثة أوكتافات. (المترجم)

١١ الرسم المنظوري: هو تمثيل الأجسام المرئيَّة على سطح منبسط (اللوحة)، لا كما هي في الواقع، لكن كما تبدو لعين الناظر في وضع معين وعلى بُعد معين من خلال زوايا رؤية مختلفة كما في الحقيقة. (المترجم)

١٢ الجملون: هو الجزء الأعلى من المثلث. ويستخدم المصطلح في الهندسة المعماريَّة لتعريف نوع من الأسقف للبيوت والمباني التي تعتمد على أن يكون السقف الخاص بها قائما بشكل هرمي، مكون من ضلعين أو ثلاثة أضلاع. يُعتبر هذا النوع من أنواع الأسقف هو الأكثر شيوعًا في الدول الأوروبيَّة ذات الطقس البارد والممطر. (المترجم)

www.christianlib.com

شائع هيَ الموسيقي. فالنسخة الموسيقيَّة للبيانو تعني شيئًا واحدًا للموسيقار الذي يعرف تسجيل الأوركسترا الأصليَّة، ولكنها تُعني شيئًا آخر للرجل الذي يسمعها ببساطة كمقطوعة بيانو. لكن الرجل الثاني سيكون في وضع غير مناسب أكبر لو لم يسمع أي أداة سوى بيانو وحتَّى يشك في وجود أدوات أخرى. أكثر من ذلك، نحن نفهم الصور فقط لأننا نعرف ونعيش في عالم ثلاثي الأبعاد. إذا استطعنا أنْ نتخيل بأنَّ مخلوقًا يمكن إدراكه من خلال بُعدين فقط، ومع ذلك يمكنه أنْ يكون على دراية بالخطوط كما لو كان هو الذي رسمه على الورقة، فسوف نرى بسهولة مدى استحالة فهمه. ففي البداية، ربَّما يكون على استعداد لقبول تأكيدنا على وجود عالم ثلاثي الأبعاد. لكن عندما أشرنا إلى الخطوط الموجودة على الورقة وحاولنا أنْ نوضح، قال، «هذا هو الطريق»، ولن يُجيب على أنَّ الشكل الذي كنَّا نطلبه منه أنْ يقبله ككشف عن عالمنا الغامض كان هو نفس الشكل، في أداءنا، وفي مكان آخر لا يعني سوى مثلث. وقريبًا، على ما أعتقد، سيقول: «تستمر في إخباري عن هذا العالم الآخر وأشكاله التي لا يمكن تصورها والتي تُسميها صلبة. لكن أليس من المشكوك فيه أنْ تتحول جميع هذه الأشكال التي تقدمها لي كصور أو انعكاسات للأشياء الصلبة تحت التدقيق لتكون ببساطة الأشكال القديمة ثنائيَّة الأبعاد لعالمي، كما كنت أعرفها دائمًا؟ أليس من الواضح أنَّ عالمك الآخر المتباهي، بعيدًا عن كونه النموذج الأصلي، هو حلم يستعير جميع عناصره من هذا العالم؟ »

٢- من المهم أنْ نلاحظ أنَّ كلمة رمزيَّة ليست كافية في جميع الحالات لتغطية العلاقة بين الوسط الأعلى وتحوله في الوسط الأدنى. وهو يغطي بعض الحالات بشكل مثالي، لكن ليس في حالات أخرى. وبالتالي فإنَّ العلاقة بين الكلام والكتابة هيَ علاقة رمزيَّة. فالأحرف المكتوبة موجودة فقط للعين، والكلمات المنطوقة للأذن فقط. وهُناك توقف كامل بينهما. إنَّهم ليسوا مثل بعضهم البعض، ولا يكون الواحد سببًا للآخر. الأوَّل هو مجرد علامة على الآخر ويدل عليه من خلال اتفاق. لكن الصورة لا تتعلق بالعالم المرئي بهذه الطريقة. فالصور جزء من العالم المرئي نفسه ولا تمثله إلَّا من خلال كونه جزءًا منه. رؤيتهم لها نفس المصدر. يبدو أنَّ أشعة الشمس والمصابيح الموجودة في

www.christianlib.com

الصور تلمع فقط لأن أشعة الشمس الحقيقيّة أو المصابيح تلمع فيهم؛ بمعنى أنّهم يلمعون كثيرًا لأنهم يلمعون قليلًا في عكس نماذجهم الأصليّة. لذلك، لا يرتبط ضوء الشمس في الصورة بأشعة الشمس الحقيقيّة، ببساطة لأن الكلمات المكتوبة يتم التحدث بها. إنّها علامة، لكنها أيضًا شيء أكثر من مجرد علامة، وإشارة فقط لأنها أيضًا أكثر من إشارة، لأن الشيء المعني موجود فيه بالفعل في وضع معين. إذا كان لا بد لي من تسمية العلاقة التي يجب أنْ أسميها ليست رمزيّة لكنها سريّة. لكن في حال بدأنا من ـــ من العاطفة والإحساس ـــ فهيَ أبعد من مجرد رمزيّة. لأنه، كما رأينا، فإنّ الإحساس نفسه لا يصاحبه فقط العواطف المتنوعة والمعاكسة، ولا يكتفي بالإشارة إليها، بل يصبح جزءًا منها. حيث تنحدر العاطفة جسديًا، كما، في الإحساس والهضم، فتحوّلها، وتنتقل بها، بحيث يكون نفس التشويق على طول الأعصاب فرحة أو معاناة.

لن أؤكد على ما أسميه تحول هو الوضع الوحيد الممكن حيث يمكن للوسيلة الأكثر فقرًا أنْ تستجيب إلى الأكثر ثراءً، لكنني أدَّعي أنّه من الصعب للغاية تخيل أي شيء آخر. لذلك، على الأقل، من غير المحتمل أنْ يحدث تحول للوسط الأعلى عندما يُعيد إنتاج نفسه في الوسط الأدنى. وبالتالي، قد انحرف عن الموضوع للحظة، يبدو لي أنّه من المحتمل جدًّا أنْ تكون العلاقة الحقيقيّة بين العقل والجسم هيَ علاقة تحول. نحن على يقين ما في هذه الحياة، بأنَّ الفكر يرتبط ارتباطًا وثيقًا بالدماغ. والنظريّة التي تعتقد ذلك، بأنّه مجرد حركة في الدماغ هي، في رأيي، هراءٌ، فإذا كان الأمر كذلك، فستكون هذه النظريّة بحد ذاتها مجرد حركة، أو حدث بين الذرات، قد يكون له سرعة واتجاه، لكن من غير المجدي استخدام عبارة «صواب» أو «خطأ». نحن مدفوعين إلى نوع ما من التشابه. لكن إذا افترضنا وجود تشابهات فرديّة، فهذا يُعني أنّه لدينا سمة تقريبا معقدة بشكل لا يصدق ومجموعة متنوعة من الأحداث في الدماغ. لكنني أدرك أنَّ العلاقة الفرديّة غير ضروريّة على الأرجح. فجميع الأمثلة التي لدينا تُشير إلى أنَّ الدماغ يمكن أنْ تستجيب - بمعنى ما، وتتوافق بشكل كافٍ ورائع - إلى مجموعة لا حصر لها من الوعي دون تقديم تعديل مادي واحد لكل تعديل فردي للوعي.

www.christianlib.com

ولكن هذا هو الخروج عن الموضوع. دعونا الآن نعود إلى سؤالنا الأصلي حول الروح والطبيعة، الله والإنسان. كانت مشكلتنا أنَّه في ما يدَّعي بأنَّ حياتنا الروحيَّة، تتكرر جميع عناصر حياتنا الطبيعيَّة، وما هو أسوأ من ذلك، يبدو للوهلة الأولى كما لو لم تكن هُناك عناصر أخرى موجودة. نرى الآن أنَّه إذا كانت الحياة الروحيَّة أكثر ثراءً من الطبيعيَّة (حيث لا يوجد شخص يؤمن بوجودها ينكر ذلك)، فهذا بالضبط ما يجب أنْ نتوقعه. والنتيجة الاستنتاجيَّة التي مفادها أنَّ الحياة الروحيَّة مستمدة حقًا من الطبيعة، أنَّها سراب أو إسقاط أو امتداد وهمي للطبيعة، وهو بالضبط ما يجب أنْ نتوقعه، لأنه كما رأينا، هذا هو الخطأ الذي سيكون ملتزمًا به الرائي الذي كان يعرف الوسط الأدنى في كل حالة تحولٍ. فالرجل الوحشي لا يستطيع أبدًا من خلال التحليل العثور على أي شيء إلا شهوة في الحب؛ ولن تتمكن الأرض المسطحة من العثور على أي شيء سوى الأشكال المسطحة في صورة ما؛ كما لا يمكن لعلم وظائف الأعضاء العثور على أي شيء في الفكر باستثناء الوخز بالمادة الرماديَّة[١٣]. فليس من الجيد ترويع الناقد الذي يتحول منهجه من الأسفل، عند الدليل المتاح له، فإنَّ استنتاجه هو الوحيد الممكن.

إنَّ كل شيء مختلف عندما تكون طريقة التحول من الأعلى، كما نفعل جميعًا في حالة الانفعال والإحساس أو العالم ثلاثي الأبعاد والصور، كما يفعل الرجل الروحي في الحالة التي ندرسها. فيمكن لأولئك الذين تحدثوا بألسنة، كما فعل القديس بولس، أنْ يفهموا جيدًا كيف تختلف تلك الظاهرة المُقدَّسة عن الظواهر الهستيريَّة – على الرغم من أنَّها مذكورة، لقد كانت بمعنى ما هيَ نفس الظاهرة تمامًا، مثلما جاء الإحساس نفسه إلى بيبس في الحب، والاستمتاع بالموسيقى، والمرض. فالأشياء الروحيَّة يتم تمييزها روحيًا. والرجل الروحي يحكم على كل شيء ويتم الحكم عليه من لا شيء.

لكن من يجرؤ أنْ يكون رجلًا روحيًا؟ بالمعنى الكامل، لا أحد منَّا. ومع

١٣ المادة الرماديَّة: هي أحد العناصر الأساسيَّة في الجهاز العصبي المركزي، تتكون من أجسام خلايا عصبيَّة وإسفنجات العصبونات. (المترجم)

www.christianlib.com

ذلك، فإنَّنا ندرك بطريقة أو بأخرى أنَّنا نقترب من فوق، أو من الداخل، أو على الأقل من بعض هذه التحولات التي تجسِّد الحياة المسيحيَّة في هذا العالم. مع أي شعور بعدم الجدارة، وأي شعور بالجرأة، يجب أنْ نؤكد أنَّنا نعرف القليل من النظام الفوقي الذي يتم تحوله. بطريقة ما، فإنَّ الإدِّعاء الذي نقوم به ليس ادِّعاء مذهل للغاية. نحن ندَّعي فقط أنَّنا نعرف أنَّ إخلاصنا الظاهر، بغض النظر عن أي شيء آخر، لم يكن مجرد نشاط شهواني، وأنَّ رغبتنا الواضحة في السماء، مهما كانت، لم تكن مجرد رغبة في طول العمر أو المجوهرات أو الروائع الاجتماعيَّة. ربَّما لم نحقق أبدًا ما وصفه القديس بولس بالحياة الروحيَّة. لكننا على الأقل نعرف، بطريقة خافتة ومربكة، بأنَّنا كنَّا نحاول استخدام الأفعال الطبيعيَّة والصور واللغة ذات القيمة الجديدة، على الأقل تمنينا التوبة التي لم تكن مجرد حصافة والمحبَّة التي لا تتمحور حول الذات. في أسوأ الأحوال، نحن نعرف ما يكفي عن الحياة الروحيَّة لنعرف أنَّنا لم نتمكن من تحقيق ذلك، كما لو أنَّ الصورة كانت تعلم ما يكفي من العالم ثلاثي الأبعاد لتدرك أنَّها كانت مسطحة.

ليس فقط من أجل التواضع (هذا، بالطبع) ما يجب أنْ نؤكده بأنَّ معرفتنا خافتة. أظن أنَّه، باستثناء معجزة الله المباشرة، لا يمكن للخبرة الروحيَّة أنْ تتقيد أبدًا بالتأمل الباطني. فإذا كانت عواطفنا لا تفعل ذلك (لأن محاولة اكتشاف ما نشعر به الآن لا تسفر عن أي شيء أكثر من أنَّه إحساس جسدي)، فإنَّ عمليات الروح القدس أقل من ذلك بكثير. إنَّ محاولة اكتشاف حالتنا الروحيَّة بالتحليل الاستبطاني هيَ بالنسبة لي شيئًا فظيعًا لا يكشف، في أحسن الأحوال أسرار روح الله وأسرارنا، لكن تحولاتهم في الفكر والعاطفة والخيال، والتي قد تكون في أسوأ الأحوال أسرع طريق للافتراض أو اليأس.

أعتقد أنَّ عقيدة التحول هذه توفر لمعظمنا خلفيَّة تشتد الحاجة إليها كفضيلة لاهوتيَّة للأمل. يمكن أنْ نأمل فقط لما يمكن أنْ نرغب فيه. والمشكلة هيَ أنَّ أي فكرة راشدة ومحترمة فلسفيًا -يمكننا تشكيلها من السماء- تضطر إلى إنكار حالة معظم تلك الأشياء التي ترغب فيها طبيعتنا. فليس هُناك

www.christianlib.com

شك في أنَّ الإيمان البسيط المبارك، أو إيمان الطفل أو البدائي لا يجد صعوبة. وهو يقبل دون استجوابات محرجة القيثارات[١٤] والشوارع الذهبيَّة ولم شمل الأسرة[١٥] التي يصورها كُتَّاب الترانيم. هذا الإيمان يتم خداعه، مع ذلك، بالمعنى الأعمق، لا يُخدع، لأنه يخطئ في الرمز الخاطئ للواقع، ومع ذلك فهو يدرك أنَّ السماء فرحٌ وعظمةٌ ومحبةٌ. لكن هذا مستحيل بالنسبة لمعظمنا. ويجب ألَّا نحاول، بالمكيدة، أنْ نجعل أنفسنا أكثر سذاجة مما نحن عليه. الرجل لا «يصبح كطفل صغير» عن طريق تصرفه الطفولي. ومن هُنا فإنَّ مفهومنا عن السماء يحتوي على إنكار دائم: لا طعام، لا شراب، لا جنس، لا حركة، لا مرح، لا أحداث، لا وقت، لا فن.

مقابل كل هذا، بالتأكيد، وضعنا شيء واحد إيجابي: رؤية الله والتمتع به. ونظرًا لأن هذا يُعد خير مطلق، فنحن نعتقد (حقًا) بأنَّه يفوق كل منهم. وهذا هو، واقع الرؤية المبهج سوف يفوق أو سيفوق، بشكل لا نهائي، واقع الإنكار. لكن هل يمكن لمفهومنا الحالي عن ذلك أنْ يفوق مفهومنا الحالي عن أولئك؟ هذا سؤال مختلف تمامًا. وبالنسبة إلى الكثير منَّا في كثير من الأوقات، سيكون الجواب هو لا. كيف يمكن أنْ يكون ذلك للقديسين العظام والمتصوفين لا أستطيع أنْ أخبرك. لكن بالنسبة إلى الآخرين، فإنَّ إدراك تلك الرؤية صعبٌ، وغير مستقر، واستنتاج شارد من لحظات قليلة وغامض في خبرتنا الأرضيَّة، في حين أنَّ فكرتنا عن الصالح الطبيعي المنفي هيَ فكرة حيَّة ومستمرة، ومُحملة بذكريات العُمر، بُنيت في أعصابنا وعضلاتنا وبالتالي في خيالنا.

وبالتالي فإنَّ السلبيات، إذا جاز التعبير، لها ميزة غير عادلة في كل منافسة مع هذه الإيجابيَّة الوحيدة. والأسوأ من ذلك، تواجدهم - والأكثر من ذلك

---

١٤ قيثارات: جمع قيثارة وهي آلة موسيقيَّة ذات أوتار. (المترجم)

١٥ لم شمل الأسرة: هي ترجمة للنص الإنجليزي (family reunion) بمعنى اللقاءات العائليَّة، وهي مناسبة يتجمع فيها العديد من أفراد الأسرة الممتدة. يتم في بعض الأحيان عقد اجتماعات لم الشمل بانتظام، على سبيل المثال في نفس التاريخ من كل عام. سيتم جمع شمل الأسرة لتناول وجبة، وبعض الترفيه والمناقشة. (المترجم)

www.christianlib.com

عندما نحاول بحزم قمعهم أو تجاهلهم - يفسدوا حتَّى هذه الفكرة الخافتة والخياليَّة عن الإيجابيَّة التي قد تكون لدينا. يبدو أنْ استبعاد الخير الأرضي هو السمة الأساسيَّة للخير الأعلى. نشعر، حتَّى لو لم نقل ذلك، أنَّ رؤية الله لن تحقق بل تُدمر طبيعتنا؛ هذا الخيال البائس غالبًا ما يقوم عليه استخدامنا لكلمات مثل «مُقدَّس» أو «طاهر» أو «روحي».

يجب ألَّا نسمح بحدوث ذلك إذا استطعنا منعه. يجب أنْ نؤمن ـــ وبالتالي نتخيل بدرجة ما - أنَّ كل نفي سيكون فقط هو الجانب العكسي للتحقيق. ويجب أنْ نعني بذلك تحقيق إنسانيتنا على وجه التحديد، وليس تحولنا إلى ملائكة أو استئثارنا للإله. لأنه على الرغم من أنَّنا سنكون «كملائكة» ونكون «مثلنا مثل» سيدنا، أعتقد أنَّ هذا يعني «مثل الشبيه المناسب للرجال» كأدوات مختلفة تلعب في نفس الهواء لكن لكل منها طريقته الخاصَّة. فإلى أي مدى ستكون حياة الرجل المقام حساسة، لا نعرف. لكنني أظن أنَّ الأمر سيختلف عن الحياة الحسيَّة التي نعرفها هُنا، ليس لأن الفراغ يختلف عن الماء أو الماء عن النبيذ، لكن حيث تختلف الزهرة عن المصباح، أو الكاتدرائيَّة عن الرسم المعماري. وهنا يساعدني نظام التحول.

دعونا نبني الخرافة. دعونا نتصور بأنَّ امرأة قد أُلقيت في زنزانة. حيث هُناك دببة وهيَ تُربي ابنها. يكبر الولد وهو لا يرى شيئًا سوى جدران الأبراج المحصنة، والقش على الأرض، وقطعة صغيرة من السماء تُرى من خلال فتحة شبكيَّة، وهيَ مرتفعة جدًّا بحيث لا تُظهر أي شيء سوى السماء. وكانت هذه المرأة التعيسة فنانة، وعندما سجنوها تمكنت من إحضار لوح رسم وعلبة من أقلام الرصاص. كما أنَّها لا تفقد أبدًا الأمل في الخلاص، فهيَ تُعلم ابنها باستمرار عن ذلك العالم الخارجي الذي لم يره أبدًا فهيَ تفعل ذلك إلى حد كبير من خلال رسم الصور له. بقلمها تحاول أنْ تُظهر له ما هيَ الحقول والأنهار والجبال والمدن والأمواج على الشاطئ. إنَّه صبيٌّ مطيعٌ ويبذل قصارى جهده لتصديقها عندما تخبره بأنَّ العالم الخارجي مثيرٌ للاهتمام والعظمة أكثر من أي شيء في الزنزانة. وفي بعض الأحيان ينجح. سيكون على ما يرام بشكل

www.christianlib.com

مقبول، حتَّى في يوم من الأيام، يقول شيئًا ما يعطي والدته وقفة. لمدة دقيقة أو دقيقتين وهم يتحاورون. وأخيرًا، فجَّر لها فكرة إنَّه عاش طوال هذه السنوات في ظل اعتقاد خاطئ. «لكن..» «ستقول وهيَ تلهث «لا تظن أنَّ العالم الحقيقي كان مليئًا بالخطوط المرسومة بالقلم الرصاص؟» يقول الصبي. «ماذا؟» «لا علامات قلم رصاص هُناك؟» وعلى الفور يصبح مفهومه الكامل عن العالم الخارجي شيئًا فارغًا. لأن الخطوط، التي كان يتخيلها بمفرده، قد تمَّ إنكارها الآن. ليس لديه أي فكرة عن ذلك الذي يستبعد ويستغني عن هذه الخطوط، لقد كانت هذه الخطوط مجرد تحول - رفرفة رؤوس الأشجار، ورقص الضوء على السياج، والحقائق ثلاثيَّة الأبعاد الملونة التي لم يتم تحديدها بالخطوط لكن تمَّ تعريف الأشكال الخاصَّة بهم في كل لحظة برقة الإحساس والكثرة والذي لا يمكن لأي رسم تحقيقه على الإطلاق. سيحصل الطفل على فكرة بأنَّ العالم الحقيقي أقل وضوحًا من صور والدته. في الواقع يفتقر إلى خطوط لأنه أكثر وضوحًا بشكلٍ لا يضاهى.

لذلك نحنُ «لا نعرف ماذا سنكون»؛ لكننا متأكدين من أنَّنا سنكون أكثر وليس أقل مما كنَّا على الأرض. خبراتنا الطبيعيَّة (الحسيَّة، العاطفيَّة، الخياليَّة) هيَ فقط مثل الرسم، مثل خطوط الأقلام على الورق المسطح. إذا اختفوا في الحياة الأخرى، فإنَّهم سوف يختفون فقط عندما يتلاشى خطوط الأقلام من المشهد الطبيعي الحقيقي، وليس كشعلة شمعة تمَّ إخمادها بل كشعلة شمعة تصبح غير مرئيَّة لأن شخصًا ما قد زال ما يحجبها، وتمَّ فتح العدسات لترى نور الشمس المشرقة.

يمكنك وضع ذلك بأي طريقة تريدها. يمكنك القول إنَّه من خلال تحول إنسانيتنا، وحواسنا وكل شيء، يمكننا جعلهم أداة تسامح. أو يمكنك القول إنَّ المكافآت السماويَّة من خلال التحول تتجسَّد في هذه الحياة في خبرتنا الزمنيَّة. لكن الطريقة الثانية وهيَ الأفضل. إنَّها الحياة الدنيا التي هيَ متناقصة، ورمزيَّة، وذابلة، (كما لو كانت) «نباتيَّة». إذا لم يتمكن الجسد والدم من وراثة المملكة، فذلك ليس لأنها قويَّة للغاية، وجافية للغاية، ومميزة للغاية، و«بارعة

www.christianlib.com

في الوجود». بل فهيَ واهية للغاية، وعابرة للغاية، ووهميَّة للغاية.

بهذا تكون قضيتي قد اكتملت كما يقول المحامون. لكن لدي أربع نقاط فقط لأضيفها:

١ - آمل أنْ يكون قد تمَّ توضيح مفهوم التحول إلى حدٍّ ما ، كما أسميه، وهو يختلف عن مفهوم آخر غالبًا ما يُستخدم لنفس الغرض - وهو مفهوم التطور. حيث يشرح التطور العقلي الاستمراريَّة بين الأشياء التي تدَّعي أنَّها روحيَّة والأشياء التي تُعتبر طبيعيَّة بقوله إنَّ الشخص يتحول ببطء إلى أخر. أعتقد أنَّ هذا الرأي يفسر بعض الحقائق، لكنني أعتقد أنَّه مرهقٌ للغاية. على أي حال، فهيَ ليست النظرية التي أطرحها. أنا لا أقول إنَّ الفعل الطبيعي للأكل بعد ملايين السنين يزهو بطريقة ما في السر المسيحي. أنا أقول إنَّ الواقع الروحي، الذي كان موجودًا قبل وجود أي مخلوقات أكلة، يعطي هذا الفعل الطبيعي معنىً جديدًا، وأكثر من معنى جديد: يجعله في سياق معين شيئًا مختلفًا. باختصار، أعتقد أنَّ هذه المناظر الطبيعيَّة الحقيقيَّة تدخل في الصور، وليست تلك الصور هيَ التي ستظهر يومًا ما في أشجار وعشب حقيقي.

٢ - لقد وجدت أنَّه من المستحيل، التفكير في ما أسميه تحول، وليس لي أنْ أسأل نفسي عما إذا كان قد يساعدنا ذلك على تصور التجسد. بالطبع إذا كانت عمليَّة التحول مجرد وسيلة رمزيَّة فلن تقدم لنا أي مساعدة على الإطلاق في هذه المسألة؛ على العكس من ذلك، سوف تؤدي بنا إلى ضلال تام، والعودة إلى نوع جديد من الدوسيتيَّة[١٦] (أو أنَّها ستكون فقط النوع القديم؟) وبعيدًا عن الواقع التاريخي الملموس تمامًا الذي هو محور كل أملنا وإيماننا وحبنا. لكن بعد ذلك، كما أشرت، فإنَّ التحول ليس دائمًا رمزيًا. بدرجات متفاوتة، يمكن بالفعل جذب الواقع الأدنى إلى الأعلى ويصبح جزءًا منه. الإحساس الذي

١٦ الدوسيتيَّة (Docetism): هي فلسفة ظهرت في القرن الثاني الميلادي وكانت متأثرة بالغنوصيَّة، وكانت تؤكد على أنَّ ناسوت (جسد) المسيح ليس له وجود حقيقي لأن الجسد مادي والمادة ليس لها وجود فعلي حقيقي في اعتقادهم، لكن عارضتها الكنيسة الأولى بشدةٍ واعتبرتها هرطقة. (المترجم)

www.christianlib.com

يصاحب الفرح يصبح نفسه فرحًا؛ بالكاد يُمكننا الاختيار لكن نقول «يُجسد الفرح». إذا كان الأمر كذلك، فأنا أتوقع أنْ أقترح، بالرغم من الشك الكبير وبأكثر الطرق المؤقتة، أنَّ مفهوم التحول قد يكون له بعض المساهمة في لاهوت التجسُّد - أو على الأقل في فلسفة التجسد. لأنه قيل لنا في إحدى العقائد إنَّ التجسُّد لم يقوم «بتحويل اللاهوت إلى جسد، بل بأخذ الناسوت إلى الله». ويبدو لي أنَّ هُناك تشابهًا حقيقيًا بين هذا وبين ما أسميه تحول: إنَّ الإنسانيَّة، التي لا تزال باقية، لا يتم احتسابها على أنَّها مجردة، لكن يتم جذبها بشكل حقيقي إلى الألوهة، يبدو لي مثل ما يحدث عندما ينجذب الإحساس (ليس في حد ذاته متعة) إلى الفرح الذي يصاحبه. لكنني أتحدث عن المعجزات وأقدم كل شيء إلى حكم اللاهوتيِّين الحقيقيِّين.

٣- لقد حاولت التأكيد على حتميَّة الخطأ الذي حدث في كل عمليَّة تحول من قِبَل شخص يقترب منها من خلال الوسط الأدنى فقط. تكمن قوة مثل هذا النقد في عبارة «فحسب» أو «لا شيء لكن». يرى كل الحقائق لكن ليس المعنى. حقا، لذلك، هو يدَّعي أنَّه قد رأى كل الحقائق. لا يوجد شيء آخر هُناك؛ باستثناء المعنى. لذلك، فيما يتعلق بالمسألة فهيَ تُشبه ما في اليد، وموقف الحيوان. ستلاحظ أنَّ معظم الكلاب لا تستطيع فهم الإشارة. أنت تُشير إلى القليل من الطعام على الأرض؛ الكلب، بدلًا من النظر إلى الأرض، يشم في إصبعك. الإصبع هو إصبع له، وهذا كل شيء. عالمه هو كل الحقيقة وليس له معنى. وفي فترة تهيمن فيها الواقعيَّة[١٧] الحقيقيَّة، سنجد أشخاصًا يتعمدون تحريض هذا الكلب مثل العقل. فالرجل الذي اختبر الحب من الداخل سوف يتعمد فحصه تحليليًا من الخارج ويعتبر نتائج هذا التحليل أكثر صدقًا من خبرته. يظهر الحد الأقصى لهذا الارتباط الذاتي في أولئك الذين لديهم، وعي، مثل بقيتنا، ومع ذلك يذهبون لدراسة الكائن الحي البشري كما لو أنَّهم لم يعرفوا

١٧ الواقعيَّة (realism): هي حركة نشأت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر في فرنسا، وتهتم الواقعيَّة بتصوير الأشياء والعلاقات، بصورة واضحة كما هي عليه في العالم الحقيقي الواقعي... وبتصوير الجوهر الداخلي للأشياء، وليس الجنوح إلى الفانتازيا أو الرومانسيَّة. (المترجم)

www.christianlib.com

أنَّه واعٍ. طالما استمر هذا الرفض المتعمد لفهم الأشياء السماويَّة، حتَّى إذا كان هذا الفَهم ممكنًا، فمن غير المنطقي التحدث عن أي نصر نهائي على الماديَّة[١٨]. إنَّ نقد كل تجربة أرضيَّة، والتجاهل الإرادي للمعنى والتركيز على الحقيقة، سيكون له دائمًا نفس المنطقيَّة. سيكون هُناك دائمًا دليل، وكل شهر دليل جديد، لإظهار أنَّ الدين هو نفساني فقط، والعدالة هيَ فقط حماية الذات، والسياسة هيَ فقط الاقتصاد، والحب هو فقط الشهوة، والتفكير نفسه هو فقط الكيمياء الحيويَّة الدماغيَّة.

٤- أخيرًا، أقترح أنَّ ما قيل عن التحول يُلقي ضوءًا جديدًا على عقيدة قيامة الجسد. لأنه بمعنى ما يمكن للتحول أنْ يقوم بعمل أي شيء. مهما كان الفرق بين الروح والطبيعة، بين الفرح الجمالي والرفرفة في الحجاب الحاجز، بين الواقع والصورة، فإنَّ عمليَّة التحول يمكن أنْ تكون بطريقتها الخاصَّة كافية. قلت قبل ذلك في رسوماتك أنَّه لديك فقط ورق أبيض واضح للشمس والغيوم والثلج والماء والجنس البشري. في المعني الأوَّل، كيف تكون غير كاملة بشكل مثير للشفقة! لكن في مكان آخر، كيف تكون كاملة. إذا رسمت الظلال بشكل صحيح، فإنَّ قطعة الورق الأبيض هذه، بطريقة غريبة، ستكون كأشعة الشمس الحارقة؛ سنشعر بالبرد تقريبًا عندما ننظر إلى الثلج الورقي ونُدفئ أيدينا تقريبًا على ورق النار. نرجو ألَّا نفترض، بالقياس المعقول، بأنَّه لا توجد تجربة للروح متسامية وخارقة للطبيعة، ولا توجد رؤية للإلوهيَّة نفسها قريبة جدًّا ومتجاوزة كل الصور والعواطف، بحيث لا يمكن أنْ يكون هُناك تشبيهات مناسبة لها على المستوى الحسي؟ ليس بمفهوم جديد لكن بالاجتياح المذهل لتلك الأحاسيس ذاتها التي لدينا الآن ذات المعنى، عبر التقييم، وليس لدينا أي تخمين ضعيف هُنا؟

---

١٨ الماديَّة (materialism): هي نوع من الفلسفة الأحاديَّة تتبنى فكرة أنَّ المادة هي المكون الأساسي للطبيعة، وأنَّ كل الأشياء، بما فيها الجوانب العقلانيَّة كالوعي، هي نتاج لتفاعلات ماديَّة. (المترجم)

www.christianlib.com

www.christianlib.com

الفصل الخامس
هل اللاهوت شِعرٌ؟

إنَّ السؤال الذي طُلب مني مناقشته الليلة - «هل اللاهوت شعرٌ؟» - وهذا ليس من اختياري. أجد نفسي، في الواقع، في موقف من أُسند إليه الامتحان، ويجب أنْ أطيع مشورة مُعلمي من خلال التأكد أولاً من معرفة معنى السؤال.

أقصد، باللاهوت، السلسلة المنهجيَّة للبيانات حول الله وعلاقة الإنسان به التي يقوم بها المؤمنون في أي دين. وفي ورقة أرسلها لي هذا النادي[1]، ربَّما أفترض أنَّ اللاهوت يُعني بشكل أساسي اللاهوت المسيحي. أنا أكثر جرأة على افتراض هذا الافتراض لأن شيئًا ما فكرت فيه بشأن الديانات الأخرى سُيظهر ما يجب أنْ أقوله. يجب أيضًا أنْ نتذكر أنَّ القليل من ديانات العالم لديها لاهوت. لم تكن هُناك سلسلة منهجيَّة في التصريحات التي وافق عليها اليونانيون في الإيمان بزيوس[2].

أما المصطلح الآخر، وهو الشِعر، من الصعب تعريفه، لكنني أعتقد أنَّه يمكنني تحمل السؤال الذي وضعه الممتحنين في عقلي دون تعريف. هُناك أشياء معينة أشعر بكل تأكيد من أنَّهم لم يسألوني عنه. لم يسألوني عما إذا كان اللاهوت مكتوبًا في أي أية. لم يسألوني عما إذا كان معظم اللاهوتيِّين أساتذة في الأسلوب «البسيط والحسي والعاطفي». أعتقد أنَّهم يعنون، «هل اللاهوت مجرد شِعرٌ؟» فقد يتم توسيع هذا الأمر: «هل يُقدم لنا اللاهوت، في أحسن الأحوال، فقط هذا النوع من الحقيقة، حسب بعض النقاد، يقدم لنا شِعرٌ؟» وأول صعوبة في

---

١ ما يقصده الكاتب بالنادي هُنا هو نادي سقراط، لأن هذا العنوان تمَّ مناقشته بواسطة الكاتب (سي إس لويس) في نادي سقراط في جامعة أكسفورد عام ١٩٤٤م (المترجم)

٢ زيوس: هو إله عند الإغريق يُسمى بأبو الآلهة والبشر. (المترجم)

www.christianlib.com

الإجابة على هذا السؤال في هذا الشكل هو أنَّه ليس لدينا اتفاق عام على معنى «الحقيقة الشعريَّة»، أو ما إذا كان هُناك بالفعل أي شيء من هذا القبيل. لذلك، سيكون من الأفضل استخدام فكرة غامضة ومتواضعة عن الشعر في هذه الورقة، مثل الكتابة التي تُثير الخيال وتُرضي جزءًا منه. وسأعتبر أنَّ السؤال الذي يتعين عليَّ الإجابة عليه هو: هل يستطيع اللاهوت المسيحي بجاذبيته -في قوته- على إثارة خيالنا وإرضائه؟ هل أولئك الذين يعتقدون أنَّهم يخطئون في التمتع الجمالي بالموافقة الفكريَّة أم بالموافقة لأنهم يستمتعون؟

في مواجهة هذا السؤال، أنتقل بطبيعة الحال لتفقد المؤمن الذي أعرفه أفضل من نفسي. والحقيقة الأولى التي اكتشفتها، أو يبدو أنِّي اكتشفتها، هو أنَّه بالنسبة لي على أي حال، إذا كان اللاهوت شِعر، فهو ليس شعرًا جيدًا.

سأعتبره شِعرٌ، أنَّ عقيدة الثالوث تبدو لي صعبة. فهيَ ليس لديها عظمة تجانس مفاهيم التوحيد الدقيقة ولا ثراء الشرك. إنَّ قدرة الله ليست، حسب ذوقي، ميزة شعريَّة. يُقاتل أودين[٣]،ضد أعداء ليسوا من جنسه والذين سيهزمونه في النهاية، له نداء بطولي لا يمكن أنْ يتمتع به إله المسيحيِّين. هُناك أيضًا بعض النقص حول الصورة المسيحيَّة للكون. إنَّ الحالة المستقبليَّة والأوامر للمخلوقات الفائقة الوجود، يتم الاحتفاظ بها ولا يتم تقديم سوى تلميحات عن طبيعتها. أخيرًا، والأسوأ من ذلك كله، أنَّ القصة الكونيَّة بأكملها، رغم أنَّها مليئة بالعناصر المأساويَّة، إلا أنَّها فشلت في أنْ تكون تراجيديا[٤]. تقدم المسيحيَّة عوامل الجذب لا للتفاؤل ولا للتشاؤم. إنَّها تُمثل حياة الكون على أنَّه يُشبه الحياة المميتة للرجال على هذا الكوكب - «من خيوط مختلطة، جيدة

٣ أودين: كبير الآلهة في الميثولوجيا النورديَّة، وزعيم آلهة الآسر ويُدعى بأبي الآلهة ويشتق اسمه من كلمة تعني الحماسة، الغضب، والشعر. ككافة الآلهة النورديَّة، فإنَّ اختصاصات أودين متعددة ومعقدة، فهو إله الحكمة والحرب والمعركة والموت، كما أنَّه من المتفق عليه كونه إلهًا للسحر، والتنبؤ، والشعر، والنصر، والصيد. (المترجم)

٤ تراجيديا: هي شكل من العمل الفني الدرامي يهدف إلى تصوير مأساة قد تكون مبنية على قصة تاريخيَّة. (المترجم)

www.christianlib.com

ومريضة معًا». إنَّ التبسيطات المهيبة لوحدة الوجود[٥] والتعقيدات الحيويَّة للوثنيَّة كلاهما يبدوا لي، بطرقهم المختلفة، أكثر جاذبيَّة. فإنَّ المسيحيَّة تفتقد فقط تناسق الأولي والتنوع اللذيذ من الآخر. بالنسبة لي أعتقد أنَّ هُناك شيئين يحب الخيال فعلهما. هو يحب احتضان الشيء تمامًا، ويأخذه بنظرة واحدة، ويراه كشيء متناغم ومتناسق، وذاتي التفسير. هذا هو الخيال الكلاسيكي. وقد تمَّ بناء البارثينون[٦] لذلك. كما أنَّه يحب أنْ يفقد نفسه في متاهة، أنْ يستسلم لما هو معقد. هذا هو الخيال الرومانسي. وقد كتب أورلاندو فوريوسو[٧] لذلك. لكن اللاهوت المسيحي لا يخدم بشكل جيد أي منهما.

إذا كانت المسيحيَّة مجرد أساطير، فإنَّني أجد الأساطير التي أؤمن بها ليست هيَ الأسطورة التي أحبها. أحب الأساطير اليونانيَّة أفضل بكثير، والأيرلنديَّة لا تزال أفضل، النرويجيَّة أفضل من جميعهم.

بعد أنْ فحصت نفسي، سأستفسر عن مدى تميز حالتي. فهيَ لا تبدو، بالتأكيد، حالة فريدة من نوعها. ليس من السهل على الإطلاق أنْ يكون خيال الرجال أكثر سعادة من غيرهم لتلك الصور فوق الطبيعيَّة التي يؤمنون بها. من القرن الثاني عشر إلى القرن السابع عشر، يبدو أنَّ أوروبا تفرح بالأساطير الكلاسيكيَّة. إذا كانت الأرقام واندفاع الصور والقصائد هيَ معيار الاعتقاد، فينبغي علينا أنْ نحكم بأنَّ تلك السنين كانت وثنيَّة، والتي نعرف أنَّها غير صحيحة.

يبدو كما لو أنَّ الخلط بين التمتع الخيالي والموافقة الفكريَّة، الذي يُتهم به

---

٥ وحدة الوجود (pantheism): هي الاعتقاد أنَّ الكون (أو الطبيعة) والله (أو الإلوهيَّة) حقيقة واحدة. (المترجم)

٦ البارثينون: معبد إغريقي بناه بيريكليس في أثينا على جبل الأكروبولس، ويعتبر هذا المعبد من أفضل نماذج العمارة الإغريقيَّة القديمة بناه الإغريق البارثينون في الفترة ما بين ٤٧٧:٤٣٢ ق.م. (المترجم)

٧ أورلاندو فوريوسو: أورلاندو الهائج هي ملحمة رومانسيَّة إيطاليَّة كتبها الشاعر لودوفيكو أريوستو وكان لها تأثيرًا واسعًا على الثقافة اللاحقة. ظهر أول إصدار في ١٥١٦ على الرغم من عدم نشر القصيدة في شكلها الكامل حتَّى ١٥٣٢م. (المترجم)

www.christianlib.com

المسيحيون، ليس شيئًا شائعًا أو سهلًا كما يفترض البعض. حتَّى الأطفال، في اعتقادي، نادرًا ما يعانون منه. إنَّه يُسعد خيالهم أنْ يتظاهروا بأنَّهم دببة أو خيول، لكنني لا أتذكر أنَّ أحدهم يشعر قط بأنَّه تحت تأثير الوهم. قد لا يكون حتَّى هُناك شيء ما في الاعتقاد ضد التمتع التام بالخيال؟ يبدو أنَّ الملحد الحساس والمثقف في بعض الأحيان يستمتع بالزخارف الجماليَّة للمسيحيَّة بطريقة يمكن للمؤمن أنْ يحسده عليها. من المؤكد أنَّ الشعراء العصريِّين يستمتعون بالآلهة اليونانيَّة التي لا أجد لها مثيل في الأدب اليوناني. ما هيَ المشاهد الأسطوريَّة في الأدب القديم التي يمكن مقارنتها للحظة مع هايبريون (Hyperion)[٨]؟ بمعنى ما، نحن نفسد الأساطير لأغراض إبداعيَّة من خلال الإيمان بها. فإنَّ الجنيات[٩] شائعة في إنجلترا لأننا لا نعتقد أنَّها موجودة؛ فهيَ ليست ممتعة على الإطلاق في أران[١٠] أو كونيمارا[١١].

لكن لا بد لي من الذهاب بعيدًا. لقد اقترحت أنَّ الاعتقاد يُفسد نظام الخيال «بمعنى ما». لكن ليس بكل المعاني. إذا كنت أؤمن بالجنيات، فمن المؤكد أنَّني سأفقد هذا النوع من المتعة التي أحصل عليها الآن عند قراءة حلم ليلة منتصف الصيف. لكن في وقت لاحق، عندما يصبح الإيمان بالجنيات شيء مرسخ كسكان الكون الحقيقي وتكون على اتصال تام بأجزاء أخرى من أفكاري، ستكون هناك متعة جديدة. أعتقد أنَّ التفكير في ما نعتبره حقيقي دائمًا، في عقول حساسة، كما أعتقد، يحضر بنوع معين من الرضا الجمالي - وهو نوع يعتمد بالضبط على واقعه الافتراضي. هُناك كرامة وعاطفة في حقيقة أنَّ

٨ هايبريون: هي قصيدة ملحميَّة مهجورة للشاعر الإنجليزي الرومانسي جون كيتس في القرن التاسع عشر. (المترجم)

٩ الجنيات: جمع جنيَّة وهي عبارة عن مخلوق أسطوري في التراث الشعبي الأوروبي. (المترجم)

١٠ أران: جزيرة أران الإسكتلنديَّة هي أكبر جزيرة في فيرث كلايد، في إسكتلندا. (المترجم)

١١ كونيمارا: كونيمارا هي منطقة ثقافيَّة في مقاطعة غالواي، في أيرلندا. تربط المنطقة ارتباطا وثيقًا بالثقافة الأيرلنديَّة التقليديَّة. (المترجم)

www.christianlib.com

هُناك شيء موجود. هكذا، كما أشار بلفور في كتابه «الإيمان بالله والإنسانيَّة» (كتاب صغير للقراءة)، هُناك العديد من الحقائق التاريخيَّة التي يجب ألَّا نُحييها من أجل فكاهته أو رثائه الواضح إذا افترضنا أنَّها اختراعات؛ لكن بمجرد اعتقادنا بأنَّهم حقيقيون، سيكون لدينا، بالإضافة إلى رضانا الفكري، فرحة جماليَّة معينة في فكرتهم. قصة حرب طروادة وقصة الحروب النابليونيَّة على حد سواء لها تأثير جمالي علينا. وتلك الآثار مختلفة. وهذا الاختلاف لا يعتمد فقط على تلك الاختلافات التي تجعلها مختلفة كقصص إذا لم نؤمن بذلك. إنَّ نوع السعادة التي تقدمه الحروب النابليونيَّة له اختلاف معين ببساطة لأننا نؤمن به. فكرة مؤمنة تشعر بأنَّها مختلفة عن فكرة غير مؤمنة. وهذه النكهة الغريبة للمؤمن لا تكون، في تجربتي، بدون نوع خاص من المتعة الخياليَّة. لذلك، من الصحيح تمامًا أنْ يتمتع المسيحيِّين بصورتهم العالميَّة، من الناحية الجماليَّة، بمجرد قبولها بالصورة الحقيقيَّة. كل رجل، في اعتقادي، يستمتع بالصورة العالميَّة التي يقبلها، نظرًا لأهميته ونهائيته، فهيَ بحد ذاته محفز جمالي. وبهذا المعنى، تصبح المسيحيَّة، وعبادة قوة الحياة، والماركسيَّة، والفرويديَّة «أشعار» للمؤمنين بها. لكن هذا لا يُعني أنَّ أتباعهم اختاروهم لهذا السبب. على العكس من ذلك، فإنَّ هذا النوع من الشعر هو نتيجة الإيمان وليس سبب الإيمان. إنَّ اللاهوت، بهذا المعنى، شِعرٌ لي لأنني أصدقه؛ وأنا لا أصدق ذلك لأنه شعرٌ.

إنَّ الاتهام بأنَّ اللاهوت هو مجرد شِعرٌ، إذا كان هذا يعني أنَّ المسيحيِّين يصدقونه لأنهم يجدونه، في وقت سابق للاعتقاد، هو الأكثر جاذبيَّة من الناحية الشعريَّة لجميع صور العالم، فهكذا يبدو لي غير معقول في أقصى الحدود. قد يكون هُناك دليل على هذه التهمة التي لا أعرفها، لكن الأدلة التي أعرفها هيَ ضدها.

بالطبع، أنا لا أؤكد أنَّ اللاهوت، حتَّى قبل أنْ تصدقه، هو مجرد قيمة جماليَّة. لكنني لا أجدها متفوقة في هذا الصدد على معظم منافسيها. عند التأمل لبضع لحظات في الادِّعاء الجمالي الهائل لمنافسها الرئيس المعاصر – ما قد نسميه

www.christianlib.com

على نحو مضبوط، النظرة العلميَّة[١٢]، صورة السيد [H. G.] ويلز والبقية. لنفترض أنَّ هذا خرافة، أليس هذا من أفضل الخرافات التي أنتجها الخيال البشري حتَّى الآن؟ يسبق المسرحيَّة الإجراءات البسيطة لكل المقدمات: فراغ لانهائي، والانتقال المضطرب إلى ما لا يعرفه. بعد ذلك، وبحلول مليون مليون فرصة – ما هيَ المفارقة المأساويَّة – تطفو الظروف عند نقطة واحدة من الزمان والمكان على هذا التخمير الصغير الذي هو بداية الحياة. يبدو أنَّ كل شيء ضد البطل الرضيع في مسرحيتنا – كما يبدو كل شيء ضد الابن الأصغر أو الابنة غير السيئة في بداية أي قصة خرافيَّة. لكن الحياة تربح بطريقة ما. مع معاناة لا حصر لها، رغم كل العقبات التي لا يمكن التغلب عليها، تنتشر، تتكاثر، تعقد نفسها، من الأميبا[١٣] إلى النبات، وحتَّى الزواحف، وحتَّى الثدييات. نحن نلقي نظرة سريعة على عصر الوحوش. تتجول التنينات على الأرض، وتلتهم بعضها البعض، وتموت. ثم يأتي موضوع الابن الأصغر وفرخ البط القبيح مرة أخرى. عندما بدأت شرارة الحياة الضعيفة والصغيرة وسط الأعمال العدائيَّة الضخمة من الجماد، والآن مرة أخرى، وسط الوحوش التي هيَ أكبر وأقوى منه، هُناك مخلوق يخرج عاريًا قليلًا، يرتجف، يرتعد، يخلط، لم ينتصب بعد، لا شيء واعد له، نتاج مليون مليون فرصة أخرى. ومع ذلك بطريقة ما سيزدهر. يصبح رجل الكهف مع ناديه وصوانه، يغمغم ويذمر فوق عظام أعدائه، ويجر زميله الذي يصرخ من شعره (لم أستطع أبدًا أنْ أفهم سبب ذلك)، يمزق أطفاله إلى قطع من الغيرة الشرسة حتَّى يبلغ أحدهم من العمر ما يكفي لتمزيقه، ويختبئ أمام الآلهة الرهيبة التي خلقها على صورته. لكن هذه هيَ فقط

١٢ أنا لا أقترح أنَّ العلماء الممارسين يؤمنون بها ككل. إنَّ الاسم المبهج «العافية» (الذي اخترعه عضو آخر أثناء المناقشة) كان أفضل بكثير من «النظرة العلميَّة». مبادئ النقد الأدبي (١٩٢٤)، الفصل الحادي عشر. (الكاتب)

١٣ الأميبا: هي إحدى أشكال الحياة وحيدة الخليَّة تتميز بشكلها غير المنتظم. متموريات الحركة أو باختصار الأميبا كثيرًا ما تستخدم من قبل علماء الأحياء بشكل متبادل، ويُشير المصطلح خصوصًا إلى الكائنات التي تتحرك باستخدام أرجل كاذبة. (المترجم)

www.christianlib.com

آلام النمو. انتظر حتَّى الفصل التالي. هُناك حيث أصبح رجلًا حقيقيًا. تعلم السيطرة على الطبيعة. العلم قد جاء وبدد خرافات الطفولة. أصبح أكثر وأكثر تحكم في مصيره. تمر بسرعة على الحاضر (لأنه ليس مجرد شيء حسب مقياس الوقت الذي نستخدمه)، فأنت تتبعه في المستقبل. أراه في الفعل الأخير، لهذا اللغز العظيم، لكن ليس المشهد الأخير. سباق أنصاف الآلهة[١٤] ألان يحكم الطائرة - وربَّما أكثر من الكوكب - بالنسبة إلى علم تحسين النسل قد أكد على أنَّ أنصاف الآلهة هيَ وحدها التي سوف تلد، والتحليل النفسي أكد أنَّهم لن يفقدوا أو يشوهوا إلوهيتهم، وكل ما تتطلبه الشيوعيَّةأنْ تكون الإلوهيَّة جاهزة في أيديهم. لقد اعتلى الإنسان عرشه. من الآن فصاعدًا، ليس لديه ما يفعله سوى ممارسة الفضيلة، لينمو في الحكمة، ليكون سعيدًا. والآن، بمناسبة السكتة الدماغيَّة النهائيَّة من عبقريته. إذا توقفت الأسطورة عند هذه النقطة، فقد يكون ذلك طفيفًا. سوف تفتقر إلى أعلى عظمة يمكن للخيال البشري أنْ يحققها. المشهد الأخير يعكس كل شيء. لدينا شفق الآلهة. طوال هذا الوقت، وبصمت وبدون توقف، وبعيدًا عن متناول القوة البشريَّة، كانت الطبيعة، العدو القديم، تلتهم بثبات. وسوف تبرد الشمس - سوف تبرد كل الشموس - وسوف ينهار الكون بأسره. سيتم نفي الحياة (كل شكل من أشكال الحياة)، دون أمل في العودة، من كل شبر من كل مساحة لانهائيَّة. ينتهي كل شيء في العدم، و«الظلام العالمي سيغطي كل شيء». وهكذا يصبح نمط الأسطورة واحدًا من أنبل ما يمكننا تصوره. إنَّه نمط العديد من المآسي الإليزابيثيَّة[١٥]، حيث يمكن تمثيل مهنة بطل الرواية بمنحنى صعودي بطيء ومن ثم يسقط

---

١٤ نصف إله (demigod): هو كائن إلهي أو خارق في الميثولوجيا الكلاسيكيَّة، وقد استخدم هذا المصطلح في طرق مختلفة في أزمنة مختلفة، ويصف شخصيَّة بلغت منزلة إلهيَّة بعد الموت، أو إله أقل مرتبة، أو بشر من نسل إله وإنسان، وتتصف شخصيَّة نصف إله بالخلود والأبديَّة. ومن أنصاف الآلهة جلجامش وهرقل. (المترجم)

١٥ نسبة إلى الملكة إليزابيث الأولى التي حكمت إنجلترا من ١٥٥٨ إلى ١٦٠٣. (المترجم)

www.christianlib.com

بسرعة، مع أعلى نقطة له في الفصل الرابع. ترونه يصعد ويصعد، ثم يحترق في خط الطول المشرق، ثم أخيرًا يندثر في الحطام.

مثل هذه الدراما العالميَّة تناشد كل جزء منَّا. فإنَّ النضالات المبكرة للبطل (موضوع تضاعف بشكل مبهج، لعبت أولًا بالحياة، ثم بالإنسان) يروق لسخائنا. فمستقبله العظيم يعطي مجالًا للتفاؤل المعقول، لأن الإغلاق المأساوي بعيد جدًّا لدرجة أنك لا تحتاج إلى التفكير فيه كثيرًا - نحن نعمل مع ملايين السنين. والإغلاق المأساوي نفسه يعطي هذا التجاهل، وتلك العظمة، التي تطالب بمواجهتنا، وبدونها قد يذبح كل الباقي. هُناك جمال في هذه الأسطورة التي تستحق أنْ تعامل معاملة شعريَّة أفضل من التي تلقاها؛ آمل أنْ يبلورها عبقري عظيم قبل التيار الفلسفي المتواصل الذي يغير كل شيء. أنا أتحدث بطبيعة الحال عن الجمال الذي تتمتع به سواء كانت صادقة أو لا. هُناك يمكنني التحدث من التجربة، لأنني، من الذين يؤمنون أنْ أقل من النصف ما يخبرني به عن الماضي، وأقل من أي شيء ما يخبرني به عن المستقبل، أنا متحمس للغاية عندما أفكر في ذلك. القصة الأخرى الوحيدة - ما لم تكن، في الحقيقة، تجسيدًا لنفس القصة ــ التي تحركني بالمثل هيَ خاتم النيبلنغين[١٦]. أنا أنهي العالم.

بالتالي، لا يمكننا، رفض اللاهوت، لأنه ببساطة لا يتجنب أنْ يكون شعرًا. جميع وجهات النظر تسفر عن أنَّ الشعر لأولئك الذين يؤمنون بها من خلال حقيقة مجردة الاعتقاد. وجميعهم تقريبًا لديهم مزايا شعريَّة معينة سواء كنت تصدقهم أو لا تصدقهم. هذا ما يجب أنْ نتوقعه. فالإنسان حيوان شاعري ولا يمس أي شيء لا يزينه.

مع ذلك، هُناك، خطان آخران من الأفكار التي قد تقودنا إلى اعتبار اللاهوت مجرد شِعرٍ، وهذه الأمور يجب أنْ أتناولها الآن. في المقام الأوَّل، أنَّه

١٦ خاتم النيبلنغين (Nibelung's Ring): هي سلسلة من أربع أوبراوات للملحن الألماني ريتشارد فاغنر مستوحاة من الميثولوجيا الجرمانيَّة والميثولوجيا الإسكندنافيَّة تحديدًا أنشودة النيبلنغين، وهي قصيدة من القرون الوسطى. (المترجم)

www.christianlib.com

بالتأكيد يحتوي على عناصر مشابهة لتلك التي نجدها في كثير من الديانات المبكرة وحتَّى الوحشيَّة. هذه العناصر في الأديان المبكرة تبدو لنا شِعرًا. السؤال هُنا معقد إلى حدٍّ ما . نحن نعتبر الآن وفاة وعودة بالدر[١٧] فكرة شاعريَّة، خرافيَّة. ونحن مدعوون لاستنتاج أنَّ موت المسيح وقيامته هو فكرة شاعريَّة وخرافيَّة. لكننا لا نبدأ فعلًا بحقيقة «كلاهما شعري» ومن ثم نقول «كلاهما خطأ». في اعتقادي أنَّ جزءًا من النكهة الشعريَّة التي تخيم على بالدر ترجع إلى حقيقة أنَّنا قد توصلنا بالفعل إلى عدم الإيمان به. لذلك هذا الكفر، وليس التجربة الشعريَّة، هو نقطة الانطلاق الحقيقيَّة للحجة. لكن ربَّما يكون هذا من فرط الدقة، بالتأكيد دقة، وسأترك الأمر على جانب واحد.

ما هو حقيقة الضوء الذي أُلقي على حقيقة أو زيف اللاهوت المسيحي من خلال وجود أفكار مماثلة له في الدين الوثني؟ أعتقد أنَّ الإجابة كانت جيدة للغاية قبل أسبوعين من قِبَل السيد براون. وبهدف المناقشة، نفترض، أنَّ المسيحيَّة حقيقيَّة؛ عندها يمكن تجنب كل المصادفات مع الديانات الأخرى فقط على افتراض أنَّ جميع الديانات الأخرى خاطئة مائة بالمائة. والتي، كما تتذكر، أجاب البروفيسور إتش إتش بريس بالاتفاق مع السيد براون وقالوا، «نعم». فمن هذه التشابهات، قد تستنتج أنَّ الأمر ليس أسوء بالنسبة إلى المسيحيِّين» لكنه «أفضل بالنسبة إلى الوثنيِّين». والحقيقة هيَ أنَّ هذه التشابهات لا تخبر شيئًا عن أو ضد حقيقة اللاهوت المسيحي. إذا بدأت من الافتراض بأنَّ اللاهوت غير صحيح، فإنَّ هذه التشابهات تتوافق تمامًا مع هذا الافتراض. فقد يتوقع المرء بأنَّ مخلوقات نفس النوع، التي تتواجه في نفس الكون، تجعل نفس التخمين كاذب أكثر من مرة. لكن إذا بدأت بافتراض أنَّ اللاهوت صحيح، فإنَّ التشابهات تبدو متناسبة بشكل جيد. يقول اللاهوت، بينما هُناك إضاءة خاصة للمسيحيِّين و(سابقًا) لليهود، هُناك أيضًا بعض الإضاءة الإلهيَّة التي يمنحها لجميع الناس. وإنَّ النور الإلهي، كما قيل لنا، «يضيء كل إنسان». لذلك، يجب

١٧ بالدر أو بالدير أو بالدور: إله الضوء والصفاء في الأساطير الإسكندنافيَّة وابن الإله أودين وزوجته فريغ وكان لديه عدة أخوة مثل ثور، وفالي. (المترجم)

www.christianlib.com

أنْ نتوقع أنْ نجد في مخيلة المُعلمين الوثنيِّين العظام ومؤلفين الأساطير لمحةً عن هذا الموضوع الذي نعتقد أنَّه مؤامرة القصة الكونيَّة بأكملها - موضوع التجسُّد والموت والقيامة. والاختلافات بين المسيحيِّين الوثنيِّين (بالدر، وأوزوريس، إلخ) والمسيح نفسه هيَ ما يجب أنْ نتوقع العثور عليه. فكل القصص الوثنيَّة تدور حول شخص يموت ويقوم، إما كل عام، أو لا أحد يعرف أين ولا أحد يعرف متى. وتدور القصة المسيحيَّة حول شخصيَّة تاريخيَّة، حيث كان إعدامه حقيقة مؤرَّخة بدقة تامة، تحت قاض روماني المسمى، والمجتمع الذي أسسه وهو في علاقة مستمرة معه حتَّى يومِنا هذا. ليس الفرق بين الباطل والحقيقة. إنَّه الفرق بين حدث حقيقي من جهة وبين أحلام خافتة أو هواجس لنفس الحدث من جهة أخرى. فهو مثل مشاهدة شيء يأتي تدريجيًا إلى التركيز. أولًا، يتدلى في غيوم الأساطير والطقوس الشاسعة والغامضة، ثم تتكثف وتنمو بقوة وبصورة صغيرة كحدث تاريخي في فلسطين في القرن الأوَّل. حيث يستمر هذا التركيز التدريجي حتَّى داخل التقليد المسيحي نفسه. وتحتوي الإصحاحات الأولى من العهد القديم على العديد من الحقائق في شكل أعتبره أسطوريًا، أو حتَّى أسطوريًا - معلقًا في الغيوم، لكن تدريجيًا تتكثف الحقيقة، بحيث يصبح أكثر وأكثر تاريخيَّة. من أشياء مثل سفينة نوح أو الشمس الواقفة على جبعون، وفساد البلاط الملكي نتيجة خطيَّة الملك داود. وأخيرًا، تصل إلى العهد الجديد، ويسود التاريخ الأسمى، وحقيقة التجسد. و«المتجسد» هُنا أكثر من مجرد استعارة. فهو ليس تشابهًا عارضًا، ورد من وجهة نظر الوجود، مذكور في شكل «الله أصبح إنسانًا»، بل ينبغي أنْ يكون، من وجهة نظر المعرفة الإنسانيَّة، في شكل «الأسطورة أصبحت حقيقة». حيث جاء المعنى الأساسي لكل الأشياء من «السماء» الأسطوريَّة إلى «أرض» التاريخيَّة. وبذلك، أفرغت نفسها جزئيًا من مجدها، كما أفرغ المسيح نفسه من مجده ليكون إنسانًا. هذا هو التفسير الحقيقي لحقيقة أنَّ اللاهوت، بعيدًا عن هزيمة خصومه بشعر متفوق، هو، من الناحية السطحيَّة لكن بالمعنى الحقيقي للكلمة، أقل شِعريَّة منهم. وهذا هو السبب في أنَّ العهد الجديد، بنفس المعنى، أقل شِعريَّة من القديم. ألم تشعر في الكنيسة غالبًا، إذا كان الدرس الأوَّل عبارة عن مقطع كبير، فإنَّ

www.christianlib.com

الدرس الثاني صغيرٌ نوعًا ما بالمقارنة - إذا ما يمكن للمرء أنْ يقول بذلك، مل؟ لذلك هو يجب أنْ يكون كذلك. هذا هو إذلال الأسطورة إلى حقيقة، من الله إلى إنسان، الموجود دائمًا في كل مكان، والذي لا يمكن تخيله، والذي لا يمكن فهمه، فقط يلمح في الحلم والمثل ويصبح شعيرة الطقوس الممثلة الصغيرة والمتينة - ليس أكبر من رجل يمكنه أنْ ينام في قارب تجديف على بحيرة الجليل. قد تقول، بعد كل هذا، لا يزال الشعر أعمق. لن أعارضك. فالإذلال يؤدي إلى مجد أكبر. لكن إذلال الله وتقلّص الأسطورة أو تكثيفها عندما تصبح حقيقة، هما أمران حقيقيان أيضًا.

لقد ذكرت للتو الرمز، وهذا يقودني إلى الرأس الأخير الذي سوف أفكر تحته عن تهمة «مجرد شعر». يتشارك اللاهوت بالتأكيد مع الشعر في استخدام اللغة المجازيَّة أو الرمزيَّة. فإنَّ الشخص الأوَّل من الثالوث ليس أبًا للثاني بالمعنى الحرفي. والشخص الثاني لم ينزل «إلى الأرض» مثل المظلي[18]، ولم يصعد إلى السماء مثل بالون، ولم يجلس حرفيًا على يمين الآب. إذن لماذا تتحدث المسيحيَّة كما لو أنَّ كل هذه الأمور قد حدثت؟ إنَّ اللاأدري[19] يعتقد أنَّه يفعل ذلك، لأن مؤسسي اللاأدريَّة كانوا يجهلون بسذاجة وكانوا يؤمنون بكل هذه العبارات حرفيًا، وقد واصلنا نحن المسيحيون فيما بعد استخدام نفس اللغة من خلال الخجل والمحافظة. فنحن مدعوون في كثير من الأحيان، كما يقول البروفيسور إتش إتش برايس، لرمي القذيفة والحفاظ على النواة.

هُناك سؤالان في هذا الأمر:

١- بماذا آمن المسيحيُّون الأوائل؟ هل اعتقدوا بالفعل أنَّ الله لديه قصرًا حقيقيًا في السماء وأنَّه استقبل ابنه على كرسي مزخرف موضوع قليلًا على يمينه؟ أو لم يفعلوا ذلك؟ الجواب هو أنَّ البديل الذي نقدمه لهم ربَّما لم يكن أبدًا

---

١٨ مظلي: نسبة إلى الرجل الذي يستخدم مظلة أو باراشوت في الهبوط. (المترجم)

١٩ اللاأدريَّة (Agnosticism): هو توجه فلسفي يُؤمن بأنَّ القيم الحقيقيَّة للقضايا الدينيَّة أو الغيبيَّة غير محددة ولا يمكن لأحد تحديدها، خاصة تلك المتعلقة بالقضايا الدينيَّة ووجود الله وعدَمِه وما وراء الطبيعة، والتي تُعتبر غامضة ولا يمكن معرفتها. (المترجم)

www.christianlib.com

حاضرًا في عقولهم على الإطلاق. بمجرد ما يكون موجودًا، نحن نعرف جيدًا بأي جانب من المبارزة نحطمه. بمجرد أنْ كانت قضية التجسيم[٢٠] معروضةً بشكل صريح على الكنيسة، أعتقد، في القرن الثاني، تمَّ إدانتها. فقد عرفت الكنيسة الجواب (بأنَّ الله ليس له جسد وبالتالي لا يجلس على كرسي). لكن حتَّى أثير السؤال، بالطبع، كان الناس لا يؤمنون بالإجابة السابقة ولا بإجابة أخرى. فلا يوجد خطأ أكثر إرهاقًا في تاريخ الفكر من محاولة تصنيف أجدادنا على هذا الجانب أو ذاك من التمييز الذي لم يكن في أذهانهم على الإطلاق. أنت تطرح سؤالًا لا توجد إجابة عليه. من المحتمل جدًّا أنَّ معظم المسيحيِّين الأوائل (وبالتأكيد ليس جميعهم) لم يفكروا أبدًا في إيمانهم بدون صور مُجسمة، وأنَّهم لم يكونوا واعين بشكل صريح، كما هو حديثًا، أنَّها مجرد صور. لكن هذا لا يعني على الأقل أنَّ جوهر إيمانهم كان معنيًا بالتفاصيل حول العرش السماوي. لم يكن هذا ما يقدرونه، أو ما كانوا على استعداد للموت من أجله. أي واحد منهم ذهب إلى الإسكندريَّة وحصل على تعليم فلسفي كان من شأنه أنْ يتعرف على هذه الصور في الحال لما كانت عليه، ولن يشعر بأنَّ إيمانه قد تمَّ تغييره بأي شكل من الأشكال. فقد كانت صورتي الذهنيَّة لكليَّة أوكسفورد، قبل أنْ أراها لأوَّل مرة، مختلفة تمامًا عن الواقع في التفاصيل الماديَّة. لكن هذا لا يُعني أنَّه عندما أتيت إلى أوكسفورد، وجدت تصوري العام لما تعنيه الكليَّة هو مجرد وهم. فكانت الصور الماديَّة قد رافقت تفكيري بشكل حتمي، لكنها لم تكن أبدًا ما كنت مهتمًا به بشكل رئيس، وكان الكثير من تفكيري صحيحًا بالرغم من ذلك. فما تعتقده عن شيء أول مرة هو ما تتخيله، بينما تفكيرك هو شيء آخر.

لم يكن المسيحيون الأوائل مثل الرجل الذي يخطئ في القذيفة والنواة مثله مثل الرجل الذي يحمل حبة البندق ولم يكسرها بعد. في اللحظة التي يتم فيها تكسيرها، يعرف الجزء الذي يجب التخلص منه. حتَّى ذلك الحين تمسك

٢٠ التجسيد أو التجسيم أو التشبيهيَّة (Anthropomorphism): هو إسناد النموذج أو الصفات البشريَّة إلى ما هو غير إنساني. (المترجم)

www.christianlib.com

بالبندق، ليس لأنك أحمق لكن لأنك ليس كذلك.

٢- نحن مدعوون لتأكيد إيماننا في شكل خالٍ من الاستعارة والرمز. والسبب في أنّنا لا نفعل ذلك هو أنّنا لا نستطيع. فيمكننا، إذا أردت، القول «دخل الله التاريخ» بدلاً من قول «نزل الله إلى الأرض». لكن، بطبيعة الحال، فإنّ كلمة «دخل» هيَ مجازيَّة مثل «نزل». لديك فقط استبدال الحركة الأفقيَّة أو غير المحددة للحركة الرأسيَّة. يمكننا أنْ نجعل لغتنا مملة. ولا يمكننا أنْ نجعلها أقل مجازيَّة. يمكننا أنْ نجعل الصور أكثر تشويشًا؛ ولا يمكننا أنْ نجعلها أقل تصويريَّة. ولا نحن وحدنا المسيحيِّين في هذا العجز. إليكم جملة من كاتب معادٍ للمسيحيَّة، دكتور إ. أ. ريتشاردز (I. A. Richards)[٢١] «فقط هذا الجزء بسبب الحدث العقلي الذي يسري من خلال النبضات (الحسيَّة) الواردة أو من خلال تأثير النبضات الحسيَّة الماضية يمكن أنْ يُعرف بذلك. لا شك أنَّ التحفظ يحتوي على مضاعفات «. إنَّ دكتور ريتشاردز لا يعني أنَّ هذا الجزء بسبب «يأخذ» تأثير المعنى الحرفي لكلمة يأخذ، ولا يفعل ذلك من خلال الدافع الحسي كما يمكنك أنْ تأخذ جزء من خلال المدخل. ففي الجملة الثانية «التحفظ يحتوي على تعقيدات»، لا يعني أنّه فعل دفاعي، أو مقعد محجوز في قطار، أو حديقة أمريكيَّة، أو هيَ بالفعل عن لف أو طي أو لف مجموعة من الملفات أو القوائم. بمعنى آخر، كل لغة عن الأشياء بخلاف الأشياء الماديَّة هيَ بالضرورة مجازيَّة.

لكل هذه الأسباب، إذن، أعتقد (على الرغم من أنّنا عرفنا حتَّى قبل فرويد أنَّ القلب مخادع) أنَّ أولئك الذين يقبلون اللاهوت لا يسترشدون بالضرورة إلى الذوق بدلاً من العقل. ففي كثير من الأحيان، لا تتوافق الصورة الواردة في كثير من الأحيان مع صور المسيحيِّين المتجمعين على شريط أضيق من الشاطئ، بينما يتصاعد المد الوارد في «العلم» إلى أعلى وأعلى مع تجربتي الخاصَّة. تلك الأسطورة الكبرى التي طلبت منكم الإعجاب بها قبل بضع دقائق ليست بالنسبة لي بدعة معادية تقتحم معتقداتي التقليديَّة. على العكس من ذلك، فإنَّ

٢١ مبادئ النقد الأدبي (١٩٢٤)، الفصل الحادي عشر. (الكاتب)

www.christianlib.com

علم الكونيات هو ما بدأت منه. عمق عدم الثقة والتخلي النهائي عن ذلك قبل فترة طويلة من اعتناقي المسيحيَّة. فقبل فترة طويلة من اعتقادي بأنَّ اللاهوت صحيح، كنت قد قررت بالفعل بأنَّ الصورة العلميَّة المشهورة على أي حال كانت خاطئة. والتناقض المركزي يُدمر ذلك تمامًا. إنَّها الصورة التي تطرقنا إليها قبل أسبوعين[٢٢]. فالصورة الكاملة تعلن أنَّها تعتمد على استنتاجات من الحقائق الملحوظة. وإنْ لم يكن الاستدلال صحيح، تختفي الصورة بأكملها. ما لم نكن على يقين من أنَّ الواقع في أقصى غمامة أو أبعد جزء يطيع قوانين الفكر للعالم البشري هُنا والآن في مختبره - وبعبارة أخرى، ما لم يكن السبب مطلقًا - فكلَ شيء في حالة خراب. مع ذلك، فإنَّ أولئك الذين يطلبون مني أنْ أصدق هذه الصورة العالميَّة يطلبون مني أيضًا أنْ أصدق أنَّ السبب هو ببساطة نتاج ثانوي غير متوقع وغير مقصود لمادة جافة عند مرحلة واحدة حيث تصبح بلا هدف ولا نهاية له. هُنا تناقض واضح. يطلبون مني في الوقت نفسه قبول الاستنتاج وتشويه الشهادة الوحيدة التي يمكن أنْ يستند إليها هذا الاستنتاج. الصعوبة بالنسبة لي هيَ شيء قاتل. وحقيقة أنك عندما تطرحه على العديد من العلماء، بعيدًا عن الحصول على إجابة، لا يبدو أنَّهم حتَّى يدركوا الصعوبة، ويؤكدوا لي بأنَّني لن أجد مأوى الفرس لكن اكتشفت مرضًا أساسيًا في طريقة تفكيرهم بالكامل منذ البداية. فالرجل الذي فهم الموقف من قبل مرغم من الآن فصاعدًا على اعتبار علم الكونيات العلمي، من حيث المبدأ، أسطورة أو خرافة؛ على الرغم من أنَّ هُناك الكثير من التفاصيل الحقيقيَّة التي يتم العمل به.

بعد ذلك لا يكاد يلاحظ صعوبات بسيطة. لكنه سيلاحظ صعوبات كثيرة وخطيرة. ليس من السهل الإجابة على نقد بيرغسون للداروينيَّة الأرثوذكسيَّة. وأكثر شيء مثير للقلق هو دفاع بروفيسور دي. إم. إس واتسون. لقد كتب[٢٣]

---

٢٢ في ٣٠ أكتوبر ١٩٤٤، عندما، قرأ الدكتور ديفيد إدواردز النادي السقراطي ورقة بعنوان «هل الإيمان بشخص الله متوافق مع المعرفة العلميَّة الحديثة؟» (الكاتب)

٢٣ مقتبسة من «العلوم وبي بي سي»، القرن التاسع عشر، أبريل ١٩٤٣. (الكاتب)

www.christianlib.com

عن «التطور نفسه» أنَّه مقبول من قِبَل علماء الحيوان، ليس لأنه قد لوحظ حدوثه أو... يمكن إثباته بالأدلة المتماسكة المنطقيَّة على أنَّه صحيح، لكن لأن البديل الوحيد، هو الخلق الخاص وهو أمر لا يُصدق. هل وصلنا إلى ذلك؟ هل يعتمد البناء الضخم للمذهب الطبيعي الحديث لا على دليل إيجابي، لكن ببساطة على تحيز ميتافيزيائي مسبق؟ هل تمَّ تصميمه لا للحصول على الحقائق بل للحفاظ على الله؟ ومع ذلك، حتَّى إذا كان للتطور بالمعنى البيولوجي الصارم أسس أفضل مما يقترحه البروفيسور واتسون - فلا يسعني التفكير في أنَّه يجب - يجب أنْ نميز التطور بالمعنى الدقيق للكلمة عن ما يمكن تسميته بالتطور العالمي للفكر الحديث. أعني بالتطور العالمي الاعتقاد بأنَّ الصيغة ذاتها للعمليَّة العالميَّة هيَ من النقص إلى الكمال، من البدايات الصغيرة إلى النهايات العظيمة، من البدائيَّة إلى التفاصيل، الاعتقاد الذي يجعل الناس يجدون أنَّه من الطبيعي الاعتقاد بأنَّ الأخلاق تنبع من المحرمات البدائيَّة، وعواطف البالغين من الاختلالات الجنسيَّة الطفوليَّة، والفكر من البديهة، والعقل من المسألة، والحيوي من غير الحيوي، والكون من الفوضى. ربَّما هذا هو أعمق عادة للعقل في العالم المعاصر. يبدو لي غير قابل للتصديق بدرجة كبيرة، لأنه يجعل المسار العام للطبيعة على عكس تلك الأجزاء من الطبيعة التي يمكننا ملاحظتها. تتذكر ذلك اللغز القديم فيما إذا كانت البومة جاءت من البيضة أم البيضة من البومة. إنَّ الإذعان الحديث في التطور العالمي هو نوع من الوهم البصري، ناتج عن طريق الاهتمام فقط بظهور البومة من البيضة. لقد تعلمنا منذ الطفولة أنْ نلاحظ كيف ينمو البلوط[1] المثالي من البلوط وبعدها ننسى أنَّ البلوط نفسه تمَّ إسقاطه بواسطة بلوط مثالي. يتم تذكيرنا دائمًا بأنَّ الإنسان البالغ كان جنينًا، وأنَّ حياة الجنين لم تأتِ أبدًا من شخصين بالغين. نحن نحب ملاحظة محرك القطار اليومي الذي ينحدر من «الصواريخ». ونحن لا نتذكر بنفس القدر بأنَّ «الصاروخ» لا ينبع من محرك أكثر بدائيَّة، لكن من شيء أكثر كمالًا وتعقيدًا من نفسه - أي شخص عبقري. وبالتالي، فإنَّ الوضوح أو الطبيعة التي يجدها

---

١ البلوط: شجرة من الفصيلة البلوطيَّة. (المترجم)

www.christianlib.com

معظم الناس في فكرة التطور الناشئ تبدو أنَّها هلوسة خالصة.

على هذه الأسس وأخرى مثلها، يُدفع المرء إلى الاعتقاد بأنَّ أي شيء آخر قد يكون صحيحًا، فإنَّ علم الكونيات العلمي على أي حال ليس بالتأكيد. تركت تلك السفسطة ليس بناءً على دعوة من الشعر لكن لأنني اعتقدت أنَّها لا يمكن أنْ تبقى عائمة. شيء ما مثل المثاليَّة الفلسفيَّة[٢] أو الإيمان بالله، في أسوأ الأحوال، يجب أنْ يكون أقل زورًا من ذلك. والمثاليَّة قد تحولت، فعندما تأخذ الأمر بجديَّة، تكون متنكرة في الإيمان بالله. وبمجرد قبول الإيمان بالله، لا يمكنك أنْ تتجاهل مطالبات المسيح. وعندما فحصتهم بدا لي أنَّه لا يمكنك أنْ تتبنى الموقف الوسطي. إما أنَّه كان مجنونًا، أو هو الله. وهو لم يكن مجنونًا.

لقد تعلمت في المدرسة، عندما كنت أجمع ناتج، «لكي أبرهن على جوابي». لذلك فإنَّ الدليل أو التحقق من إجابتي المسيحيَّة على هذا الناتج الكوني هو كذلك. عندما قبلت علم اللاهوت، قد وجدت صعوبات، في هذه المرحلة أو تلك، فهيَ تتناسق مع بعض الحقائق المعينة التي هيَ جزء لا يتجزأ عن علم الكونيات الأسطوري المستمد من العلم. لكن يمكنني الدخول أو السماح بالعلم ككل. مُنح أنْ يكون العقل قبل المادة وأنْ يكون ضوء ذلك السبب البدائي يضيء العقول المحدودة، أستطيع أنْ أفهم كيف للرجال أنْ يأتوا، من خلال الملاحظة والاستدلال، لمعرفة الكثير عن الكون الذي يعيشون فيه. إذًا، من ناحية أخرى، إنَّني أزدري علم الكونيات ككل، عندها لا أستطيع فقط أنْ أكون متناسب للمسيحيَّة، لكن لا أستطيع حتَّى أنْ أكون متناسبًا للعلوم. فإذا كانت الأفكار تعتمد كليًا على الأدمغة، والأدمغة على الكيمياء الحيويَّة، والكيمياء الحيويَّة (في المدى الطويل) على التدفق الذي لا معنى له للذرات، فلا أستطيع أنْ أفهم كيف ينبغي أنْ يكون لفكر تلك العقول أي أهميَّة أكبر من صوت الرياح في الأشجار. وذلك بالنسبة لي هو الاختبار الأخير. فهكذا أميز

٢ المثاليَّة الفلسفيَّة: هو موقف فلسفي نظري وعملي يرد كل ظواهر الوجود إلى الفكر أو يجعل من الفكر منطلقًا لمعرفة الوجود أو الحقيقة، وأنَّ العقل هو مصدر المعرفة على عكس الماديَّة. (المترجم)

www.christianlib.com

بين الحلم واليقظة. عندما أكون مستيقظًا، أستطيع، إلى حدٍّ ما، أنْ أفسر حلمي وأدرسه. يمكن للتنين الذي طاردني الليلة الماضية تفسيره في عالم اليقظة. أعلم أنَّ هُناك أشياء مثل الأحلام. وأعلم أنَّني أكلت عشاءً غير قابل للهضم؛ كما أعلم أنَّه من المتوقع أنْ يحلم رجل من قراءتي بالتنانين. لكن أثناء ما كنت في الكابوس لم يكن بإمكاني الاستفادة من تجربتي الاستيقاظيَّة. يتم الحكم على عالم اليقظة بأنَّه أكثر واقعيَّة لأنه يمكن أنْ يحتوي على عالم الأحلام؛ ويتم الحكم على عالم الأحلام بأنَّه أقل واقعيَّة لأنه لا يمكن أنْ يحتوي على عالم اليقظة. لنفس السبب، أنا متأكد من أنَّه من خلال الانتقال من وجهات النظر العلميَّة إلى اللاهوتيَّة، انتقلت من الحلم إلى اليقظة. فاللاهوت المسيحي يستطيع أنْ يكون متناسبًا مع العلوم والفن والأخلاق والمذاهب الفرعيَّة المسيحيَّة. أما وجهة النظر العلميَّة لا يمكن أنْ تنسجم مع أي من هذه الأشياء، ولا حتَّى مع العلوم نفسها. أنا أؤمن بالمسيحيَّة لأنني أؤمن بأنَّ الشمس قد ارتفعت، ليس فقط لأني أراها، لكن لأنني بواسطتها أرى كل شيء آخر.

www.christianlib.com

عنه كما أعرف. لن أخبرك - إلّا بشكل عام بحيث لا تكاد تعرفه - ما هو الجزء الذي يجب أنْ تلعبه في إعادة البناء بعد الحرب. في الواقع، ومن المحتمل أنّه لن يتمكن أي منكم، خلال السنوات العشر القادمة، من تقديم أي مساهمة مباشرة في السلام أو الرخاء في أوروبا. سوف تكون مشغولاً في العثور على وظائف، زواج، الحصول على حقائق. سأفعل شيئًا قديمًا أكثر مما كنت تتوقع. سأقدم النصيحة. سأصدر تحذيرات. نصيحة وتحذيرات حول أشياء باقية إلى درجة أنْ لا أحد يسميها «أحداث حالية».

بالطبع يعلم الجميع ما يحذر منه الشخص الأخلاقي الكبير الشباب. يحذرهم من العالم، والجسد، والشيطان. لكن واحدة من هذه الثلاث ستكون كافية لتتعامل معه في اليوم. الشيطان سأتركه وحده تمامًا. العلاقة بينه وبيني في ذهن الجمهور قد تعمقت بالفعل كما أتمنى؛ في بعض الأوساط وصلت بالفعل إلى مستوى التشويش، إنْ لم تكن متماثلة. أبدأ في إدراك حقيقة المثل القديم الذي يحتاج إلى مضيف كبير يحتاج إلى ملعقة طويلة. أما بالنسبة إلى الجسد، فيجب أنْ تكون شابًا غير طبيعي جدًّا إذا كنت لا تعرف الكثير عنه تمامًا كما أعرف. لكن في العالم أعتقد أنّ لديَّ ما أقوله.

في المقطع الذي قرأته للتو من كتاب تولستوي، اكتشف الملازم الثاني الشاب بوريس دوبريتسكو أنّه يوجد في الجيش نظامان أو تسلسلان هرميان مختلفان. تمّ طبع الكتاب الأوّل في كتيب أحمر صغير ويمكن لأي شخص قراءته بسهولة. وكما هو معروف دائمًا. بأنّ الجنرال دائمًا متفوق على الكولونيل والكولونيل على القائد. الكتاب الآخر لا يُطبع في أي مكان. كما أنّه ليس مجتمعًا سريًا مُنظمًا رسميًا له قواعد سيتم إخبارك بها بعد قبولك. لن يتم قبولك بشكل رسمي وصريح من قِبَل أي شخص. وسوف تكتشف تدريجيًا، بطرق غير محددة تقريبًا، أنّها موجودة وأنك خارجها، وربّما بعد ذلك، ربّما تكون بداخلها. هُناك ما يتوافق مع كلمات المرور، لكنها أيضًا عفويّة وغير رسميّة. فإنّ اللغات العاميّة المعينة، واستخدام أسماء مستعارة معينة، واستخدام طريقة محايدة في المحادثة هيَ علامات. لكنها ليست ثابتة. وليس من السهل، حتّى

www.christianlib.com

في لحظة معينة، تحديد من هو في الداخل ومن هو في الخارج. فمن الواضح أنَّ بعض الأشخاص يدخلون والبعض الآخر يخرجون، لكن هُناك دائمًا العديد من الأشخاص على الحدود. وإذا عُدت إلى نفس المقر الرئيس للفرع، أو مقر السَريَّة[٢]، أو نفس الفوج، أو حتَّى الشركة نفسها بعد غياب ستة أسابيع، فقد تجد أنَّ هذا التسلسل الهرمي الثاني قد تغير تمامًا. لا يوجد قبول رسمي أو طرد. ويعتقد الناس أنَّهم يدخلون فيها بعد إنْ تمَّ طردهم بالفعل، أو قبل السماح لهم بالدخول؛ هذا يوفر تسلية كبيرة لأولئك الذين هم حقًا في الداخل. فليس له اسمًا ثابتًا. إنَّ القاعدة الوحيدة الثابتة هيَ أنَّ الداخليين والخارجيين يسمونه بأسماء مختلفة. من الداخل قد يتم تحديده، في حالات بسيطة، بمجرد الحصر؛ قد يطلق عليه «أنت وتوني وأنا». عندما تكون آمنة جدًّا ومستقرة نسبيًا في العضويَّة، فإنَّها تطلق على نفسها اسم «نحن». عندما يتعين علينا تجسيمها فجأة لمواجهة حالة طوارئ معينة، فإنَّها تطلق على نفسها اسم «جميع الأشخاص الموجدين في هذا المكان». أما من الخارج، إذا كنت تشعر باليأس من الدخول فيه، فأنت تسميها «تلك العصابة» أو «هم» أو «كذا وكذا ومجموعته» أو «تجمع» أو الحلقة الداخليَّة. «إذا كنت مرشحًا للقبول فيها، فمن المحتمل ألَّا تسميها شيئًا. وعند مناقشة ذلك مع الخارجيين الآخرين سوف يجعلك تشعر بأنك خارج نفسك، وأذكر ذلك في التحدث إلى الرجل الذي هو بالداخل، وهو قد يساعدك إذا سارت المحادثة الحالية على ما يرام، فسيكون ذلك جنونًا.

بشكل سيء كما أصفها، آمل أنْ تكونوا قد أدركتوا جميعًا ما هو الشيء الذي أصفه. لا، بالطبع، اذا كنت في الجيش الروسي أو ربَّما في أي جيش. قد تكون واجهت ظاهرة الحلقة الداخليَّة. لقد اكتشفت واحدة في المدرسة قبل نهاية الفصل الدراسي الأوَّل. وعندما تصعد إلى مكان ما بالقرب منه في نهاية عامك الثاني، ربَّما تكتشف أنَّه يوجد داخل الحلقة حلقة أخرى أكثر داخليَّة، والذي كان بدوره هامش حلقة المدرسة الرائعة وأيضًا لحلقة المنزل. من الممكن أنْ تكون حلقة المدرسة على اتصال دائم بحلقة الماجستير. لقد بدأت، بالفعل، أنْ

٢ السَرِيَّة: فرقة في الجيش (المترجم)

www.christianlib.com

تخترق قشر البصل. وهنا أيضًا، في جامعتك - هل سأكون مخطئًا عندما أفترض أنَّه في هذه اللحظة بالذات، غير المرئيَّة بالنسبة لي، توجد عدة حلقات - أنظمة مستقلة أو حلقات مركزيَّة - موجودة في هذه الغرفة؟ وأستطيع أنْ أؤكد لكم أنَّه في أي مستشفى أو جمعيَّة مهنيَّة أو إبارشية أو مدرسة أو أعمال تجاريَّة أو كليَّة ستصل إليها بعد نزول، ستجد حلقات - ما يسميه تولستوي بالنظم الثانية أو غير المدونة.

كل هذا واضح إلى حدٍّ ما . أتساءل عما إذا كنت ستقول نفس الشيء في خطواتي التالية، وهيَ هذه. أعتقد أنَّه في حياة جميع الرجال في فترات معينة، وفي حياة الكثير من الرجال في جميع الفترات الفاصلة بين الطفولة والشيخوخة الشديدة، فإنَّ أحد العناصر الأكثر هيمنة هيَ الرغبة في أنْ تكون داخل حلقة محليَّة ورعب أنْ تُترك في الخارج. إنَّ هذه الرغبة، بأحد أشكالها، قد حققت بالفعل عدالة كافية في الأدب. أعني، في شكل تكبُّر. إنَّ الخيال الفيكتوري[٣] مليء بالشخصيات الساخطة بسبب الرغبة في الدخول إلى تلك الحلقة المعينة التي تسمى أو كانت تسمى بالمجتمع. لكن يجب أنْ يكون مفهومًا بوضوح أنَّ «المجتمع»، في هذا المعنى للكلمة، هو مجرد واحد من مائة حلقة وعجرفة، لذلك، فقط شكل واحد من أشكال الشوق إلى أنْ تكون في الداخل. قد تلتهم الرغبة بشكل آخر الأشخاص الذين يعتقدون بأنَّهم أحرارٌ، وإنَّهم بالفعل أحرارٌ من العجرفة، والذين يقرأون في زهو عن الرهبة بتفوق هادئ. قد تكون شدة رغبتهم في الدخول إلى حلقة مختلفة تمامًا مما يجعلهم محصنين من إغراءات الحياة العالية. فدعوة من دوقة[٤] ستكون راحة جدًّا لرجل ذكي يشعر بالاستبعاد من حلقة فنيَّة أو شيوعيَّة. رجل فقير - ليس ثري، غرفٌ مضاءة أو شمبانيا، أو حتَّى فضائح عن النبلاء ومجلس الوزراء الذي يريده؛ إنَّها العليَّة أو الأستوديو الصغير المقدَّس، والرؤوس الملتوية معًا، وضباب دخان التبغ،

٣ نسبة إلى عصر الملكة فيكتوريا التي أصبحت ملكة على بريطانيا من عام ١٨٣٧ م حتَّى عام ١٩٠١ م وهو يعتبر الأطول في التاريخ. (المترجم)

٤ هو لقب يُطلق على النبلاء في إنجلترا. (المترجم)

www.christianlib.com

والمعرفة اللذيذة بأنَّنا - نحن أربعة أو خمسة جميعنا متجمعين بجانب هذا الموقد - هم أشخاص معروفين. غالبًا ما تخفي الرغبة عن نفسها بشكل جيد لدرجة أنَّنا بالكاد نتعرف على ملذات التمتع. الرجال لا يخبرون زوجاتهم فقط، لكن هم أنفسهم يجدون أنَّه من الصعوبة البقاء بمكان لوقت متأخر في المكتب أو المدرسة في بعض الأعمال الإضافيَّة المهمة التي تمَّ السماح لهم بدخولها لأن هم وكذا كذا واثنان آخرين هما الأشخاص الوحيدين المتبقين في المكان الذي يعرفون حقًا كيف تجري فيه الأمور. لكن هذا ليس صحيحًا تمامًا. إنَّه لأمر سيء للغاية، بالطبع، عندما يسحبك سميثسون العجوز جانبًا ويهمس، «انظر هُنا، يجب أنْ تُدخلك في هذا الاختبار بطريقة ما» أو «تشارلز وأنا رأينا في الحال أنك يجب أنْ تكون في هذه اللجنة». تتحمل الفظاعة... آه، لكن كم هو أكثر فظاعة إذا تمَّ استبعاده! من المرهق وغير الصحي أنْ تُفقد في ظُهر السبت، لكن أنْ تحررهم لأنك لا تهم، ذلك أسوأ بكثير.

قد يقول فرويد، بلا شك، أنَّ الأمر برمته هو حيلة الدافع الجنسي. وأتساءل عما إذا كان الحذاء في بعض الأحيان ليس على القدم الأخرى. إنَّني أتساءل عما إذا كان، في عصر الفوضى الجنسيَّة، الكثير من العذريَّة لم تضيع في إغراء الجماع أقل من كانت عليه في طاعة إغراء التجمع. بطبيعة الحال، عندما يكون الشذوذ هو الموضة، فإنَّ العفة هيَ الشيء الغريب. إنَّهم يجهلون شيئًا يعرفه الآخرون. هم غير بدائيِّين. وفيما يتعلق بالأمور الأخف، فإنَّ العدد الذي يدخن لأوَّل مرة أو يسكر لأوَّل مرة لسبب مشابه قد يكون كبيرًا جدًّا.

لا بد لي أنْ أميز الآن بين شيئين. لن أقول إنَّ وجود حلقة داخليَّة يُعد شرًا. بالتأكيد هذا لا مفر منه. يجب أنْ تكون هُناك مناقشات سريَّة، وليس فقط أمرًا سيئًا، أنَّه أمر جيد بحد ذاته أنْ تنمو الصداقة الشخصيَّة بين أولئك الذين يعملون معًا. وربَّما يكون من المستحيل أنْ يتزامن التسلسل الهرمي الرسمي لأي منظمة مع أعمالها الفعليَّة. وإذا كان الأشخاص الأكثر حكمة والأكثر نشاطًا يشغلون دائمًا أعلى المناصب، فقد يتزامن ذلك؛ لأنه في كثير من الأحيان، لا يجب أنْ يكون هُناك أشخاص في مناصب عليا يكونون بالفعل هم أصحاب

www.christianlib.com

الأوزان القياديَّة والأشخاص الذين يشغلون مناصب أدنى والذين هم أكثر أهميَّة من رتبهم وأولويتهم فقد يقودك ذلك إلى افتراض. بهذه الطريقة، لا بد أنْ ينمو النظام الثاني غير المدوَّن. إنَّه ضروري، وربَّما ليس شرًا ضروريًا. لكن الرغبة التي تجذبنا إلى الحلقات الداخليَّة هيَ مسألة أخرى. قد يكون هُناك شيء ما محايد أخلاقيًا لكن الرغبة في ذلك قد تكون خطيرة. كما قال بايرون[٥]:

الحلو ميراثٌ، ومرور الحلو،

كالموت المفاجئ لسيدة عجوز.

فالموت المؤلم لأحد الأقارب الأتقياء في سن مبكر ليس شرًا. لكن الرغبة الجادة في موتها من جانب ورثتها هو شعور غير مناسب، والقانون يستهجن حتَّى ألطف محاولة لتسريع رحيلها. اجعلوا الحلقات الداخليَّة شيء لا يمكن تجنبه وميزة بريئة في الحياة، رغم أنَّها ليست جميلة بالتأكيد؛ لكن ماذا عن شوقنا للدخول معهم، وضيقنا عندما نتجاهل، ونوع من السعادة التي نشعر بها عندما ندخل؟

ليس لي الحق في تقديم افتراضات حول درجة الخطر التي تعرض لها أي منكم بالفعل. لا يجب أنْ أفترض أنك أهملت أولًا، وأخرجت أخيرًا، من الأصدقاء الذين أحببتهم بالفعل والذين ربَّما استمروا معك مدى الحياة، لكي نحكم على صداقة أولئك الذين ظهروا لك أكثر أهميَّة وباطنيَّة. لا يجب أنْ أسأل عما إذا كنت قد استمتعت بالسرور الفعلي من الوحدة والإذلال من الغرباء بعد أنْ كنت في الداخل؛ عما إذا كنت قد تحدثت مع زملائك أعضاء الحلقة في وجود أشخاص خارجيِّين فقط من أجل أنْ يحسدك الغرباء؛ - سواء كانت الوسيلة فوفقًا له، في أيام خبرتك، ستستنبط أنَّ الحلقة الداخليَّة كانت دائمًا رائعة. سأطرح سؤالًا واحدًا فقط - وهو بالطبع سؤال بلاغي لا يتوقع أي إجابة. في حياتك كلها، كما تتذكرها الآن، لديك الرغبة في أنْ تكون على الجانب الأيمن من هذا الخط غير المرئي الذي دفعك إلى أي فعل أو كلمة في

٥ جورج غوردون بايرون: (١٧٨٨: ١٨٢٤) شاعر بريطاني من رواد الشعر الرومانسي. (المترجم)

www.christianlib.com

الساعات الصغيرة الباردة من ليلة مفعمة بالحيويَّة، يمكنك الرجوع إلى الوراء بارتياح؟ إذا كان الأمر كذلك، فإنَّ قضيتك أكثر حظًا من غيرها.

لكنني قلت إنَّني سأقدم النصيحة، ويجب على النصيحة أنْ تتعامل مع المستقبل وليس مع الماضي. لقد أشارت إلى الماضي فقط لإيقاظك على ما أعتقد أنَّه الطبيعة الحقيقيَّة للحياة البشريَّة. لا أعتقد أنَّ الدافع الاقتصادي والدافع الجنسي يفسران كل ما يجري في ما يسميه الفلاسفة الأخلاقيِّين بالعالم. حتَّى لو قمت بإضافة الطموح، أعتقد أنَّ الصورة لا تزال غير مكتملة. فالشهوة الباطنيَّة، والشوق إلى أنْ تكون في الداخل، يأخذ أشكالاً لا يمكن التعرف عليها بسهولة كالطموح. نحن نأمل، بلا شك، في تحقيق مكاسب ملموسة في كل حلقة داخليَّة نخترقها: القوة والمال والحريَّة لكسر القواعد وتجنب الواجبات الروتينيَّة والهروب من الانضباط. لكن كل هذه لن ترضينا بالإضافة إذا لم نحصل على شعور لذيذ من الحميمة السريَّة. مما لا شك فيه أنَّه من الجيد أنْ نعلم أنَّنا لا نحتاج إلى أنْ نخاف من أي توبيخ رسمي من مسئولنا الرسمي لأنه بيرسي العجوز، وهو عضو زميل لدينا في الحلقة. لكن نحن لا نقدِّر العلاقة الحميمة فقط من أجل الانسجام؛ على قدم المساواة تمامًا نحن نقدر الانسجام كدليل على العلاقة الحميمة.

إنَّ هدفي الرئيس في هذا العنوان هو ببساطة إقناعكم بأنَّ هذه الرغبة هيَ واحدة من أهم القوى الرئيسة الدائمة للعمل الإنساني. وهو أحد العوامل التي تشكل العالم كما نعرفه - هذا العالم المليء بالنضال والمنافسة والارتباك والكسب غير المشروع وخيبة الأمل والإشهار، وإذا كان هذا أحد القوى الرئيسة الدائمة، يمكنك التأكد تمامًا من هذا. ما لم تتخذ تدابير لمنع ذلك، ستكون هذه الرغبة واحدة من الدوافع الرئيسة لحياتك، من اليوم الأوَّل الذي تدخل فيه مهنتك حتَّى اليوم الذي تكون فيه كبيرًا في السن تحتاج إلى العناية. سيكون هذا هو الشيء الطبيعي - فالحياة سوف تأتي إليك من تلقاء نفسها. أي نوع آخر من الحياة، إذا كنت تقودها، ستكون نتيجة لجهد واع ومستمر. إذا لم تفعل شيئًا تجاه ذلك، إذا انجرفت مع التيار، فستكون في الواقع «مشتركًا

www.christianlib.com

في الحلقة الداخليَّة». أنا لا أقول أنك ستكون ناجحًا؛ هذا قد يكون. لكن سواء كان ذلك من خلال الشوق أو الاكتئاب خارج الحلقات التي لا يمكنك الدخول إليها أبدًا، أو بالانتصار أكثر فأكثر، بطريقة أو بأخرى، فستكون هذا النوع من الرجال.

لقد أوضحت بالفعل إلى حدٍّ ما أنَّني أعتقد أنَّه من الأفضل لك ألَّا تكون هذا النوع من الرجال. لكنٍ قد يكون لديك عقل متفتح لتسأل. لذلك أقترح سببين للتفكير كما أفعل دائمًا.

سيكون مهذبًا وخيرًا، وبالنظر إلى عمرك، معقولًا أيضًا، أنْ نفترض أنَّ أيًا منكم لم يكن وغدًا حتَّى الآن. من ناحية أخرى، من خلال قانون المتوسطات فقط (أنا لا أقول شيئًا ضد الإرادة الحرة)، من شبه المؤكد أنَّ اثنين أو ثلاثة منكم على الأقل قبل أنْ يموتوا سوف يصبحون مثل الأوغاد. ويجب أنْ يكون هُناك في هذه الغرفة ما لا يقل عن ذلك العدد من عديمي الضمير والخائنين وعديمي الرحمة المغرورين. لا يزال أمامك الاختيار، وآمل ألَّا تأخذ كلماتي القاسية حول شخصيتك المستقبليَّة المحتملة كرمز لعدم احترام شخصيتك الحالية. والنبوءة التي أجريها هيَ هذه. بالنسبة إلى تسعة من كل عشرة منكم، سيأتي الخيار الذي قد يؤدي إلى الوهم، عندما يأتي، بألوان غير مثيرة للغاية. فمن الواضح أنَّ الرجال السيئين يهددون أو يرشون، ولن يظهروا ذلك بالتأكيد. فقد يتناول مشروبًا أو فنجانًا من القهوة، متنكرًا في شكل تافه ومختلط بين نكتتين، من شفتي رجل أو امرأة، تعرَّف عليهما مؤخرًا بشكل أفضل إلى حدٍّ ما حيث كنت آمل أنْ يعرفوا بعض بشكل أفضل - فقط في اللحظة التي تكون فيها أكثر حرصًا على عدم الظهور بمظهر فظ أو ساذج أو خشن - سيأتي التلميح. سيكون تلميحًا لشيء لا يتوافق تمامًا مع القواعد الفنيَّة للعب النظيف؛ شيء لم يفهمه الجمهور الجاهل، والرومانسي، إنَّه شيءٌ ما، حتَّى أنَّ الغرباء في مهنتك معرضين لإثارة ضجة، لكنٍ هُناك شيئًا يقوله صديقك الجديد، وهو «نحن» - وعند كلمة «نحن» حاول ألَّا تستحضر فقط المتعة - لكن شيء ما «نحن دائمًا نفعله.» وسوف يتم جذبك، إذا تمَّ جذبك، ليس بسبب الرغبة في المكسب أو

www.christianlib.com

السهولة، لكن ببساطة لأنه في تلك اللحظة، عندما كانت الكأس قريبة جدًّا من شفتيك، لا يمكنك تحمل العودة مرة أخرى إلى العالم الخارجي البارد. سيكون من المروع للغاية رؤية الوجه الآخر للرجل - ذلك الوجه اللطيف والسري والمتغير المبهج - يتحول فجأة إلى الوجه القاسي والمتهكم، لنعرف أنَّه قد تمَّ محاكمتك في الحلقة الداخليَّة ورُفضت. وبعد ذلك، إذا انضممت إليها، فسيكون الأمر في الأسبوع القادم شيئًا أبعد قليلًا عن القواعد، وفي العام المقبل لا يزال هُناك شيء آخر، لكن بروح أكثر وديَّة. قد ينتهي في حادث تحطم، أو فضيحة، والعقاب هو عبوديَّة؛ قد تُنهي بملايين النبلاء، ومنح الجوائز في مدرستك القديمة. لكنك سوف تكون وغدًا.

هذا هو السبب الأوَّل بالنسبة لي. من بين جميع المشاعر، فإنَّ شغف الحلقة الداخليَّة هو الأكثر مهارة في جعل الرجل الذي لم يعد رجلًا سيئًا للغاية يفعل أشياءً سيئة للغاية.

أما السبب الثاني هو ذلك. التعذيب الذي تمَّ تخصيصه للدانيدات[٦] في العالم السفلي الكلاسيكي، وهيَ محاولة لملء جرار مثقوبة بالماء، وهيَ ليست رمزًا لرذيلة واحد بل لكل الرذائل. إنَّها علامة على الرغبة الشديدة في أنَّها تسعى إلى ما لا ينبغي أنْ تكون. توضح الرغبة المتواجدة داخل الخط غير المرئي لهذه القاعدة. طالما أنك تحكم هذه الرغبة فلن تحصل أبدًا على ما تريد. أنت تحاول تقشير البصل. إذا نجحت فلن يتبقى شيء. حتَّى تتغلب على الخوف من أنْ تكون غريبًا، فإنك ستظل كذلك.

هذا بالتأكيد واضح للغاية عندما تفكر في الأمر. إذا أردت أنْ تتحرر من دائرة معينة لأسباب صحيَّة - إذا أردت، على سبيل المثال، الانضمام إلى مجتمع موسيقي لأنك تحب الموسيقى حقًا، فهُناك احتمال للإشباع. وقد

---

٦ الدانيدات (Danaids) هي أسطورة إغريقيَّة تسمى بالدانيدات وهم البنات الخمسون لدانوس عندما أكرهن على الزواج من أبناء إيجبتوس الخمسين كلهن ما عدا هيبرمنسترا ذبحن أزواجهن في ليلة الزفاف فعوقبن بأنْ ينقلن الماء بجرار مثقوبة في العالم السفلي إلى أبد الآبدين. (المترجم)

www.christianlib.com

تجد نفسك تعزف الرباعيَّة[٧] وقد تستمتع بها. لكن إذا كان كل ما تريدَه هو أنْ تكون على دراية، فستكون سعادتك قصيرة الأجل. لا يمكن أنْ يكون للدائرة من الداخل سحرها من الخارج. من خلال قبولك وسطهم فقد فقدت سحرها. بمجرد أنْ يأخذ هذا التجديد وقته، لن يكون أعضاء هذه الدائرة أكثر اهتمامًا من أصدقائك القدامى. لماذا يجب أنْ يكون؟ لأنك لم تكن تبحث عن الفضيلة أو اللطف أو الولاء أو الفكاهة أو التعلم أو الذكاء أو أي شيء يمكن الاستمتاع به حقًا. أردت فقط أنْ تكون «في الداخل». وهذه متعة لا يمكن أنْ تستمر. وبمجرد توقف رفقائك الجدد عن العزف، سوف تبحث عن حلقة أخرى. ستظل نهاية قوس قزح أمامك. ستكون الحلقة القديمة الآن هيَ الخلفية الرهيبة لمساعيك للدخول في واحدة جديدة.

وستجد دائمًا صعوبة في الدخول إليها لسبب تعرفه جيدًا. فأنت نفسك، بمجرد دخولك، تريد أنْ تجعل الأمر صعبًا بالنسبة للوافد المقبل، تمامًا كما فعل أولئك الموجودون وصعَّبوها عليك. بطبيعة الحال. في أي مجموعة صحيَّة من الناس تتماسكوا معًا من أجل غرض جيد، تكون الاستبعادات بطريق الخطأ. يستثني ثلاثة أو أربعة أشخاص معًا من أجل بعض الأعمال، لأن هُناك عمل للكثيرين فقط أو لأن الآخرين لا يمكنهم فعل ذلك في الواقع. مجموعتك الموسيقيَّة الصغيرة تحد من أعدادها لأن الغرف التي يتقابلون فيها كبيرة جدًا. لكن حلقتك الداخليَّة الحقيقيَّة موجودة من أجل الاستبعاد. لن يكون هُناك متعة إذا لم يكن هُناك غرباء. لن يكون للخط غير المرئي أي معنى ما لم يكن معظم الناس على الجانب الخطأ منه. الاستبعاد ليس صدفة؛ هذا هو الجوهر.

فالبحث عن الحلقة الداخليَّة سوف يكسر قلوبكم إلَّا إذا كسرتها. لكن إذا كسرتها، فستتبعها نتيجة مفاجئة. فإذا نجحت في إنهاء ساعات عملك، ستجد حاليًا الجميع غير مدركين داخل الدائرة الوحيدة التي هيَ مهنتك ما الذي حدث بالفعل. وستكون أحد الحرفيِّين في مجال الصوت، وسيعرفه الحرفيون الآخرون. فلن تتوافق هذه المجموعة من الحرفيِّين بأي شكل من الأشكال

٧ الرباعيَّة: هي لحنٌ معد لأربع آلات. (المترجم)

www.christianlib.com

مع الحلقة الداخليَّة أو الأشخاص المهمون أو الأشخاص الذين يعرفون. ولن تُشكل هذه السياسة المهنيَّة أو تعمل على التأثير المهني الذي يناضل من أجل المهنة ككل ضد الجمهور، ولن يؤدي إلى تلك الفضائح والأزمات الدوريَّة التي تنتجها الحلقة الداخليَّة. لكنها ستفعل تلك الأشياء الموجودة لأجلها هذه المهنة وستكون على المدى الطويل مسئولة عن كل الاحترام الذي تتمتع به هذه المهنة في الواقع والتي لا يمكن أنْ تحافظ عليها الخطب والإعلانات. وإذا كنت في وقت فراغك تتحدث ببساطة مع الأشخاص الذين يعجبوك، ستجد مرة أخرى أنَّهم قد أصبحوا على دراية بداخلك الحقيقي، وأنك في الواقع محبوبٌ وآمن في مركز أو شيء ما، لكن من المنظور من الخارج، سيبدو بالضبط مثل الحلقة الداخليَّة. لكن الفرق هو أنَّ سريَّة هذه المعلومات غير مقصودة، وأنَّ خصوصيتها هيَ منتج ثانوي، ولم يكن هُناك أحد يقودها وإغراءها مقصور على فئة معينة، لأن فقط أربعة أو خمسة أشخاص أخرون يحبون اجتماعًا آخر ليقوموا بأشياء تحلو لهم. هذه هيَ الصداقة. فقد وضعها أرسطو بين الفضائل. ربَّما تسبب نصف السعادة في العالم، ولا يمكن لأي شخص موجود في هذه الحلقة الداخليَّة الحصول عليها.

قيل لنا في الكتاب المُقدَّس إنَّ أولئك الذين يطلبون يجدون. هذا حقيقي، بمعنى لا يمكنني الآن استكشافه. لكن بمعنى آخر، هُناك الكثير من الحقيقة في مبدأ التلميذ «فهم يسألون». بالنسبة إلى شاب، دخل للتو في حياة الكبار، يبدو له أنَّ العالم مليئًا بـ«الدواخل»، مليء بالعلاقات السعيدة والخصوصيات، وهو يرغب في الدخول إليها. لكن إذا اتَّبع هذه الرغبة فلن يصل إلى «الداخل» الذي يستحق الوصول إليه. فإنَّ الطريق الحقيقي يكمن في اتجاه آخر تمامًا. هو مثل منظر منزل في أليس عبر شباك زجاجي.

www.christianlib.com

www.christianlib.com

الفصل السابع
العضويَّة

لا يمكن لأي مسيحي، بل لا يمكن لأي مؤرخ أنْ يقبل الإبيجراما[1] التي تعرِّف الدين بأنَّه «ما يفعله الرجل بعزلته». أعتقد أنَّه واحد من الويزليِّين[2] الذين قالوا إنَّ العهد الجديد لا يعرف شيئًا عن الدين الانعزالي. يحظر علينا إهمال تجميع أنفسنا معًا. فالمسيحيَّة هيَ بالفعل مؤسسة في أقرب وثائقها. الكنيسة هيَ عروس المسيح. ونحن أعضاء بعضنا البعض.

في عصرنا هذا، فكرة أنَّ الدين ينتمي إلى حياتنا الخاصَّة - أنَّه في الواقع احتلال لوقت الفراغ الخاص بالفرد - هيَ مفارقة خطيرة وطبيعيَّة في آن واحد. إنَّه مفارقةٌ لأن تمجيد الفرديَّة في المجال الديني يظهر في عصر تُهزم فيه الجماعيَّة الفرديَّة في كل مجال آخر بلا رحمة. أرى هذا حتَّى في الجامعة. عندما ذهبت إلى جامعة أكسفورد لأوَّل مرة، كان مجتمع الطلاب الجامعيِّين يتكون من عشرة رجال، كانوا يعرفون بعضهم بعضًا عن كثب، وأستمع إلى ورقة كتبها أحدهم في غرفة جلوس صغيرة لطرح مشكلتهم حتَّى صباح يوم واحد أو اثنين. فقبل الحرب، أصبح المجتمع الجامعي النموذجي جمهورًا مختلطا يضم مائة أو مائتين طالب تجمعوا في قاعة عامة لسماع محاضرة من بعض المشاهير

---

١ الإبيجراما (Epigram): كلمة مركَّبة مستوحاة من اللغة اليونانيَّة القديمة من كلمتين هما *epos* و*graphein*، وكانت تعني الكتابة على شيء أو النقش على الحجر في المقابر بوصفها عمليَّة إحياء لذكرى المتوفي، وتحولت إلى نوع شعري قائم بذاته. والإبيجراما هي نوع شعري قديم تمَّ تعريفه في الآداب اليونانيَّة القديمة والأوروبيَّة والعربيَّة؛ وكانت تعني في الآداب اليونانيَّة الكتابة المنقوشة أو الكتابة على شيء؛ أما في الآداب الأوربيَّة فقد تحوَّل في القرن السابع عشر من قبل جون دن، وأسكار وايلد إلى فن شعري قائم بذاته له سماته ومعاييره التي يمكن أنْ يتم الاحتكام إليها. (المترجم)

٢ الويزليون: نسبة إلى جون ويزلي رجل دين ولاهوتي مسيحي أنجليكاني. (المترجم)

www.christianlib.com

الزائرين. حتَّى في تلك المناسبات النادرة التي لا يحضر فيها طالب جامعي حديث، بعض هذه المجتمعات نادرًا ما ينخرط في تلك المسيرات الانفراديَّة، أو يمشي مع رفيق واحد، والتي بنيت عقول الأجيال السابقة. إنَّه يعيش في حشد؛ لقد حل الحزب محل الصداقة. وهذا الاتجاه ليس موجودًا داخل الجامعة وخارجها فحسب، بل يتم اعتماده غالبًا. هُناك حشد من الأجسام المزدحمة، سادة الاحتفالات الذين نصبوا أنفُسهم، وكرسوا حياتهم لتدمير العزلة أينما كانت العزلة لا تزال موجودة. يسمونه «إخراج الشباب من أنفسهم» أو «إيقاظهم» أو «التغلب على لامبالاتهم». إذا كان من المفترض أنْ يولد أوغسطينوس، أو فوجان[٣]، أو ترايرن[٤]، أو وردزورث[٥] في العالم الحديث، فإنَّ قادة منظمة الشباب سيعالجونهم قريبًا. إذا كان لديه منزل جيد حقًا، مثل منزل ألسينوس وآريتي في الأوديسة أو روستوف في الحرب والسلم أو أي من عائلات شارلوت ماري يونج، فسوف يتم إدانته على أنَّه برجوازي وكل محرك دمار سيوجه ضده. وحتَّى في حالة فشل المخططين وترك الشخص جسديًا بنفسه، فقد لاحظت الشبكة اللاسلكيَّة أنَّه لن يكون بمفرده - بطريقة لا يقصدها سكيبيو[٦] - بمفرده. نحن نعيش، في الواقع، في عالم يتضور جوعًا من أجل العزلة والصمت والخصوصيَّة، وبالتالي يتضور جوعًا للتأمل والصداقة الحقيقيَّة.

فالدين يجب أنْ يهبط إلى العزلة في مثل هذا العصر، إذن، فهيَ مفارقة. لكنه أيضًا خطر لسببين. في المقام الأوَّل، عندما يقول لنا العالم الحديث بصوت عال، «قد تكون متدينًا عندما تكون وحيدًا»، ويضيف تحت أنفاسه «، وسأرى أنَّه لَن

٣ السير ويليام فوجان (١٥٧٥ - ١٦٤١) كاتبًا باللغة الويلزيَّة بالإنجليزيَّة واللاتينيَّة، الذي روج للاستعمار في نيوفاوندلاند. (المترجم)

٤ توماس ترايرن: شاعرًا إنجليزيًا ورجل دين وعالم لاهوت وكاتبًا دينيًا. (المترجم)

٥ ويليام وردزورث: شاعر إنجليزي. (المترجم)

٦ سكيبيو الأفريقي: قنصل وقائد روماني خلال الحرب البونيقيَّة الثانية. اشتهر بانتصاره على حنبعل في معركة زاما التي حسمت الحرب البونيقيَّة الثانية، ويعتبر واحدًا من خيرة القادة العسكريين في التاريخ. (المترجم)

www.christianlib.com

تكون وحيدًا أبدًا». لجعل الحياة المسيحيَّة شأنًا خاصًا في الوقت الذي يتم فيه رفض كل الخصوصيَّة، يتم تحويلها إلى نهاية قوس قزح أو إلى التقاويم اليونانيَّة. هذا هو واحد من حيل العدو. وفي المقام الثاني، هُناك خطر من أنَّ المسيحيِّين الحقيقيِّين الذين يعرفون أنَّ المسيحيَّة ليست شأنًا انفراديًا قد يتفاعلون مع هذا الخطأ من خلال الانتقال ببساطة إلى حياتنا الروحيَّة فتلك هيَ الجماعيَّة نفسها التي غزت حياتنا العلمانيَّة بالفعل. هذه هيَ حيلة العدو الأخرى. مثله مثل لاعب الشطرنج الجيد، فهو يحاول دائمًا مناورتك في وضع يمكنك من خلاله إنقاذ قلعتك فقط من خلال فقدان الفيل[٧]. ومن أجل تجنب الفخ، يجب أنْ نصر على أنَّه على الرغم من أنَّ المفهوم الخاص للمسيحيَّة خاطئ، فهو مفهوم طبيعي للغاية ومحاولة غير متقنه لحماية الحقيقة العظيمة. وراء ذلك، هُناك شعور واضح بأنَّ جماعتنا الحديثة هيَ اعتداء على الطبيعة الإنسانيَّة وأنَّه من، كل الشرور الأخرى، سيكون الله درعنا وترسنا.

هذا الشعور عادلٌ. بما أنَّ الحياة الشخصيَّة والخاصَّة أقل من المشاركة في جسد المسيح، فإنَّ الحياة الجماعيَّة أقل من الحياة الشخصيَّة والخاصَّة وليس لها قيمة إلَّا في خدمتها. فالمجتمع العلماني، منذ أنْ كان موجودًا من أجل مصلحتنا الطبيعيَّة وليس من أجل مصلحتنا فوق الطبيعيَّة، ليس له حد أعلى من تسهيل وحماية الأسرة، والصداقة، والعزلة. وقال جونسون، أنْ تكون سعيدًا في المنزل هو نهاية كل المساعي الإنسانيَّة. طالما أنَّنا نفكر فقط في القيم الطبيعيَّة، يجب أنْ نقول إنَّ الشمس لا تنظر إلى نصف الشيء الجيد مثل الأسرة التي تضحك معًا على وجبة، أو صديقان يتحدثان عن نصف لتر من البيرة، أو رجل يقرأ وحده كتابًا يهمه؛ وأنَّ جميع الاقتصاديات، والسياسات، والقوانين، والجيوش، والمؤسسات، باستثناء ما تطيل وتضاعف هذه المشاهد، هيَ مجرد حماية الرمال وزرع المحيطات، وتغاض عن الروح بلا معنى. فإنَّ الأنشطة الجماعيَّة ضروريَّة بالطبع، لكن هذه هيَ النِّهاية التي تكون ضروريَّة لها. قد يكون من الضروري

٧ الفيل: هي إحدى قطع الشطرنج الصغيرة وخليفة قطعة الفيل القديمة وترمز إلى حيوان الفيل. (المترجم)

www.christianlib.com

تقديم تضحيات كبيرة من هذه السعادة الخاصَّة من قِبَل أولئك الذين لديهم لتوزيعها على نطاق أوسع. حيث ينبغي على الجميع أَنْ يكونوا جائعين قليلا حتَّى لا يتضوروا من أي جوع. لكن لا تدعنا نخطئ فالشر ضروري من أجل الصالح. ويتم ارتكاب الخطأ بسهولة. لذلك يجب أنْ تُعلب الفاكهة إذا كانت قد تحوَّلت وفقدت بطريقة أو بآخرى بعضًا من خصائصها الجيدة. لكن المرء قد يلتقي بالأشخاص الذين تعلموا بالفعل تفضيل الفاكهة المعلبة على الفواكه الطازجة. يجب أنْ يفكر المجتمع المريض كثيرًا في السياسة، كما يجب على الرجل المريض التفكير في هضمه؛ لتتجاهل هذا الموضوع قد يكون من الخوف القاتل لأحد كما للآخر. لكن إذا نظرنا إلى أي منهما باعتباره الغذاء الطبيعي للعقل - إذا نسي أي منهما أنْ يفكر في مثل هذه الأشياء من أجل أنْ يكون قادرًا على التفكير في شيء آخر - فإنَّ ما تمَّ القيام به من أجل الصحة أصبح في حد ذاته مرضًا جديدًا ومميتًا.

في الواقع، هُناك ميل قاتل في جميع الأنشطة البشريَّة إلى وسائل الاختبار على النهايات التي كان الهدف منها خدمتها. وهكذا يأتي المال لعرقلة تبادل السلع، والقواعد الفنيَّة لعرقلة العبقريَّة، والامتحانات لمنع الشباب من التعلم. للأسف، لا نتبع ذلك دائمًا أنَّه يمكن الاستغناء عن وسائل الاختبار. أعتقد من المحتمل أنَّ الجماعيَّة في حياتنا شيء ضروري وسوف تزداد، وأعتقد أنَّ حمايتنا الوحيدة ضد خصائصها المميتة هيَ في حياة مسيحيَّة، لأنه وعدنا بأنْ نتعامل مع الثعابين ونشرب أشياء مميتة ونعيش بعد. هذه هيَ الحقيقة وراء التعريف الخاطئ للدين الذي بدأنا به. حيث حدث خطأ كان في معارضة الجماعيَّة لمجرد العزلة. فالمسيحي لا يتم دعوته إلى الانعزاليَّة بل إلى العضويَّة في الجسد الواحد. وبالتالي فإنَّ النظر في الاختلافات بين العلمانيَّة الجماعيَّة والجسد الواحد هو الخطوة الأولى لفهم كيف يمكن للمسيحيَّة دون أنْ تكون فرديَّة لمواجهة الجماعيَّة.

في البداية نواجه صعوبة في اللغة. فإنَّ كلمة «العضويَّة» هيَ نفسها ذات أصل مسيحي، لكن العالم استحوذ عليها وجُردت بكل معنى الكلمة. في أي

www.christianlib.com

كتاب عن المنطق، قد ترى تعبير «أعضاء الفصل». يجب التأكيد بشكل قاطع على أنَّ العناصر أو التفاصيل الواردة في فئة متجانسة تكاد تكون عكس ما يعنيه القديس بولس بكلمة الأعضاء. إنَّ كلمة الأعضاء في ([اليونانيَّة]) تعني ما يجب أنْ نسميه أعضاء جهاز، أشياء مختلفة بشكل أساسي عن بعضها البعض، ومُكملة لبعضها البعض، أشياء لا تختلف فقط في الهيكل والوظيفة لكن أيضًا في المنزلة. وبالتالي، في أي ناد، يمكن اعتبار اللجنة ككل والخدم ككل كليهما «أعضاء» بشكل صحيح؛ ما يجب أنْ نسميه أعضاء النادي هو مجرد وحدات. إنَّ صف من الجُنود يرتدون ملابس متطابقة ويتدربون بشكل متماثل، يقفون جنبًا إلى جنب، أو عدد من المواطنين المندرجين في قائمة الناخبين في الدائرة الانتخابيَّة، ليسوا أعضاء في أي شيء بالمعنى البولسي[٨]. أخشى عندما نصف رجلًا بأنَّه «عضوٌ في الكنيسة»، فإنَّنا لا نعني شيئًا بولسي؛ نحن نعني فقط بأنَّه وحدة - أنَّه عينة أخرى من نوع ما من الأشياء مثل X و Y و Z. كيف تختلف العضويَّة الحقيقيَّة في الجسم عن الاحتواء الجماعي في هيكل الأسرة. إنَّ الجد، والآباء، والابن الناشئ، والطفل، والكلب، والقط هم أعضاء حقيقيون (بالمعنى العضوي)، على وجه التحديد لأنهم ليسوا أعضاء أو وحدات من طبقة متجانسة. هم غير قابلين للتبديل. كل شخص هو تقريبًا نوع في نفسه. الأم ليست مجرد شخص مختلف عن الابنة؛ أنَّها نوعٌ مختلف من الشخص. الأخ الأكبر ليس مجرد وحدة واحدة في صف الأطفال؛ هو تركة منفصلة في الدنيا. الأب والجدة مختلفان تقريبًا مثل القط والكلب. فإذا قمت بطرح أي عضو واحد، فأنت لم تخفض عدد أفراد الأسرة ببساطة؛ لكنك قد ألحقت ضررًا بهيكلها. وحدتها هيَ وحدة من الاختلافات، وتقريبًا غير قابلة للقياس.

إنَّ الإدراك الخافت للثراء المتأصل في هذا النوع من الوحدة هو أحد أسباب استمتاعنا بكتاب مثل الريح في الصفصاف[٩]. حيث يرمز الثلاثي

٨ نسبة إلى القديس بولس الرسول. (المترجم)

٩ هي رواية للأطفال بقلم كينيث غراهام، نُشرت لأوَّل مرة في عام ١٩٠٨. تركز الرواية على أربعة حيوانات مؤنسة في مراعي إنجلترا. يظهر في الرواية مزيج من التصوف، والمغامرة، والأخلاق، والصداقة الحميمة. (المترجم)

www.christianlib.com

الجرذ، والفارة العمياء، والغرير[١٠] إلى التمايز الشديد للأشخاص في اتحاد متناغم، والذي نعرفه بشكل حدسي أنَّه ملاذنا الحقيقي سواء من العزلة أو من الجماعيَّة. فإنَّ المودة بين الأزواج المتطابقة بشكل غريب مثل ديك سويفيلير Dick Swiveller ومركيزة Marchioness[١١]، أو السيد بيكويك(mr. Pickwick[١٢]) وسام ويلر (sam weller[١٣]) بالطريقة نفسها. هذا هو السبب للفكرة الحديثة المتمثلة في أنَّ الأطفال يجب أنْ يطلقوا على والديهم بأسمائهم المسيحيَّة هيَ فكرة شاذة للغاية. هذا جهد لتجاهل الفرق في النوع الذي يصنع من الوحدة العضويَّة الحقيقيَّة. إنَّهم يحاولون تلقيح الطفل بوجهة نظر زائفة مفادها أنَّ والدته مجرد مواطنة مثله مثل أي شخص آخر، لجعله يجهل ما يعرفه جميع الرجال وغير مدرك لما يشعر به جميع الرجال. إنَّهم يحاولون مد التكرار المتميز للجماعة إلى عالم أكثر اكتمالًا وحسيًا من الأسرة.

إنَّ الشخص المدان لديه رقم بدلًا من الاسم. هذه هيَ الفكرة الجماعيَّة التي حملت أقصى درجاتها. لكن الرجل في منزله قد يفقد اسمه أيضًا، لأنه يُسمى ببساطة «الأب». هذه هيَ العضويَّة في الجسد. يذكرنا فقدان الاسم في كلتا الحالتين أنَّ هُناك طريقتين متعارضتين للخروج من العزلة.

فالمجتمع الذي يُدعى فيه المسيحي بالمعموديَّة ليس مجتمعًا جماعيًا بل جسدًا. إنَّها في الحقيقة صورة لجسد العائلة على المستوى الطبيعي. إذا توصل أي شخص إلى هذا الاعتقاد الخاطئ بأنَّ عضويَّة الكنيسة كانت عضويَّة بالمعنى

---

١٠ الجرذ والفارة العمياء والغرير هما فصيل من الفئران. (المترجم)

١١ هي سيدة نبيلة برتبة مركيز، أو زوجة مركيز وهي تعني نبيلة من النبلاء. (المترجم)

١٢ صموئيل بيكويك شخصيَّة خياليَّة والبطلة الرئيسة في كتابات بيكويك، وهي أول رواية للمؤلف تشارلز ديكنز. بيكويك هو رجل أعمال ناجح متقاعد ومؤسس ورئيس نادي بيكويك. (المترجم)

١٣ شخصيَّة خياليَّة في رواية كتابات بيكويك، وهي أول رواية للمؤلف تشارلز ديكنز. (المترجم)

www.christianlib.com

الحديث الوهن - حشد معًا من الأشخاص كما لو كانوا بنسات[١٤] أو عدادات - فسيتم تصحيحه من البداية باكتشاف أنَّ رئيس هذا الجسد هو على عكس الأعضاء الأدنى من أنَّهم لا يشاركون الخبر معه إلَّا عن طريق القياس. ولقد تمَّ استدعاؤنا منذ البداية للاندماج كمخلوقات مع خالقنا، كبشر مع الله سرمدي، كمذنبين مخلصين مع مخلص بلا خطيَّة. يجب أنْ يكون وجوده، والتفاعل بينه وبيننا، دائمًا هو العامل الغالب في الحياة التي يجب أنْ تقودنا داخل الجسد، وأي تصوُّر لصحبة مسيحيَّة لا تعني في المقام الأوَّل وجود صحبة معه هي خارج الجسد. بعد ذلك يبدو من التافه تقريبًا تتبع المزيد من تنوع العمليات لوحدة الروح. لكنه واضح جدًّا هُناك. هُناك قساوسة مصنفون من العامة، مقسمون إلى متعلمين يتلقون التعليم المسيحي وهم في عضويَّة كاملة معه. هُناك سُلطة للأزواج على الزوجات والآباء والأمهات على الأطفال. وهُناك، في أشكال خفيَّة للغاية بالنسبة إلى التجسيد الرسمي، تبادل مستمر للوزارات التكميليَّة. نحن جميعًا نعلم ونتعلم باستمرار، نغفر ويُغفر لنا، ونقدم المسيح إلى الإنسان عندما نشفع له، والإنسان إلى المسيح عندما يشفع الآخرون لنا. إنَّ التضحية بالخصوصيَّة الأنانيَّة التي تُطلب منَّا كل يوم تُسدد مائة ضعف في النمو الحقيقي للشخصيَّة التي تشجعنا عليها حياة الجسد. أولئك الذين هم أعضاء في بعضهم البعض يجب أنْ يكونوا متنوعين مثل اليد والأذن. هذا هو السبب في أنَّ أبناء العالم على حد سواء مملين مقارنة مع مجموعة رائعة تقريبًا من القديسين. الطاعة هيَ الطريق إلى الحريَّة، والتواضع هو الطريق إلى السعادة، والوحدة هيَ الطريق إلى الشخصيَّة.

والآن يجب أنْ أقول شيئًا قد يُظهر لك المفارقة. لقد سمعت غالبًا أنَّه على الرغم من أنَّنا في العالم نحتفظ بمحطات مختلفة، إلَّا أنَّنا جميعًا متساوون في نظر الله. هُناك، بطبيعة الحال، الأحاسيس التي تكون صحيحة. فالله ليس كالعصا

١٤ يستخدم لفظ بنس لوصف أصغر وحدة من النقد المعدني في بريطانيا بشكل رسمي، كما يستخدم بشكل غير رسمي لوصف السنت الأمريكي، وكذلك بشكل غير رسمي لوصف السنتات في عملة اليورو في أيرلندا. وكان يستخدم سابقًا لوصف أجزاء الدولار الكندي، قبل أنْ يوقف إصداره هُناك. (المترجم)

www.christianlib.com

في يد الناس. ولا يُقاس حبه لنا حسب وضعنا الاجتماعي أو مواهبنا الفكريَّة. لكنني أعتقد أنَّ هُناك شعورًا بأنَّ هذا المبدأ هو عكس الحقيقة. سأغامر بالقول إنَّ المساواة المصطنعة ضروريَّة في حياة الدولة، لكننا في الكنيسة نتخلص من هذا التنكر ونستعيد تنوعنا الحقيقي، وبالتالي يتم تحديثها وتسريعها.

أنا أؤمن بالمساواة السياسيَّة. لكن هُناك سببين متعاكسين لكونها ديمقراطيَّة. فقد تعتقد أنَّ جميع الناس جيدين لدرجة أنَّهم يستحقون نصيب في حكومة الكومنولث[١٥]، ومن الحكمة أنْ يأخذ الكومنولث بمشورتهم. هذا، في رأيي، هو عقيدة الديمقراطيَّة الكاذبة الرومانسيَّة. من ناحية أخرى، قد تعتقد أنَّ الرجال الذين سقطوا من الأشرار لا يمكن الوثوق بأي منهم في أي سُلطة غير مسئولة حتَّى على أتباعهم.

أعتقد أنَّ هذا هو الأساس الحقيقي للديمقراطيَّة. ولا أعتقد أنَّ الله خلق عالم المساواة. أعتقد أنَّ سُلطة الوالدين على الطفل، الزوج على الزوجة، مثقفة أكثر من مجرد أنْ تكون جزءًا من الخطة الأصليَّة بقدر ما تكون سُلطة الرجل على الحيوان. أعتقد أنَّه إذا لم نخطئ، فسوف يكون فيلمر[١٦] على حق، وستكون الملكيَّة البطريركيَّة هيَ الحكومة الشرعيَّة الوحيدة. لكن بما أنَّنا تعلمنا الخطيئة، فقد وجدنا، كما يقول اللورد أكتون[١٧]، إنَّ «كل سُلطة مفسدة، والسُلطة المطلقة مفسدة مطلقًا». كان العلاج الوحيد هو سحب الصلاحيات واستبدال الحيلة القانونيَّة بالمساواة. لقد تمَّ إلغاء سُلطة الأب والزوج بشكل صحيح على متن

١٥ ظهر مصطلح الكومنولث (بالإنجليزيَّة (Commonwealth) في القرن الخامس عشر. وهي كلمة تعني الثروة المشتركة بالإنجليزيَّة (Common-wealth) أو الرخاء الجماعي بالإنجليزيَّة: (The common weal) من المعنى القديم لكلمة ثروة (بالإنجليزيَّة: Wealth) التي تعني السعادة أو الرخاء (بالإنجليزيَّة: well-being). ويعني المصطلح حرفيًا الرخاء الجماعي. ولذلك فإنَّ مصطلح الكمنولث يُطلق على دولة أو دولة يحكمها الشعب من أجل الشعب على عكس الدولة السلطويَّة التي تحكم من أجل طبقة معينة من الملاك. (المترجم)

١٦ سير روبرت فيلمر (١٥٨٨ - ١٦٣٥)، هو المنظر السياسي الإنجليزي الذي دافع عن الحق الإلهي للملوك. أشهر أعماله، پاتريارتشا الذي نُشرت بعد فاته عام ١٦٨٠. (المترجم)

١٧ مؤرخًا وسياسيًا وكاتبًا إنجليزيًا كاثوليكيًا. (المترجم)

www.christianlib.com

الطائرة القانونيَّة، ليس لأن هذه السُلطة في حد ذاتها سيئة (على العكس من ذلك، أنا أملك، أصل إلهي)، لكن لأن الآباء والأزواج سيئون. لقد تمَّ إلغاء الثيوقراطيَّة[١٨] بحق، لأنه من السيء للكهنة المتعلمين أنْ يحكموا العامة الجهلة، لكن لأن الكهنة هم رجال شريرون مثلنا. حتَّى سُلطة الإنسان على الحيوان كان لا بد من التدخل فيها لأنها تتعرض إلى الإساءة باستمرار.

إنَّ المساواة هيَ بالنسبة لي حتَّى في اللبس. ذلك نتيجة السقوط وعلاجه. وأي محاولة لاستعادة الخطوات التي توصلنا إليها من أجل تحقيق المساواة وإعادة تقديم السُلطات القديمة على المستوى السياسي هيَ بالنسبة لي حماقة بقدر ما هيَ خلع ملابسنا. حيث يرتكب النازيِّين والعراة نفس الخطأ. لكنه الجسد العاري، الذي ما زال موجودًا تحت ملابس كل واحد منا، هو الذي يحيا بالفعل. إنَّه العالم التسلسلي، الذي لا يزال حيًا ومختبئًا (بشكل صحيح) وراء سلسلة من المواطنة المتساوية، وذلك هو انشغالنا الحقيقي.

لا تسيء فهمي. أنا لا أقلل من أهميَّة هذا الخيال المتساوي الذي هو دفاعنا الوحيد ضد قسوة بعضنا البعض. يجب أنْ أراعي بأقوى الرفض أي اقتراح بإلغاء حق الاقتراع الرجولي، أو قانون ملكيَّة المرأة المتزوجة. لكن مهمة المساواة هيَ حماية بحتة. إنَّه دواءٌ وليس طعام. من خلال معاملة الأشخاص (في تحد حكيم للحقائق الملاحظة) كما لو كانوا جميعًا من نفس النوع من الأشياء، نتجنب الشرور التي لا حصر لها. لكن ليس على هذا قد خُلقنا للعيش. فمن التفاهة أنْ نقول إنَّ الرجال متساوون في القيمة. إذا أخذنا القيمة بالمعنى الدنيوي ـــــ إذا كنَّا نعني أنَّ جميع الرجال متساوون في الفائدة أو الجمال أو الخير أو الترفيه ـــــ فهذا هراء. إذا كان هذا يعني أنَّ جميعهم متساوون في الأرواح الأبديَّة، فأعتقد أنَّها تخفي خطأً عظيمًا. فإنَّ القيمة المطلقة لكل نفس بشريَّة ليست هيَ في العقيدة المسيحيَّة. الله لم يمت من أجل الإنسان بسبب بعض القيمة التي ندركها فيه. فقيمة كل نفس بشريَّة تعتبر ببساطة في حد ذاتها، وخارج علاقتها بالله، هيَ صفر. وكما يكتب القديس بولس، فإنَّ

١٨ الثيوقراطيَّة تعني الحكومة الدينيَّة أو حكومة الكهنة. (المترجم)

www.christianlib.com

الموت من أجل الرجال القيمين لم يكن إلهًا بل كان بطوليًا؛ لكن الله مات من أجل الخطاة. لم يحبنا لأننا كنَّا محبوبين، بل لأنه هو الحب. ربَّما كان يحب الجميع بالتساوي ـــ بالتأكيد أحب الجميع حتَّى الموت ـــ ولست متأكدًا مما يعنيه التعبير. إذا كانت هُناك مساواة، فهيَ في حبه، وليس فينا.

إنَّ المساواة هيَ مصطلح كمي وبالتالي الحب لا يعرف شيئًا عن ذلك. السُلطة تُمارس بالتواضع والطاعة تُقبل بالسرور هم نفس الخطوط التي تعيش عليها أرواحنا. حتَّى في حياة المحبَّة، وأكثر من ذلك بكثير في جسد المسيح، فإنَّنا نتخطى ذلك العالم الذي يقول «أنا جيد مثلك». هو مثل التحول من المشي إلى الرقص. هو مثل خلع ملابسنا. فأصبحنا، كما قال تشيسترتون[١٩]، أطول عندما ننحني. ونصبح أضعف عندما نعلم. إنَّه لمن دواعي سروري عندما تكون هُناك لحظات في خدمات كنيستي الخاصَّة ويقف الكاهن وأنا أجثو على ركبتي. عندما تصبح الديمقراطيَّة أكثر اكتمالًا في العالم الخارجي، وتتم إزالة فرص التقديس على التوالي، حتَّى يصبح الانتعاش والتطهير والعودة إلى اللامساواة، الأمر الذي توفره لنا الكنيسة، أكثر وأكثر ضرورة.

بهذه الطريقة، تدافع الحياة المسيحيَّة عن الشخصيَّة الفرديَّة عن الشخصيَّة الجماعيَّة، ليس عن طريق عزله لكن عن طريق إعطائه مكانة العضو في الجسد الواحد. كما يقول كاتب سفر الرؤيا، إنَّه «عمودٌ في هيكل الله»؛ ويضيف: «ولا يعود يخرج إلى خارج». ويقدم هذا جانبًا جديدًا من موضوعنا. هذا الموقف الهيكلي في الكنيسة الذي يحتله المسيحي المتواضع هو أبدي وحتَّى كوني. سوف تُعمِّر الكنيسة الكون؛ في ذلك الشخص سوف تُعمِّر الكون. فكل من ينضم إلى الرئيس الأبدي سوف يشاركه الأبديَّة. نسمع القليل عن هذا من المنبر المسيحي اليوم. إنَّ ما حدث من صمتنا يمكن الحكم عليه من خلال مخاطبته للقوات حول هذا الموضوع مؤخرًا، فقد وجدت أنَّ أحد جمهوري

١٩ جلبرت تشيسترتون: كاتب، وفيلسوف، وشاعر، وصحفي، ومسرحي، وخطيب، وناقد، وكاتب سير، ولاهوتي دفاعي إنجليزي. (المترجم)

www.christianlib.com

اعتبر هذا المبدأ «ثيوصوفي»[٢٠]. إذا لم نؤمن بذلك، دعونا نكون صادقين وننزل الإيمان المسيحي إلى المتاحف. إذا فعلنا ذلك، دعونا نتخلى عن التظاهر بأنَّه لا يوجد فرق. لأن هذا هو الحل الحقيقي لكل ادِّعاء مفرط تقدمه الجماعة. إنَّه بشريٌّ. يجب أنْ نعيش إلى الأبد. سيأتي وقت تزول فيه كل ثقافة وكل مؤسسة وكل دولة والجنس البشري وكل الحياة البيولوجيَّة وكل واحد منَّا لا يزال على قيد الحياة. لقد وعدنا بالأبديَّة، وليس بهذه العموميات. لم يمت المسيح من أجل المجتمعات أو الدول، بل من أجل البشر. بهذا المعنى، يجب على المسيحيَّة أنْ تُشخص للمجموعات العلمانيَّة التي تنطوي على تأكيد شبه مجنون للفرديَّة. لكن بعد ذلك ليس الفرد بصفته الشخص الذي سيشارك انتصار المسيح على الموت. سوف نشارك الانتصار من خلال كوننا في الذي انتصر. النبذ، أو في لغة الكتاب المُقدَّس القويَّة، فإنَّ صلب الذات الطبيعيَّة هو جواز سفر للحياة الأبديَّة. فلن يتم إحياء أي شيء ما لم يمت. هكذا تخطت المسيحيَّة التناقض بين الفرديَّة والجماعيَّة. هُناك يكمن الالتباس المثير لإيماننا كما يجب أنْ يظهر للغرباء. يضع وجهه بلا هوادة ضد الفرديَّة الطبيعيَّة لدينا. ومن ناحية أخرى، فإنَّه يعطي ظهره لأولئك الذين يتخلون عن الفرديَّة لاقتناء الأبديَّة لأشخاصهم، حتَّى من أجسادهم. باعتبارنا مجرد كيانات بيولوجيَّة، ولكل منها إرادتها المنفصلة في العيش والتوسع، فمن الواضح أنَّنا لا نعلم أي شيء؛ نحن وحدات تغذية متقاطعة. لكن كأعضاء في جسد المسيح، كأحجار وأعمدة في المعبد، نحن مطمئنون إلى هويتنا الأبديَّة وسنعيش لنتذكر المجرات كقصة قديمة.

قد يتم وضع هذا بطريقة أخرى. الشخصيَّة أبديَّة ولا تُنتهك. لكن بعد ذلك، الشخصيَّة ليست معلومة نبدأ منها. والفرديَّة التي نبدأ بها جميعًا ليست سوى محاكاة ساخرة أو ظلٍّ لها. فإنَّ الشخصيَّة الحقيقيَّة ما زالت تنتظرنا - إلى

---

٢٠ الثيوصوفيا هي حركة دينيَّة باطنيَّة تأسست في الولايات المتحدة في أواخر القرن التاسع عشر. تأسست إلى حد كبير من قبل المهاجرة الروسيَّة هيلينا بلافيتسكي وتستمد معتقداتها في الغالب مِن كتابات بلوفاتسكي. (المترجم)

www.christianlib.com

www.christianlib.com

الفصل الثامن
الغفران

نحن نقول الكثير من الأشياء العظيمة في الكنيسة (وخارج الكنيسة أيضًا) دون التفكير في ما نقوله. على سبيل المثال، نقول في قانون الإيمان المسيحي «نحن نؤمن بمغفرة الخطايا». لقد كنت أقول ذلك لعدة سنوات قبل أنْ أسأل نفسي لماذا كان الغفران شيئًا أساسيًا في العقيدة. للوهلة الأولى، يبدو أنَّ الأمر جدير بالأهميَّة. «فإذا كان المرء مسيحيًّا »، أعتقد بالطبع، أنَّه يؤمن بمغفرة الخطايا. وغني عن القول «. لكن يبدو أنَّ الأشخاص الذين جمعوا العقيدة ظنوا أنَّ هذا الجزء من إيماننا نحتاج إلى تذكيرنا به في كل مرة نذهب فيها إلى الكنيسة. وقد بدأتُ أرى أنَّه، فيما يتعلق بي، كانوا على حق. إنَّ الإيمان بغفران الخطايا ليس بالأمر السهل كما اعتقدت. فالإيمان الحقيقي به هو نوع من الأشياء التي تنزلق بسهولة إذا لم نستمر في تذكرها.

نحن نؤمن أنَّ الله يغفر لنا خطايانا. لكن أيضًا لن يفعل ذلك ما لم نسامح الآخرين عن خطاياهم. ليس هُناك شك في الجزء الثاني من هذا البيان. إنَّه في الصلاة الربانيَّة. قد صرح الله بشكل قاطع. إذا لم تُسامِح فلن تُسامَح. فلا يوجد جزء من تعاليمه أكثر وضوحًا من ذلك، ولا توجد استثناءات لذلك. فهو لا يقول يجب أنْ نغفر خطايا الآخرين بشرط ألَّا يكونوا مخيفين للغاية، أو تكون هُناك ظروف استثنائيَّة، أو أي شيء من هذا القبيل. يجب علينا أنْ نسامحهم جميعًا، مهما كانوا أشرارًا أو بشكل متكرر. إذا لم نفعل ذلك، لن يُغفر لنا أي شيء.

الآن يبدو لي أنَّنا نخطئ غالبًا في غفران الله لخطايانا وعن الغفران الذي قيل لنا أنْ نقدمه لخطايا الآخرين. أولًا غفران الله. أجد أنَّه عندما أطلب من الله أنْ يغفر لي، فأنا في الواقع في كثير من الأحيان (إنْ لم أشاهد نفسي بعناية شديدة)

www.christianlib.com

أطلب منه فعل شيء مختلف تمامًا. أطلب منه ألَّا يغفر لي بل أنْ يعذرني. لكن هُناك فرق بين الغفران والعُذر. فالغفران، هو أنك فعلت هذا الشيء، لكنني أقبل اعتذارك، ولن أعارضه أبدًا، وسيكون كل شيء بيننا كما كان من قبل». لكن العُذر «أرى أنك لا تستطيع مساعدته أو لا تعني ذلك؛ لم تكن مسئولًا حقًا». إذا لم يكن المرء مسئولًا حقًا فلا يوجد شيء يُغفر له. بهذا المعنى، فإنَّ المغفرة والعُذر هما من الأضداد. بالطبع، ففي العشرات من الحالات، إما بين الله والإنسان، أو بين شخص وآخر، قد يكون هُناك مزيج من الاثنين. جزءٌ ما بدا في البداية أنَّه خطايا وتبين أنَّه في الحقيقة لا أحد أخطأ ويعذر؛ فإذا كان لديك عُذر مثالي، فلن تحتاج إلى مغفرة؛ وإذا كانت كل أعمالك تحتاج إلى مغفرة، فلا عُذر لذلك. لكن المشكلة هيَ أنَّ ما نسميه «طلب غفران الله» غالبًا ما يكون في حقيقة الأمر أنْ نطلب من الله قبول أعذارنا. وما يقودنا إلى هذا الخطأ هو حقيقة أنَّه يوجد عادة قدر من العُذر، وبعض «الظروف المخففة». نحن حريصون جدًّا على الإشارة إلى الله (وإلى أنفسنا) لدرجة أنَّنا قادرون على نسيان الشيء المهم حقًا؛ هذا هو، الشيء المتبقي، الشيء الذي لا تغطيه الأعذار، الشيء الذي لا يُغتفر لكن لا، بفضل لله، لا يُغتفر. وإذا نسينا هذا، سنذهب بعيدًا متخيلين أنَّنا قد تُبنا ورجعنا عندما حدث كل ما فعلناه حقًا بأنَّنا راضون عن أعذارنا. قد تكون أعذارًا سيئة للغاية؛ لكننا نحن جميعًا راضون بسهولة عن أنفسنا.

ثمة نوعان من العلاج لهذا الخطر. الأوَّل هو أنْ نتذكر أنَّ الله يعرف كل الأعذار الحقيقيَّة أفضل بكثير مما نعرفه نحن. فإذا كانت هُناك «ظروف مخففة» حقيقيَّة، فلا خوف من أنْ يتغاضى عنها. ويجب عليه في كثير من الأحيان أنْ يعرف الكثير من الأعذار التي لم نفكر فيها من قبل، وبالتالي فإنَّ النفوس المتواضعة ستفاجأ بعد الموت مفاجأة سارة باكتشاف أنَّها أخطأت في مناسبات معينة أقل بكثير مما ظنوا. كل العذر الحقيقي سوف يفعله. ما يتعين علينا أنْ نأخذه إليه هو الشيء الذي لا يُغتفر، الخطيئة. فنحن نضيع الوقت فقط من خلال التحدث عن جميع الأجزاء التي يمكن (في اعتقادنا) أنْ تكون معذرة. عندما تذهب إلى الطبيب فإنك تظهر له جزءًا من الخطأ - فتقول ذراعك

www.christianlib.com

مكسورة. سيكون مجرد مضيعة للوقت أنْ تشرح أنَّ ساقيك وعينيك والحلق على ما يرام. وقد تكون مخطئًا في التفكير بذلك، وعلى أي حالٍ، إذا كان كل شيء على ما يرام، فسوف يعرف الطبيب ذلك.

أما العلاج الثاني هو أنْ تؤمن بكل صدق في مغفرة الخطايا. يأتي الكثير من قلقنا لإبداء الأعذار من عدم الإيمان به حقًا، ومن التفكير في أنَّ الله لن يأخذنا إلى نفسه مرة أخرى ما لم يكن مقتنعًا بأنَّه يمكن تقديم نوع من الحالات لصالحنا. لكن ذلك لن يكون المغفرة على الإطلاق. فالغفران الحقيقي يعني النظر بثباتٍ إلى الخطيئة، الخطيئة الباقية دون أي عذر، بعد كل البدلات، ورؤيتها بكل ما فيها من رعب وأوساخ وخسارة وخبث، ومع ذلك يتم التصالح تمامًا بينها وبين الرجل الذي فعل ذلك. هذا، وهذا فقط، هو الغفران، والذي يمكن أنْ نحصل عليه دائمًا من الله إذا طلبنا ذلك.

عندما يتعلق الأمر بغفراننا للآخرين، إنَّه نفس الشيء لكنه مختلف جزئيًا. لأن التسامح هُنا لا يعني التبرير. فيبدو أنَّ الكثير من الناس يعتقدون ذلك. إنَّهم يعتقدون إذا طلبت منهم أنْ يغفروا إلى شخص قام بخداعه أو إيذائه، فإنك تحاول أنْ تُثبت أنَّه لم يكن هُناك حقًا أي غشٍّ أو إيذاء. لكن إذا كان الأمر كذلك، فلن يكون هُناك شيء يُغفر له. ويستمروا في الرد، «لكنني أخبرك أنَّ الرجل قد كسر وعدًا مهيبًا». بالضبط: هذا هو بالتحديد ما يجب أنْ تسامحه. (هذا لا يعني أنَّه يجب عليك بالضرورة أنْ تصدق وعده التالي. هذا يعني أنَّه يجب عليك بذل كل جهد ممكن لقتل كل ذوق من الاستياء في قلبك كل رغبة في إذلاله أو إيذائه أو دفعه إلى الخارج). فإنَّ الفرق بين هذا الموقف والموقف الذي تسأل فيه مغفرة الله هو هذا. ففي حالتنا نحن نقبل الأعذار بسهولة بالغة؛ وفي الآخرين لا نقبلهم بسهولة كافية. فيما يتعلق بخطاياي، إنَّه رهانٌ (وإنْ لم يكن يقينًا) أنَّ الأعذار ليست جيدة حقًا كما أعتقد؛ وفيما يتعلق بالآخرين ضدي هو رهانٌ (وإنْ لم يكن يقينًا) أنَّ الأعذار أفضل مما أعتقد.

www.christianlib.com

لذلك يجب على المرء أنْ يبدأ بالحضور إلى كل ما قد يُظهر أنَّ الرجل الآخر لم يكن مسئولاً بقدر ما اعتقدنا. لكن حتَّى لو كان هو المسئول بالكامل، فلا يزال علينا أنْ نسامحه؛ وحتَّى إذا كان بالإمكان تفسير تسع وتسعين في المائة من ذنبه الظاهر بأعذار جيدة حقًا، فإنَّ مشكلة الغفران تبدأ بنسبة واحد في المائة من الذنب المتبقي. فإنَّ الأعذار ما يمكن أنْ تنتج حقًا أعذارًا جيدة ليس صدقة مسيحيَّة. إنَّه مجرد عدالة. فلكي تكون مسيحيًّا يُعني أنْ تغفر ما لا يُغتفر، لأن الله قد غفر عنك الذي لا يُغتفر فيك.

هذا صعبٌ. ربَّما لا يكون من الصعب أنْ نغفر عن إصابة كبيرة واحدة. لكن لكي تسامح الاستفزازات المستمرة للحياة اليوميَّة - لكي تستمر في مسامحة حموات الزوجة، والزوج العصبي، والزوجة المزعجة، والابنة الأنانيَّة، والإبن المخادع - كيف يمكننا أنْ نفعل ذلك؟ فقط، على ما أظن، من خلال تذكُّر المكان الذي نقف فيه، وبمعنى كلماتنا عندما نقول في صلواتنا كل ليلة «واغفر لنا ذنوبنا كما نغفر نحن أيضًا للمذنبين إلينا». نحن نقدم الغفران بدون أي شروط أخرى. فرفضه هو رفض رحمة الله لأنفسنا. ولا يوجد أي تلميح للاستثناءات والله يعني ما يقول.

www.christianlib.com

الفصل التاسع
زلّة لسان

عندما يضطر الشخص العادي إلى إلقاء خطبة، أعتقد أنَّه من المرجح أنْ يكون مفيدًا، أو حتَّى مثيرًا للاهتمام، إذا كان يبدأ من حيث هو بالضبط، ولا يفترض الكثير من الإرشادات لمقارنة الملاحظات.

منذ وقت ليس ببعيد عندما كنت أستخدم مجموعة الصلاة ليوم الأحد الرابع بعد الثالوث[1] وفي صلاتي الخاصَّة، وجدت أنَّني قد زللت اللسان. فكنت أقصد أنْ أصلي حتَّى أتمكن من المرور عبر أشياء مؤقتة لدرجة أنَّني لم أخسر في النهاية الأشياء الأبديَّة؛ لقد وجدت أنَّني كنت أصلي حتَّى أتمكن من المرور عبر الأشياء الأبديَّة لدرجة أنَّني لم أخسر في النهاية الأشياء المؤقتة. بالطبع، لا أعتقد أنَّ زلَّة اللسان هيَ خطيَّة. لقست متأكدًا من أنَّني حتَّى فرويديًّا[2] صارمًا بما يكفي للاعتقاد بأنَّ كل هذه الزلات، دون استثناء، لها أهميَّة كبرى. لكنني أعتقد أنَّ بعضها مهم، وأعتقد أنَّه كان من هذا النوع. فقد اعتقدت أنَّ ما قُلته عن غير قصد قد عبر عن شيء كنت أتمناه حقًا.

قريبًا جدًّا؟، ليس بالطبع ، على وجه التحديد. لم أكن أبدًا غبيًا بما فيه الكفاية لأعتقد أنَّ الأبديَّة يمكن، «بدقة، أنْ تمر». ما كنت أرغب في المرور بها دون المساس بالأشياء الزمنيَّة هيَ تلك الساعات أو اللحظات التي حضرت فيها إلى الأبد، والتي كشفتُ نفسي لها.

---

١ يا الله، حامية كل من يثق بك، والذي بدونه لا يوجد شيء قوي، ليس هُناك ما هو مُقدَّس: قم بزيادة وتضاعف رحمتك، وذلك، من خلال كونك حاكمنا ومرشدنا، قد نمر بأمور مؤقتة، حتَّى نتمكن من المرور في النهاية لا نفتقد الأشياء الأبديَّة: امنح هذا، أيها الأب السماوي، من أجل يسوع المسيح ربنا. أمين. (الكاتب)

٢ نسبة إلى نظرية الانزلاق الفرويدي لصاحبها سيجموند فرويد. (المترجم)

www.christianlib.com

إنَّني أقصد هذا النوع من الأشياء. أقول صلواتي، فقد قرأت كتابًا عن الصلاة، وأنا أتأهب أو أستقبل هذا السر. لكن بينما أفعل هذه الأشياء، هُناك، إذا جاز التعبير، صوت بداخلي يحث على توخي الحذر. يخبرني أنْ أكون حذرًا، وأنْ أبقي رأسي، وألاَّ أذهب بعيدًا، ولا أحرق قواربي. لقد جئت إلى حضور الله بخوف كبير خشية أنْ يحدث لي أي شيء في ذلك الوجود الذي سيثبت أنَّه غير مريح على نحو لا يُطاق عندما خرجت مجددًا إلى حياتي «العادية». لا أريد أنْ أكون بعيدًا عنْ أي قرار سأندم عليه فيما بعد. لأني أعلم أنَّني سأشعر كوني مختلفًا تمامًا بعد الإفطار؛ لا أريد أنْ يحدث لي أي شيء على المذبح الذي سيؤدي إلى دفع فاتورة أكبر مما يجب. سيكون من غير المقبول للغاية، على سبيل المثال، أنْ نتحمل واجب الصدقة (أثناء وجودي في المذبح) على محمل الجد لدرجة أنَّه بعد وجبة الإفطار اضطررت إلى تمزيق الرد المذهل حقًا الذي كتبته إلى مراسل وقح أمس وأراد نشره اليوم. سيكون من المرهق للغاية أنْ ألزم نفسي ببرنامج اعتدال للإقلاع عن السجائر بعد الإفطار (أو، في أحسن الأحوال، يجعله بديلا قاسيًا للسجائر في وقت لاحق من الصباح). حتَّى التوبة من الأفعال الماضية سوف يتعين دفع ثمنها. فبالتوبة، يعترف المرء بالخطايا وبالتالي لا تتكرر. ومن الأفضل ترك هذه القضيَّة التي لم يُحسم أمرها.

إنَّ مبدأ الأصل لجميع هذه الاحتياطات هو نفسه: لحماية الأشياء الزمنيَّة. وأجد بعض الأدلة على أنَّ هذا الإغراء ليس غريبًا بالنسبة لي. يسأل مؤلف جيد (لم أتذكر اسمه بالتحديد) في مكان ما، «ألم نقم من الركبتين على عجلة خوفًا من أنْ تصبح مشيئة الله التي لا لَبس فيها إذا صلينا لفترة أطول؟» فالقصة التالية تخبرنا عن الحقيقة. اجتمعت امرأة أيرلنديَّة كانت تعترف على مذبح الكنيسة وكانت هُناك امرأة أخرى أكبر عدو لها في القرية. المرأة الأخرى عندما رأتها قد رمتها ببعض الكلمات المسيئة. أجابت بشكل سيء: «أليس من العار بالنسبة إليك» أنْ تتحدثي معي هكذا، أيها الجبانة، وأنا في حالة الصلاة بالطريقة التي لاَ أستطيع الإجابة عليكِ؟ لكن انتظري.لكني لم أكن أصلي بشكل طويل «. هُناك مثال مأساوي ممتاز في كتاب أخبار بارست الأخيرة للكاتب أنطوني ترولوب. حيث كان الأرشيدياكون غاضبًا من ابنه الأكبر.

www.christianlib.com

لقد قام في وقت واحد بعدد من الترتيبات القانونيَّة لمصلحة الابن. كان من الممكن صنعها بسهولة بعد بضعة أيام، لكن أنطوني ترولوب وضح سبب عدم انتظار الأرشيدياكون. للوصول إلى اليوم التالي، كان عليه أنْ يمر من خلال صلاته المسائيَّة، وكان يعلم أنَّه قد لا يتمكن من تنفيذ خططه العدائيَّة بأمان من خلال الفقرة، «اغفر لنا كما نغفر نحن أيضًا». لذلك دخل في البداية؛ وقرر أنْ يقدم الأمر الواقع إلى الله. هذه حالة متطرفة من الاحتياطات التي أتحدث عنها؛ لن يجرؤ الرجل على الوصول إلى الأبديَّة حتَّى يكون قد جعل الأشياء عالميَّة بشكل آمن.

هذه هيَ إغراءاتي المتكررة التي لا نهاية لها: النزول إلى ذلك البحر (أعتقد أنَّ القديس يوحنا الحبيب دعا الله بحرًا) وليس هُناك رش أو بلل أو طفو، لكن فقط غوص وسباحة، إنَّني أحرص على عدم الخروج من هذه الأعماق وأتمسك بحبل النجاة الذي يربطني بأشيائي الزمنيَّة.

إنَّه مختلف عن الإغراءات التي واجهتنا في بداية الحياة المسيحيَّة. ثم قاتلنا (على الأقل قاتلت) ضد الاعتراف بادِّعاءات الأبديَّة على الإطلاق. وعندما قاتلنا وضُربنا واستسلمنا، افترضنا أنَّ الجميع سيكونوا عاديين. وهذا الإغراء يأتي في وقت لاحق. إنَّه موجه إلى أولئك الذين اعترفوا بالفعل بالمطالبة من حيث المبدأ وحتَّى أنَّهم يبذلون نوعًا من الجهد لمواجهتها. لدينا إغراء هو أنْ ننظر بشغف إلى الحد الأدنى لما سيتم قبوله. نحن في الواقع مثل الذين يدفعون الضرائب بانتظام لكنهم كارهين هذا. فنحن نوافق على ضريبة الدخل من حيث المبدأ. وتكون عائداتنا بصدق. لكننا نخشى زيادة الضريبة. ونحن حريصون جدًّا على عدم دفع أكثر مما هو ضروري. ونأمل - نأمل بشدة - بعد أنْ ندفعها، سيظلّ هُناك ما يكفي للعيش به.

وقد لاحظت أنَّ تلك التحذيرات التي يهمس بها الشيطان في آذاننا كلها معقولة. ففي الواقع، لا أعتقد أنَّه غالبًا ما يحاول خداعنا (بعد مرحلة الشباب المبكرة) بالكذب المباشر. فالمعقوليَّة هيَ هذا. من الممكن حقًا أنْ نتحرك بعاطفة دينيَّة أو حماسة كما أطلق عليها أجدادنا - في قرارات ومواقف

www.christianlib.com

يجب علينا أنْ نأسف عنها، ليس بالخطيَّة لكن بعقلانيَّة، فليس عندها نكون أكثر دنيويَّة لكن عندها نكون أكثر حكمة. كما يمكن أنْ نصبح شكاكين أو متعصبين، ويمكننا في ما يبدو متحمسًا لكنه افتراضًا حقيقيًا، أنْ نقبل احتضان المهام التي لم تكن موجهة لنا. هذه هيَ الحقيقة في الإغراء. فقد تتألف الأكذوبة في اقتراح أنَّ أفضل حماية لدينا هيَ مراعاة الحكمة لسلامة ما لدينا. وذلك في أموالنا، وفي انغماسنا المعتاد، وفي طموحاتنا. لكن هذا غير صحيح تمامًا. فيجب السعي للحصول على حمايتنا الحقيقيَّة في أشياء آخرى: في الاستخدام المسيحي المشترك، وفي اللاهوت الأخلاقي[٣]، وفي التفكير العقلاني الثابت، وفي نصيحة الأصدقاء والكتب الجيدة، و(إذا لزم الأمر) في القيادة الروحيَّة. فإنَّ دروس السباحة أفضل من دروس الإنقاذ على الشاطئ.

بالطبع إنَّ دروس الإنقاذ هيَ بالفعل موتٌ. فلا يوجد توازن بين دفع الضرائب والعيش على ما تبقى. لأن الله لا يطلب الكثير من وقتنا والكثير من اهتمامنا؛ ليس حتَّى كل وقتنا وكل اهتمامنا. هذه هيَ أنفسنا. بالنسبة إلى كل واحد منَّا، فإنَّ كلمات المعمدانيِّين صحيحة: «يجب أنَّ ذاك يزيد وأنا أنقص.» فإنَّه سيكون رحيم بلا حدود لفشلنا المتكرر؛ لا أعرف أي وعد بأنَّه سيقبل حلًا وسط. لأنه ليس لديه، أي شيء يعطينا إياه سوى نفسه؛ ويمكن أنْ يعطي ذلك فقط بقدر ما يُرجع ثقتنا بأنفسنا ويفسح المجال له في نفوسنا. دعونا نوقظ عقولنا. لن يكون هُناك شيء «خاص بنا» يُترك للعيش فيه، ولا توجد حياة «عادية». لا أقصد أنَّ كل واحد منَّا سيُطلب بالضرورة أنْ يكون ضحية أو حتَّى زاهدًا. هذا قد يكون. بالنسبة إلى البعض (لا أحد يعرف) فإنَّ الحياة المسيحيَّة ستشمل الكثير من أوقات الفراغ، والعديد من المهن التي نحبها بشكل طبيعي. لكن سوف يتم تلقي هذا من يد الله. ففي المسيحيَّة المثاليَّة، سيكونون جزءًا كبيرًا من «دينه» و«خدمته»، كواجباته الصعبة، وستكون أعباده المسيحيَّة مثل أصوامه. وما لا يمكن الاعتراف به – هو أنْ يكون موجودًا فقط كعدوٍ غير مهزوم لكننا

٣ اللاهوت الأخلاقي الكاثوليكي: هو عقيدة رئيسة في الكنيسة الكاثوليكيَّة، يشمل الأخلاقيات الاجتماعيَّة في التعليم الكاثوليكي، والأخلاقيات الطبيَّة، والجنسيَّة، ومختلف الفضائل الأخلاقيَّة النظرية. (المترجم)

www.christianlib.com

نقاومه يوميًا. هيَ فكرة شيء يسمى (منطقتنا) وفي هذه المنطقة نكون خارج الطريق وبالتالي لا يكون لله سلطان عليها.

بما أنَّه يستحق كل شيء، لأنه محبة ويجب أنْ يبارك. لا يستطيع أنْ يباركنا إلَّا إذا كان معنا. عندما نحاول أنْ نُبقي في داخلنا منطقة خاصة بنا، فإنَّنا نحاول الحفاظ على منطقة تسمى الموت. لذلك، في الحب، يُدعى الجميع ولا يوجد مساومة معه.

هذا هو، على ما أعتقد، معنى كل تلك الأقوال والتي تزعجني بكثرة. فقول توماس مور، «إذا كنت تتعاقد مع الله فكم ستخدمونه، فستجد أنك قد أشارت إلى الاثنين معًا». فإنَّ العدالة، بصوته الرهيب اللطيف، حيث «سيتم رفض الكثيرين في اليوم الأخير، ليس لأنهم لم يأخذوا الوقت والألم في خلاصهم، لكنهم لم يأخذوا وقتًا وآلامًا كافية»؛ ولاحقًا، في غنائه، «إذا لم تكن قد اخترت ملكوت الله، ففي النهاية لا يكون هُناك فرق فيما اخترته بدلًا من ذلك». هذه هيَ الكلمات الصعبة التي يجب اتخاذها. هل حقًا لن يكون هُناك فرق سواء كانت النساء أو الوطنيَّة أو الكوكايين أو الويسكي أو له مقعد في مجلس الوزراء أو لديه مالًا أو علمًا؟ حسنًا، بالتأكيد لا فرق مهم. سنكون قد فاتنا النهاية التي تكونت من أجلها ورفضنا الشيء الوحيد الذي يُرضي أنفسنا. هل يهم رجل يموت في الصحراء من خلال الطريق الذي اختار فيه أنْ يفقد الينبوع الوحيد؟

إنَّها حقيقة رائعة أنَّ السماء والجحيم يتحدثان بصوت واحد في هذا الموضوع. يقول لي الشيطان «احترس. فكر في تكلفة هذا التصميم الجيد وقبول هذه النعمة». لكن يخبرنا إلهنا بنفس القدر أنْ نحسب التكلفة. حتَّى في الشؤون الإنسانيَّة، تعلق أهميَّة كبيرة على موافقة أولئك الذين لا تكاد شهاداتهم تتفق معهم. هُنا، أكثر من ذلك. فبينهما يبدو من الواضح أنَّ التجديف له عواقب ضئيلة. ما يهم، ما تشتهيه السماء وتخشى الجحيم، هو بالضبط تلك الخطوة الإضافيَّة، من أعماقنا، التي هيَ خارج عن سيطرتنا.

وحتَّى الآن، أنا لست في حالة يأس. ففي هذه المرحلة أصبحت ما

www.christianlib.com

يسميه البعض إنجيليًا جدًّا؛ على أي حال - فأنا لست بيلاجيًا[٤]. ولا أعتقد أنَّ أي جهود لإرادتي يمكن أنْ تنتهي مرّة واحدة وإلى الأبد لهذا الحنين إلى هذه المسئوليات المحدودة، فهذا تحفظ قاتل. فقط الله يستطيع. فأنا لديَّ إيمان وآمل أنْ يفعل ذلك. بالطبع، لا أقصد أنَّه يمكنني أنْ أفعل ذلك، كما يقولون، «الجلوس بالخلف». فما يفعله الله لنا، وهو يفعله فينا أي يُشكله فينا. ستظهر لي عمليَّة القيام بذلك (وليس كذبًا) على أنَّها تمارين يوميَّة أو كل ساعة متكررة بإرادتي في نبذ هذا الموقف، خاصة كل صباح، لأنه ينمو في كل مكان مثل صدفة جديدة كل ليلة. فحالات الفشل ستُغفر، وإنَّ الرضوخ هو موتٌ، والوجود المنظم المسموح به لمنطقة في أنفسنا والتي ما زلنا نطالب بها.. لا يجوز لنا أبدًا، هذا الجانب من الموت، أنْ نطرد المحتل خارج أرضنا، لكن يجب أنْ نكون في المقاومة، وليس في حكومة فيشي[٥]. وهذا، بقدر ما أستطيع أنْ أرى، يجب أنْ يبدأ من جديد كل يوم. يجب أنْ تكون صلاتنا الصباحيَّة كما هيَ في التقليد: أنْ تكون بداية مثاليَّة، فأعطني بداية صحيحة اليوم، لأنني لم أفعل شيئًا بعد.

٤ البيلاجيَّة هي نظرية لاهوتيَّة يعود اسمها إلى الراهب بيلاجيوس (٣٥٤ - ٤٢٠) وتعتقد أنَّ الخطية الأصليَّة لم تؤثر على الطبيعة البشريَّة، وأنَّ إرادة الإنسان لا تزال قادرة على الاختيار بين الخير والشر بدون مساعدة إلهيَّة خاصة، لذلك تُعتبر البيلاجيَّة هرطقة. (المترجم)

٥ حكومة فيشي: هي حكومة فرنسيَّة موالية لألمانيا النازية، تشكلت في أثناء الحرب العالميَّة الثانية بعد أنْ اقتحمت القوات الألمانيَّة الأراضي الفرنسيَّة عبر هولندا وبلجيكا بقيادة الجنرال غورديان في مايو ١٩٤٠م، وهي منسوبة إلى مدينة فيشي (منتجع في جنوبي فرنسا)، واستمرت حتَّى عام ١٩٤٤. (المترجم)

www.christianlib.com

إصدارات سلسلة سي إس لويس

الطلاق العظيم.
الله في قفص الاتهام.
الله في قفص الاتهام.
ثقل المجد.
ليلة العالم الأخيرة.
السلوك المسيحيّ.

C. S. Lewis.

ثقل المجد

The Weight of Glory

أختيرت هذه العناوين التسعة من العظات التي ألقاها سي. أس. لويس خلال الحرب العالميّة الثانية، إذ تقدم التوجيه والإلهام في وقت يسوده الشك الشديد. فهذه العظات تعد ذات محتوى حماسي وواضح يوفر رؤية إنسانيّة للمسيحيّة. من خلال معالجة بعض أصعب المشكلات التي نواجهها في حياتنا اليوميّة، توفر كلمات سي. أس. لويس المتحمسة والخالدة طريقًا لا مثيل له لتحقيق فهم روحي أكبر وأعمق. إذ يعتبره الكثيرون عنوان هذا الكتاب الأكثر إثارة، "ثقل المجد" يشيد برؤية ذات بعد رحمي للمسيحيّة ويتضمن مناقشات واضحة ومقنعة حول التسامح والإيمان.

رسالتنا للنشر والتوزيع